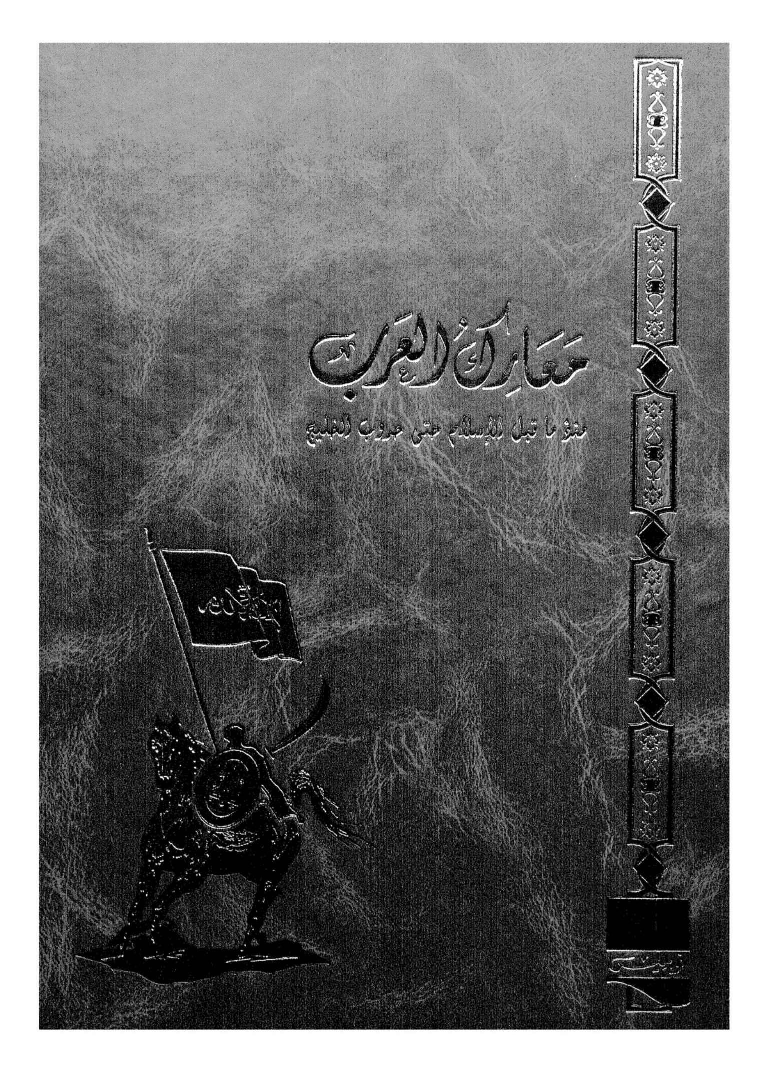
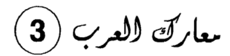
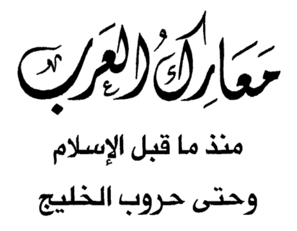

معارك العرب
منذ ما قبل الإسلام حتى حروب الخليج


معارك العرب 3

اسم الموسوعة : معارك العرب
منذ ما قبل الإسلام وحتى حروب الخليج
اسم الكتاب : حروب الردَة وفتح الحيرة
المؤلَف : العميد الركن الدكتور سامي ريحانا
قياس الكتاب : 20x28 سم
عدد الصفحات : 216
عدد صفحات الموسوعة : 5920
مكان النشر : بيروت – لبنان
دار النشر والتوزيع : دار نوبِليس
تلفاكس : 961 1 58 34 75
هاتف : 961 (1) 58 11 21 - 961 (3) 58 11 21
بريد إلكتروني : NOBILIS_INTERNATIONAL@hotmail.com
الطبعة الأولى : 2007

العميد الركن سامي ريحانا

دكتور في التاريخ

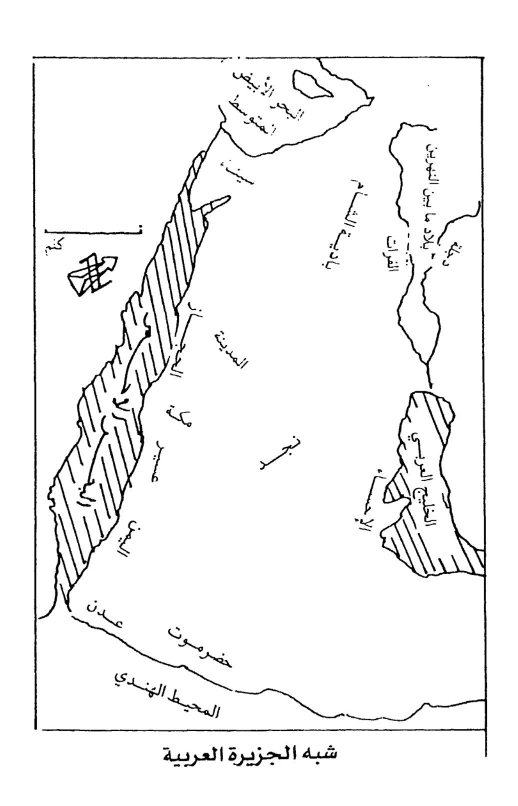


منذ ما قبل الإسلام
وحتى حروب الخليج

المجلّد (3)

حروب الردّة وفتح الحيرة

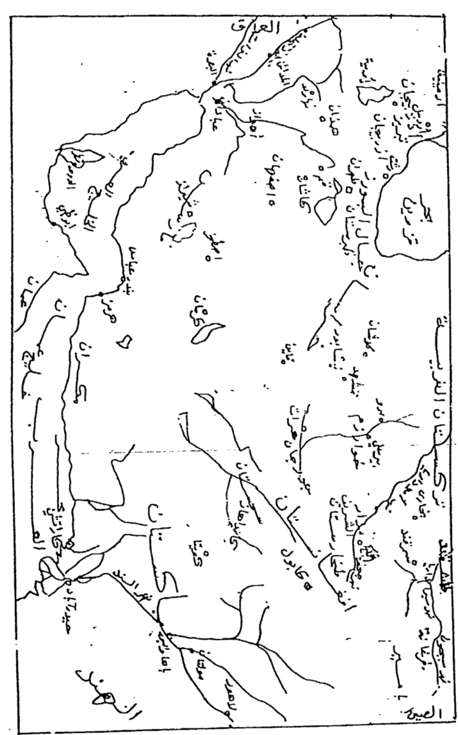
NOBILIS
2007



شبه الجزيرة العربية

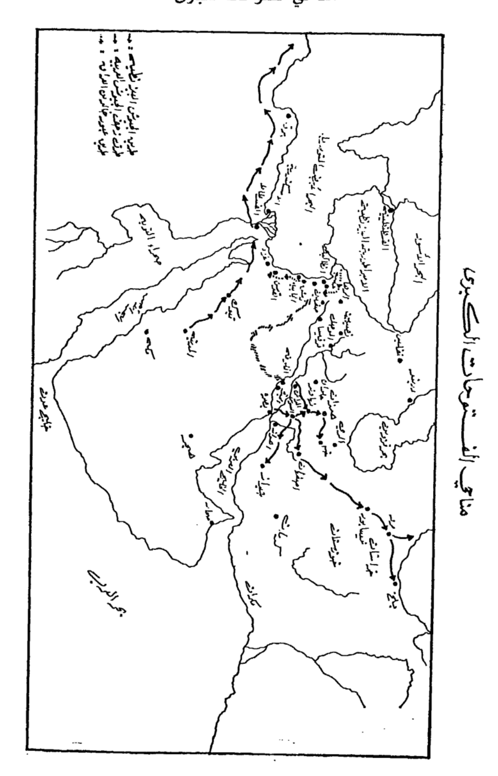
خارطة

دولة الفرس



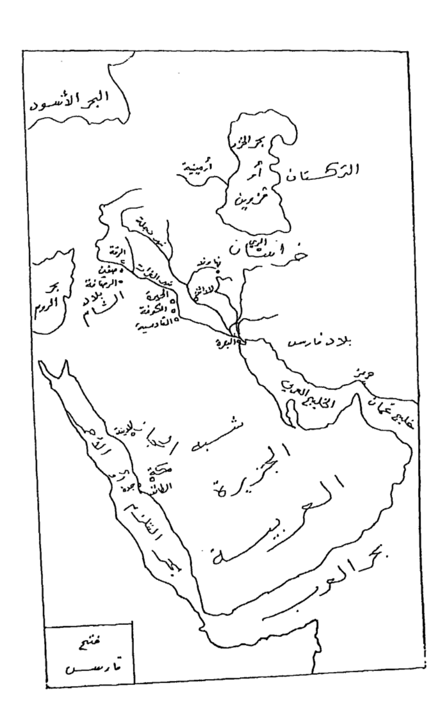
خارطة

مناحي الفتوحات الكبرى



خارطة

فتح فارس



المقدّمة

نتائج فتح مكّة

شكّل فتح مكّة نهاية مرحلة وبداية مرحلة أخرى في تاريخ الإسلام. فمكّة المدينة التي شهدت ولادة النبيّ ﷺ وطفولته وشبابه وزواجه من خديجة بنت خويلد، وهي التي شهدت نزول الوحي للمرّة الأولى على النبيّ ﷺ في غار حراء وبداية الدعوة وحرب قريش على الرسول ﷺ، وصولاً إلى هجرته مع المسلمين إلى المدينة.

لذلك، لمكة مكانة عاطفية ومعنوية في فكر النبيّ ﷺ وفي أفكار المسلمين وقلوبهم خلال هذه المرحلة.

كما ان مكّة كانت أهم المراكز التجارية في الحجاز خلال الجاهلية وصدر الإسلام، وأهلها هم من سادة العرب ومن أبرز القبائل وأغناها. وسادة قريش منفتحون على ما جاور شبه الجزيرة العربية من مجتمعات وشعوب، ولهم علاقات تجارية مع هذه الشعوب، ان في بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين شمالاً، أو في اليمن والحبشة جنوباً، وقد شهد النبيّ ﷺ بعضاً منها عندما خرج بتجارة لخديجة بنت حويلد.

ولمكّة أيضاً مكانة دينية بارزة لدى القبائل العربية، فهي مركز أصنام العرب والكعبة ومركز العبادات ما قبل السماوية التي سبقت ظهور الإسلام. ولها أيضًا مركز اجتماعي وثقافي مهم في شبه الجزيرة العربية من خلال الأسواق التجارية التي كانت تقام في أرباضها حيث تعقد الصفقات التجارية الكبرى وتنشد القصائد الجميلة وأبرزها المعلّقات السبع.

لذلك اعتبر فتح مدينة مكّة وانضمام سكّانها إلى الإسلام، من أهم إنجازات النبيّ ﷺ منذ هجرته إلى المدينة. فمع انضمام مكّة إلى الإسلام اتحدت مناطق الحجاز التي شهدت بداية الدعوة، وزال العائق الأخير والبارز أمام انتشار الإسلام، ليس فقط في شبه الجزيرة العربية، إنما خاصة في المناطق والأصقاع المجاورة، وصولاً إلى البعيدة عنها.

وقبائل مكّة، وخاصة قريش، ستقدم أبرز القادة الذين ستقع على عاتقهم مهمّة الفتوحات الكبرى في سبيل نشر الدين. كما ان مكّة ستصبح في ما بعد أهم مركز ديني إسلامي في العالم وأول الحرمين الشريفين.

ومن المعروف ان خلفاء النبيّ ﷺ، من الخلفاء الراشدين إلى خلفاء بني أمية وبني العباس كانوا من أصول تعود إلى مكّة. حتى الأمراء والخلفاء في مختلف أقطار بلاد الإسلام خلال مراحل تاريخه الأول كانوا يعودون أيضًا إلى أصول مكّية. فعبد الرحمن الداخل، الذي نجا من مذبحة أبي فطرس وفرّ طريدًا إلى شمال افريقيا فالأندلس، لم يجد صعوبة كبرى في تأليب عرب الأندلس حوله وصولاً إلى الاستيلاء على الحكم فيها، بسبب أصله القرشي، وهو الذي لقب بـ«صقر قريش».

وبعد سقوط مكّة، تتابعت الانتصارات الإسلامية في عهد النبيّ ﷺ الذي تمكن، خلال السنتين الباقيتين من وجوده مع المسلمين، من توحيد العرب تحت قيادته. كما انه بدأ فعلاً بأرسال السرايا نحو بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين لدعوة شعوبهما إلى الإسلام. وهذا ما سيكمله الخليفتان الراشديان الأولان أبو بكر الصديق وعمر ابن الخطاب، وذلك رغم انشغال أبي بكر، خلال السنة الأولى من قيادة المسلمين بحروب الردة.

كلّ ما تقدّم سنفصّله في هذا الجزء من موسوعتنا العسكرية.

القسم الأول

غزوات الرسول ﷺ بعد فتح مكة

الفصل الأول
غزوات السنة الثامنة للهجرة

أقام النبيّ ﷺ في مكّة بعد الفتح بقية شهر رمضان، أي تسعة عشر يومًا، يصلّي ركعتين نظرًا إلى أنه كان مسافراً وفق ما نقل عنه المؤرّخون قوله: «يا أهل البلد، صلّوا أربعاً، فإنّا قوم سفر».[1]

أ - إصدار الأحكام في مكّة:

خلال إقامته في مكّة المكرمة قام النبيّ ﷺ بإصدار الأحكام بين المتقاضين، أولها كان بين سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة بسبب ملكية ولد رضيع. ثمّ عرض عليه موضوع إقدام امرأة على السرقة خلال غزوة الفتح فأمر بها فقطعت يدها، فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوّجت.[2]

كما ذكر ابن كثير نقلاً عن الزهري ان رسول الله ﷺ سمح بزواج المتعة بعد دخول المسلمين إلى مكّة، ثمّ نهاهم عنه. كتب ابن كثير:[3]

«وقد رواه البخاري في موضع آخر، ومسلم من حديث ابن وهب عن يونس، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة به، وفي صحيح مسلم من حديث سبرة بن معبد الجهني قال: أمرنا رسول الله ﷺ بالمتعة عام الفتح حين دخل مكّة، ثم لم يخرج حتى نهانا عنها. وفي رواية فقال: «أَلاَ إِنَّهَا حَرَامٌ مِنْ يَوْمِكُمْ هَـذَا إِلَى يَـوْمِ القِيَامَـةِ». وفي روايـة في مسند أَحمد والسنن

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، جزء ٤، ص ٣٤٢.
(٢) ابن كثير، المرجع نفسه، ص ٣٤٣.
(٣) المرجع نفسه.

أن ذلك كان في حجّة الوداع فالله أعلم. وفي صحيح مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يونس بن محمّد، عن عبد الواحد بن زياد، عن أبي العميس، عن أياس بن سلمة ابن الأكوع، عن أبيه أنه قال: رخّص لنا رسول الله ﷺ عام أوطاس في متعة النساء ثلاثًا ثمّ نهانا عنه. قال البيهقي: وعام أوطاس هو عام الفتح، فهو وحديث سبرة سواء.

قلت: من أثبت النهي عنها في غزوة خَيْبر قال: إنها أبيحت مرّتين، وحرّمت مرتين، وقد نصّ على ذلك الشافعي وغيره. وقد قيل إنها أبيحت وحرّمت أكثر من مرّتين فالله أعلم. وقيل إنها إنما حرّمت مرّة واحدة، وهي هذه المرة في غزوة الفتح. وقيل إنها إنما أبيحت للضرورة، فعلى هذا إذا وجدت ضرورة أبيحت، وهذه رواية عن الإمام أحمد. وقيل بل لم تحرّم مطلقًا، وهي على الإباحة، هذا هو المشهور عن ابن عبّاس وأصحابه وطائفة من الصحابة، وموضع تحرير ذلك في الأحكام».

أما مبايعة الرسول ﷺ في مكّة، فقد جرت على الإسلام والشهادة، أي شهادة «ان لا إلــه إلاّ الله وان محمّــداً عــبــده ورسوله».

وسئل رسول الله ﷺ في مكّة انه قيل إنه لا يدخل الجنة إلاّ من هاجر، فأجاب: «لا هجرة بعد فتح مكّة، ولكن جهاد ونيّةٌ...» ونقل ان أحد المكيّين سأل النبيّ ﷺ عن المبايعة فأجاب: «تبايع على الإسلام والايمان والجهاد».(١)

وهذه الأقوال تظهر ان الهجرة انقطعت بعد فتح مكّة، لان الناس دخلوا في الإسلام جماعات جماعات، وثبتت أركان الدين ودعائمه، وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء.

ب - غزوة النبيّ ﷺ هوازن بحنين:

في السنة الثامنة للهجرة، وبعد فتح مكّة، أمر النبيّ ﷺ بمتابعة الغزوات، فكانت أولها غزوة بني هوازن وثقيف، وسببها أن هوازن وثقيف نزلوا بحُنين(٢) وهم مصمّمون على قتال النبيّ ﷺ، ومعهم النساء والاولاد

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣٤٥.
(٢) حنين وادٍ إلى جنب سوق ذي المجاز بضواحي مكة.

والأموال. وكان رئيسهم يومذاك مالك بن عوف أحد بني نصر.

سار النبيّ ﷺ بنفسه على رأس مجموعة المسلمين حتى قدم على هوازن وثقيف فهزمهم وغنم ما ساقوه من النساء والأولاد والماشية والأموال فوزع الماشية والأموال على من أسلم معه من قريش.[١]

كتب الطبري عن هذه الغزوة ما يلي:[٢]

«حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سَلمة، عن ابن إسحاق، قال: لما سمعَتْ هوازن برسول الله ﷺ وما فتح الله عليه من مكّة؛ جمعها مالك بن عوف النَّصري؛ واجتمعت إليه مع هَوازن ثَقِيف كلّها، فجُمعت نصر وجُشَم كلّها وسعد بن بكر وناس من بني هلال؛ وهم قليل. ولم يشهدها من قَيْس عَيْلان إلاّ هؤلاء، وغابت عنها فلم يحضرها من هَوازن كعب ولا كلاب؛ ولم يشهدها منهم أحدٌ له اسمٌ، وفي جُشم دُرَيْد بن الصِّمَّة شيخ كبير؛ ليس فيه شيء إلاّ التيمّن برأيه ومعرفته بالحرب، وكان شيخًا كبيرًا مجرّبًا. وفي ثقيف سيّدان لهم في الأحلاف: قارب بن الأسود بن مسعود. وفي بني مالك ذو الخِمار سُبيْع بن الحارث وأخوه الأحمر بن الحارث في بني هلال، وجماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النصريّ.

فلمّا أجمَع مالك المسِير إلى رسول الله ﷺ حطّ مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم؛ فلمّا نزل بأَوْطاس، اجتمع إليه الناس؛ وفيهم دُرَيد بن الصمة في شِجار له يُقادُ به. فلما نزل قال: بأيّ وادٍ أنتم؟ قالوا: بأَوْطاس، قال: نعم مجالُ الخيل! لا حَزْن ضَرِس، ولا سهل دهس؛ مالي أسمع رُغاء البعير، ونُهاق الحمير، ويُعار الشاء، وبكاء الصغير! قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم.

حدّثنا ابنُ حَميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن عبدالله بن أبي بكر، قال: ثمّ خرج رسول الله ﷺ؛ ومعه ألفان من أهل مكّة، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين فتح الله بهم مكّة، فكانوا اثني عشر ألفاً. واستعمل رسول الله ﷺ عَتّاب بن أسيد بن

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، جزء ٢، ص ١٦٦.

(٢) الطبري، المرجع نفسه، ص ١٦٦ - ١٦٧.

أبي العِيص بن أميّة بن عبد شمس على مكّة أميراً على مَنْ غاب عنه من الناس، ثمّ مضى على وجهه يريد لقاء هوازن.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه، قال: لمّا استقبلنا وادي حُنين، انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حَطُوط، إنما ننحدر فيه انحداراً - قال: وفي عَماية الصبح، وكان القوم قد سبقوا إلى الوادي، فكمنوا لنا في شِعابه وأحنائه ومضايقه، قد أجمعوا وتهيؤوا وأعدّوا - فوالله ما راعنا ونحن منحطّون إلاّ الكتائب قد شدّت علينا شَدّة رجل واحد. وانهزم الناس أجمعون، فانشمروا لا يلوي أحدٌ على أحد؛ وانحاز رسولُ الله ﷺ ذات اليمين، ثمّ قال: أين أيها الناس! هلمّ إليّ! أنا رسولُ الله! قال: فلا شيء، احتملت الإبل بعضها بعضاً، فانطلق الناس؛ إلاّ أنه قد بقيَ مع رسول الله ﷺ نفرٌ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته. وممّن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر، وعمر، ومن أهل بيته عليٌّ ابن أبي طالب، والعبّاس بن عبد المطلب، وابنُه الفضل، وأبو سفيان بن حرب...»

وعاد النبيّ ﷺ وشدّد عزائم أصحابه فنشب قتال عنيف بين الفريقين انتصر فيه المسلمون، نصراً نقله ابن الأثير إذ كتب:[1]

«واقتتل الناس قتالاً شديداً، وقال النبيّ ﷺ لبغلته دلدل: «البدي دلدل» فوضعت بطنها على الأرض فأخذ حفنة من تراب فرمى به في وجوههم فكانت الهزيمة فما رجع الناس إلاّ والأسارى في الحِبال عند رسول الله ﷺ. وقيل: بل أقبل شيءٌ أسود من السماء مثل البجاد[2] حتى سقط بين القوم فإذا نملٌ أسود مبثوث فكانت الهزيمة. ولما انهزمت هوازنُ قتل من ثقيف وبني مالك سبعون رجلاً، فأما الأحلاف من ثقيف فلم يُقتل منهم غير رجلين لأنهم انهزموا سريعاً. وقصد بعض المشركين الطائف، ومعهم مالك بن عوف، واتّبعت خيلُ رسول الله ﷺ المشركين فقتلهم. وكان بعض المشركين بأوطاس فأرسل إليهم رسول الله ﷺ أبا عامر الأشعري عم أبي موسى، فرمى أبو عامر

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، جزء ٢، ص ١٣٧ - ١٣٩.

(٢) البجاد هو الكساء.

بسهم قيل: رماه سلمة بن دريد بن الصمة، وقتل أبو موسى سلمة هذا بعمه أبي عامر وانهزم المشركون بأوطاس وظفر المسلمون بالغنائم والسبايا».

ج - غزوة خالد بن الوليد لنبي جذيمة:

يعود بنو جذيمة في أصولهم إلى كنانة، وكانوا ما يزالون على دين الجاهلية ولم يعتنقوا الاسلام. لذلك، وضمن سياسة دعوة القبائل العربية إلى الاسلام بعد فتح مكة، قرّر الرسول ﷺ إرسال سرية إلى بلادهم بقيادة خالد بن الوليد، كلّفها بالاستطلاع فقط، وليس القتال.

سار خالد مع سريته حتى وصل الى الغميصاء، وهي ماء لجذيمة، ومعه قبائل من العرب من سُليم ومدلج بن مرّة. فلما علم بنو جذيمة بوصوله أخذوا سلاحهم تمهيداً للقتال، لكن خالداً قال لهم: «ضعوا السلاح، فإن الناس قد أسلموا»[1]، فوضعوا السلاح. غير أن خالد كتّفهم وقتل منهم من قتل، وقيل انه قتل خالد بن جذيمة، لان بني جذيمة سبق وقتلوا في الجاهلية عماً له اسمه «الفاكه بن المغيرة». وقيل انه قتل منهم لأنه دعاهم للإسلام فجعلوا يقولون «صبأنا، صبأنا»، ما يعتبر إهانة للإسلام.

ثمّ أرسل النبيّ ﷺ علي بن أبي طالب لتأدية مال لهم بدل الخسائر التي أنزلها خالد بهم. نقل ابن الأثير الرواية الكاملة عن هذه الغزوة فكتب:[2]

«وفي هذه السنة كانت غزوة خالد بن الوليد بني جَذيمة، وكان رسول الله ﷺ قد بعث السرايا بعد الفتح فيما حول مكة يدعون الناس إلى الإسلام ولم يأمرهم بقتال. وكان ممن بعث خالد بن الوليد بعثه داعياً ولم يبعثه مقاتلاً، فنزل على الغميصاء - ماء من مياه جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة - وكانت جَذيمة أصابت في الجاهلية عوف بن عبد عوف أبا عبد الرحمن بن عوف والفاكه بن المغيرة عم خالد. كانا أقبلا تاجرين من اليمن

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣٣٧.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٢٨ - ١٢٩.

فأخذت ما معهما وقتلتهما، فلما نزل خالد ذلك الماء أخذ بنو جذيمة السلاح، فقال لهم خالد: ضعوا السلاح فإنَّ الناس قد أسلموا. فوضعوا السلاح فأمر خالد بهم فكتفوا ثمَّ عرضهم على السيف فقتل منهم من قتل.[(١)]
فلما انتهى الخبر إلى النبيِّ ﷺ رفع يديه إلى السماء ثمَّ قال: اللهمَّ إنّي أبرأ إليك مما صنع خالد.

ثمَّ أرسل علياً ومعه مال وأمره أنْ ينظر في أمرهم فودى لهم الدماء والأموال حتى إنه ليدي ميلغة[(٢)] الكلب، وبقي معه من المال فضلة فقال لهم علي: هل بقي لكم مال أو دم لم يود؟ قالوا: لا. قال: فإني أعطيكم هذه البقية احتياطاً لرسول الله ﷺ ففعل، ثمَّ رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: أصبتَ وأحسنت، وقيل: إن خالداً اعتذر».

د - الدروس المستقاة:

- كانت غزوة هوازن حرباً استباقية درج النبيّ ﷺ على شنّها مستبقاً هجوم المشركين عليه. وهكذا طبق النبيّ ﷺ مبدأ الحرب الثاني أي «حرية العمل» إذ أنه اختار زمان ومكان المعركة بدلاً من انتظار وصول هوازن إلى المدينة.

كما انه طبق مبدأ الحرب الأول أي «نسبية الأهداف للوسائل» إذ قام بحشد كبير للقوى فبلغ عديدها اثني عشر ألف مقاتل فتمكّن من حسم القتال لمصلحة المسلمين.

- أما في غزوة خالد بن الوليد لبني جذيمة، فان هذا القائد الكبير تصرّف بشكل يسيء إلى صورته التاريخية، إذ انه قتل بعضاً من بني جذيمة بعد أن وضعوا السلاح واستسلموا إليه. أما سبب تصرّفه هذا فيعود للعقلية الجاهلية التي كانت تفرض الأخذ بالثأر من الذين قتلوا عماً له. وما يظهر مخالفة خالد للقواعد العسكرية التي وضعها النبيّ ﷺ للمسلمين، والتي سبق الحديث عنها في الجزء السابق، قول النبيّ ﷺ: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد».

---

(١) نقل البخاري ان سبب قتلهم ان خالد دعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا ان يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فذلك سبب قتلهم لان كلمة صبأنا وصمة عار يعيب الكافرون بها المسلمون.

(٢) هو اناء يوضع فيه الكلب. والمراد ان علياً أدى لهم حتى الشيء الصغير من حقوقهم.

أمـا تصـرّفـات خـالـد بـن الـولـيـد غـير المنضبطة، فستتابع بعد هذه الحادثة. وهذا ما سنفصله لاحقاً.

هـ - حصار الطائف:

بـعـد الانتـهاء من قتـال هوازن وهزيمتهـم تفرقوا في جميع الأنحاء، وقصد بنو ثقيف وبعض من هوازن الطائف ودخلوا المدينة وأغلقوا أبوابها وراحوا يتحضّرون للقتال بعد أن جمعوا ما يحتاجون إليه خوفاً من حصار طويل لهم.

أمر النبيّ ﷺ بالمسير إلى الطائف لمعالجة وضع قبيلة ثقيف، وقرّر ان يكون شخصياً قائداً للحملة ورافقته زوجتان من أمهات المؤمنين هما: السيدة أم سلمة وزينب بنت جحش (رضي الله عنهما). وسلكت الحملة من حنين إلى الطائف طريق «نخلة اليمانية» ثمّ «قرن» ثمّ «المُسليح» حتى منطقة «ليّة» حيث تـوقّـفت، وأمـر الـرسـول ﷺ بـبـنـاء مسجد وصلّى فيه، وهدم حصناً في المكان يعود إلى مالك بن عوف النصري.

ولما وصـل المسـلـمـون إلى أمام الـطائف بدأت ثقيف بإرسال السهام فقتل عدد من المسلمين الذين اقتربوا كثيراً من الأسوار.

وكانت الطائف محوطة بأسوار عالية لها أبواب، وهي واقعة على مرتفع مكشوف من كلّ الجهات مما يسهّل على المدافعين عنها رصد قدوم المهاجمين من مسافات بعيدة.

«جرى قتـال شـديـد حـول الأسـوار لمدة نيف وعشرين يوماً، نصب خلالها المسلمون منجنيقاً[١] وراحوا يرمون بواسطته أحجاراً كبيرة إلى داخل الأسوار. كما استعملوا دبابة[٢] ودخل بعضهم تحتها واقتربوا من الأسوار، لكن المحاصرين من ثقيف أرسلوا عليهم قطع الحديد المحماة فخرج المسلمون من تحتها، فرماهم المشركون بالنبال وقتلوا بعضاً منهم.

(١) المنجنيق هو آلة ترمي الحجارة الضخمة على المدينة المحاصرة. وكانت معروفة في هذه المرحلة من قبل العرب. واستعملها فيما بعد الحجاج بن يوسف لضرب الكعبة خلال محاصرته مكّة لإخضاع عبدالله بن الزبير الثائر. عن ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣٧٦.

(٢) دبابة: آلة تستعمل لهدم الحصون.

عندها أمر الرسول ﷺ بقطع أشجار البساتين حول المدينة، فبدأ المسلمون بذلك على مرأى من المحاصرين من ثقيف الذين أرسلوا رسلاً إلى النبيّ ﷺ يقولون له: لا تقطعوها، فإنها إمّا لنا أو لكم!. فأمر عليه الصلاة بوقف قطعها.

وطال الحصار حتى تجاوز العشرين يوماً (وقيل سبعة وعشرين) من دون ان يظهر أي دليل على إمكان فتحها.

وبعد أن طار الحصار حتى الثلاثين يوماً وفقد المسلمون بعضاً من رجالهم، أعطى الرسول ﷺ أمره بفك الحصار والتراجع عن الطائف من دون فتحها بعد أن قال عن ثقيف:

- اللّهم اهدِهم واكفنا مؤونتهم.(١)

بلغ عدد شهداء المسلمين أمام الطائف اثني عشر شهيداً ذكر بعضهم ابن الأثير الذي لخّص الغزوة فكتب:(٢)

«لما قدم المنهزمون من ثقيف ومَنْ انضمّ إليهم من غيرهم إلى الطائف أغلقوا عليهم أبواب مدينتهم واستحصروا وجمعوا ما يحتاجون إليه، فسار إليهم النبيّ ﷺ، فلما كان ببحرة الرُّغا ابتنى بها مسجداً فصلّى فيه قبل وصوله إلى الطائف. وقتل بها رجلاً من بني ليث قصاصا كان قد قتل رجلاً من هذيل فأمر بقتله، وهو أول دم أقيد به في الإسلام. وسار إلى ثقيف فحصرهم بالطائف نيّفاً وعشرين يوماً ونصب عليهم منجنيقاً أشار به سلمان الفارسي وقاتلهم قتالاً شديداً، حتى كان يوم الشدخة عند جدار الطائف دخل نفر من المسلمين تحت دبّابة عملوها ثمّ زحفوا بها إلى جدار الطائف فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد المحماة فخرجوا من تحتها فرماهم من بالطائف بالنبل فقتلوا رجالاً. فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف فقُطعَت. ونزل إلى رسول الله نفرٌ من رقيق أهل الطائف فأعتقهم منهم أبو بكرة نفيع بن الحارث بن كلَدة، وإنما قيل له: أبو بكرة ببكرة نزل فيها وغيره. فلمّا أسلم أهل الطائف تكلّمت سادات أولئك العبيد في أن يردُّهم رسول الله ﷺ إلى الرقّ فقال: لا أفعل، أولئك عتقاء الله.

---

(١) ابن كثير، المرجع نفسه، ص ٣٧٨.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٤٠ - ١٤١.

ثمّ إنّ خويلة بنت حكيم السلمية – وهي امرأة عثمان بن مظعون – قالت: يا رسول الله أعطني إنْ فتح الله عليك الطائف حليّ بادية بنت غيلان أو حليّ الفارغة بنت عقيل، وكانتا من أكثر نساء ثقيف حُلياً. فقال لها رسول الله ﷺ: أرأيت إنْ كان لم يؤذن لي في ثقيف يا خويلة؟ فخرجت فذكرت ذلك لعمر بن الخطاب فدخل عليه عمر وقال: يا رسول الله ما حديث حدثتنيه خويلة أنك قد قلته؟ قال: قد قلته. قال: أفلا أؤذن بالرحيل يا رسول الله؟ قال: بلى فأذن بالرحيل، فأذن عمر فيهم بالرحيل. وقيل: إن رسول الله ﷺ استشار نوفل بن معاوية الديلي في المقام عليهم فقال: يا رسول الله ثعلبٌ في جُحْر إن أقمت عليه أخذته وإنْ تركته لم يضرك فأذن بالرحيل. فلما رجع الناس قال رجلٌ: يا رسول الله ادعُ على ثقيف. قال: اللّهم اهدِ ثقيفاً وأتِ بهم. فلما رأت ثقيف الناس قد رحلوا عنهم نادى سعيد بن عبيد الثقفي ألا إن الحيّ مقيم. فقال عيينة بن حصن: أجل والله مجدة كراماً، فقال رجل من المسلمين: قاتلك الله يا عيينة أتمدحهم بالامتناع عن رسول الله ﷺ؟ قال: إني والله ما جئت لأقاتل معكم ثقيفاً ولكني أردتُ أن يفتح محمد الطائف فأصيب من ثقيف جارية أتبطنها لعلها تلد لي رجلاً فإنّ ثقيفاً قوم مناكير.

استشهد بالطائف اثنا عشر رجلاً، منهم عبدالله بن أبي أمية المخزومي، وأمه عاتكة بنت عبد المطلب، وعبدالله بن أبي بكر الصديق رُمِي بسهم فمات منه بالمدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ، والسائب بن الحارث بن عديّ وغيرهم».

أما الطبري فقد كتب عن غزوة الطائف:[1]

«نزل النبيّ ﷺ الطائف، فأقام نصف شهر يقاتلهم رسول الله ﷺ وأصحابه، وقاتلهم ثقيف من وراء الحصن، ولم يخرج إليه في ذلك أحد منهم، وأسلم من حولهم من الناس كلّهم، وجاءت رسول الله ﷺ وفودهم. ثمّ رجع رسول الله ﷺ ولم يحاصرهم إلاّ نصف شهر حتى نزل

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٧١.

الجعرانة، وبها السبي الذي سبى رسول الله ﷺ من حُنين من نسائهم وأبنائهم. ويزعمون ان ذلك السبي الذي أصاب يومئذٍ من هوازن كانت عدتة ستة آلاف من نسائهم وأبنائهم».

فوفق الطبري ان الناس حول الطائف أسلموا.

ويؤكّد ابن كثير ان بعضاً من ثقيف أسلم خلال الحصار، إذ كتب:[1]

«وبعث النبيّ ﷺ منادياً ينادي من خرج إلينا فهو حرّ، فاقتحم إليه نفر منهم فيهم أبو بكرة بن مسروح[2]، أخو زياد بن أبي سفيان لامه، فأعتقهم ودفع كلّ رجل منهم إلى رجل من المسلمين يعوله ويحمله».

البلاذري أيضاً كتب عن غزوة الطائف رواية مماثلة هي التالية:[3]

«قال: لمّا هُزمت هَوازن يوم حُنين، وقُتل دُرَيد بن الصَمّة أتى فلُّهم[4] أوطاس فبعث إليهم رسول الله ﷺ أبا عامر الأشعري فقُتل، فقام بأمر للناس أبو موسى عبدالله بن قيس الأشعري. وأقبل المسلمون إلى أَوطاس فلما رأى ذلك مالك بن عوف بن سعد أحد بني دُهْمان بن نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن، وكان رئيس هوازن يومئذ، هرب إلى الطائف فوجد أهلها مستعدّين للحصار قد رمُّوا حصنهم وجمعوا فيه الميرة. فأقام بها وسار رسول الله ﷺ بالمسلمين حتّى نزل الطائف فرمتهم ثَقيف بالحجارة والنبل. ونصب رسول الله ﷺ منجنيقاً على حصنهم، وكانت مع المسلمين دبّابة من جلود البقر فألقت عليها ثقيف سكك الحديد المحماة فأحرقتها فأُصيب مَن تحتها من المسلمين. وكان حصار رسول الله ﷺ الطائف خمس عشرة ليلة وكان غزوه إيّاها في شوّال سنة ٨. قالوا: ونزل إلى رسول الله ﷺ رقيق من رقيق أهل الطائف منهم أبو بكر بن مسروح مولى رسول الله ﷺ واسمه نُفَيع، ومنهم الأزرق الّذي نُسِبَت الأزارقة

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣٧٥.

(٢) هؤلاء كانوا عبيداً، لذلك كتب ابن كثير أنه أعتقهم.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، مؤسّسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧، ص ٧٤ - ٧٥.

(٤) فلّ: جمعها فلول أي المنهزمين.

إليه، كان عبداً رومياً حدّاداً وهو أبو نافع بن الأزرق الخارجي، فاعتقوا بنزولهم».

جرجي زيدان، من جهته، أثار قضية مؤالفة قلوب أشراف مكّة الذين أسلموا بعد فتحها، وعدّد غنائم حنين وكيفية توزيعها من قبل النبيّ ﷺ فكتب:[1]

١ - «المؤلفة قلوبهم وغزو الطائف:

وسمّى النبيّ أشراف مكّة الذين أسلموا بعد الفتح «المؤلفة» أو «المؤلفة قلوبهم»، إشارة إلى تأليف قلوبهم لتتألّف بهم قلوب أقوامهم تعزيزاً للإسلام. وفي السيرة الحلبية أنّ من المؤلفة قلوبهم من تألفهم النبيّ ليسلموا مثل صفوان بن أميّة، ومن تألّفهم لدفع شرّهم. وكان يتألّفهم جميعاً بالعطاء فيميّزهم به عن سائر الصحابة كما سترى. وفي ذلك من حسن السياسة والحلم وسعة الصدر ما فيه.

وبعد فتح مكّة بعث النبيّ سراياه إلى ما حولها يدعو الناس إلى الإسلام، ثمّ غزا حنين والطائف. وشتّان بين مجيئه إلى الطائف الآن ومجيئه في أوّل دعوته، لقد جاءهم يومئذ مستنصراً وجاءهم الآن فاتحاً، فغلبهم وغنم غنائم بلغ مقدارها ٢٤،٠٠٠ من الإبل، ٤٠،٠٠٠ من الغنم و٤٠٠٠ أوقية من الفضة. فلما عمد إلى تفريقها في أصحابه بدأ بالمؤلفة قلوبهم فأعطى أبا سفيان مائة بعير وأعطى إبنه معاوية مائة بعير وإبنه يزيد مائة بعير وأعطاهم الفضة، فكان جملة ما أخذه أبو سفيان وأولاده ثلاثمائة بعير ومائة وعشرين أوقية من الفضة، فقال أبو سفيان: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله لأنت كريم في الحرب وفي السلم».

٢ - عتب المهاجرين والأنصار:

وفعل النبيّ نحو ذلك في سائر الأشراف مثل الحارث بن هشام أخي أبي جهل المشهور وصفوان بن أميّة وغيرهما. فشق ذلك على المهاجرين والأنصار وهم دعامة الإسلام وأهل السابقة، فكيف يتركون وتفرّق الغنائم في من لم يسلموا إلاّ مكرهين

---

(١) جرجي زيدان، المؤلّفات الكاملة، جزء ٣١ - تاريخ التمدّن الإسلامي، دار نوبليس للنشر، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٦٠ - ٦١.

بعد أن غلبوا على مدينتهم؟ فتشاكى الصحابة في ما بينهم وقالوا: «كيف يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا لا تزال تقطر من دمائهم؟» فبلغ ذلك النبيّ فجمعهم وسألهم فاعترَفوا له بما قالوا فصوّب قولهم ولكنه قال لهم: «إني لأعطي رجالاً حديثي عهد الكفر أتألفهم لحسن إسلامهم ويسلم غيرهم تبعاً لهم. وأما أنتم فوكّلتكم إلى إسلامكم الثابت الذي لا يتزلزل. ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم؟...» وقال مثل ذلك للمهاجرين فارتضوا».

٣ - الدروس المستقاة:

- بسبب مناعة أسوارها وارتفاعها على تلٍّ مكشوف على الجهات الأربع، كان فتح الطائف صعباً جداً، لذلك سجّل أول حصار لمدينة من قبل المسلمين لمدّة طويلة.

- سجل في القتال حول الطائف أول استعمال لمعدات الحصار الضخمة وأهمها المنجنيق والدبابة.[١] فعرب الجاهلية لم يكونوا يعرفون معدات الحصار هذه كون قتالهم كان يتميّز بالعمليات السريعة كالكرّ والفرّ. وباستثناء حصار مكّة في عام الفيل من قبل أبرهة، فإنه لم تسجل أي أعمال حصار تذكر في الجاهلية.

- مارس النبيّ ﷺ ضغطاً اقتصادياً على سكان الطائف إذ أعطى أمراً بقطع الأشجار المثمرة التي تحيط بالمدينة. لكنه عاد عن قراره بعد مناشدة المحاصَرين له بعدم قطعها.

- لما طال حصار الطائف رغم استعمال المنجنيقات والدبابات، ثبت للنبي ﷺ صعوبة فتحها، فأعطى أوامره بالتراجع عنها مطبقاً بذلك مبدأ الحرب الأول أي «نسبية الأهداف للوسائل». لقد كان بإمكانه ﷺ الإصرار على متابعة الحصار، الأمر الذي كان سيكبّد المسلمين خسائر أخرى، لكنه آثر الواقعية في التعامل مع المبادئ الاستراتيجية.

- أعطت حملة الطائف نتيجة إيجابية بالنسبة للمسلمين رغم عدم تمكّنهم من فتح المدينة، إذ انها ساهمت في اعتناق الإسلام

---

(١) انظر صور معدات الحصار المرفقة.

من قبل الناس حول الطائف، وفق ما كتب الطبري.

علاوة على ذلك، وافت النبي ﷺ وفود من هوازن أثناء عودته إلى مكّة فأسلم أفرادها. كما نقل ابن الأثير ان مالك بن عوف أسلم أيضاً وحسن اسلامه. وهكذا جاءت نتيجة غزوة الطائف إيجابية.

أما جرجي زيدان فذكر ان غنائم المسلمين في الطائف بلغت ٢٤٠٠٠ من الإبل و٤٠٠٠٠ من الغنم و٤٠٠٠ اوقية من الفضة.

و. - العودة إلى المدينة:

سار النبيّ ﷺ وصحبه من الطائف حتى نزل الجعرانة[1] حيث وافته وفود هوازن من الذين أسلموا وطلبوا منه إعادة الغنائم التي غنمها منهم، فخيّرهم الرسول ﷺ بين أبنائهم ونسائهم وبين أموالهم، فاختاروا أبناءهم ونساءهم.

نقل ابن الأثير رواية إعادة هؤلاء لبني هوازن فكتب:[2]

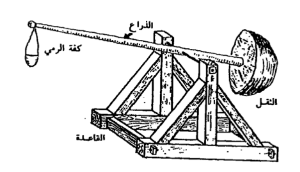
«فخيّرهم رسول الله ﷺ بين أبنائهم ونسائهم وبين أموالهم، فاختاروا أبناءهم ونساءهم فقال: أمّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، فإذا أنا صلّيتُ بالناس فقولوا: إنّا نستشفع برسول الله في أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم وأسأل فيكم. فلما صلّى الظهر فعلوا ما أمرهم به، فقال رسول الله ﷺ: ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم. وقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله. وقال الأقرع بن حابس: ما كان لي ولبني تميم فلا. وقال عيينة بن حصن: ما كان لي ولفزارة فلا. وقال عباس بن مِرْداس: ما كان لي ولسليم فلا. فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله. فقال: وهّنتُمُوني. فقال رسول الله ﷺ: من تمسّك بحقه من السبي فله بكلّ إنسان ست فرائض من أول شيء نصيبه، فردوا على الناس أبناءهم ونساءهم. وسأل رسول الله ﷺ عن مالك ابن عوف فقيل: إنه بالطائف، فقال: أخبروه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة بعير. فأخبر مالك بذلك فخرج

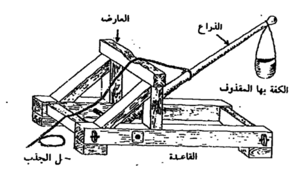
---

(١) الجعرانة مكان بين الطائف ومكّة، وهي أقرب إلى مكّة.

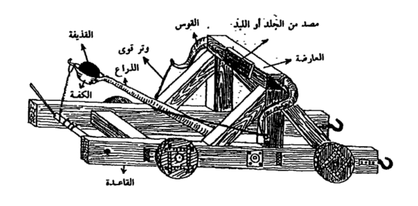
(٢) ابن الأثير، مرجع، جزء ٢، ص ١٤٢.

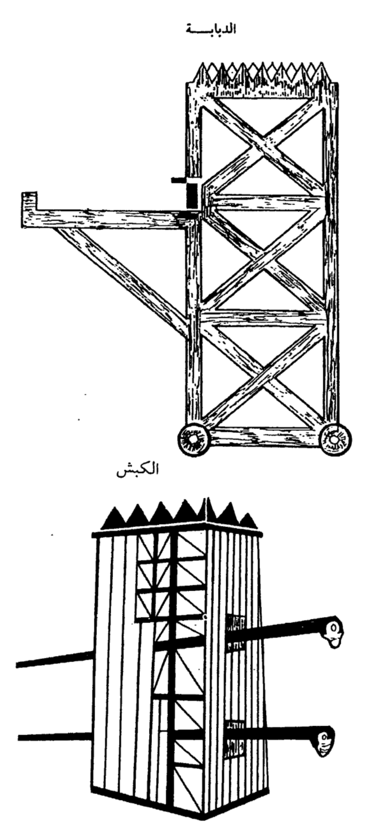
المنجنيق



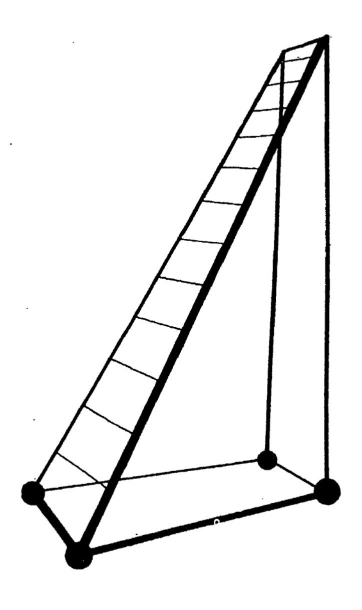


العرّادة




الدبابـــة
الكبش

سلّم الحصار



من الطائف سِرّاً ولحق برسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه، واستعمله رسول الله ﷺ على قومه وعلى من أسلم من تلك القبائل التي حول الطائف، فأعطاه أهله وماله ومائة بعير. وكان يقاتل بمن أسلم معه من ثمالة؛ وفهم، وسلمة ثقيفاً، لا يخرج لهم سرح إلاّ أغار عليه حتى ضيّق عليهم».

وفيما كان النبيّ ﷺ في الجعرانة خافت ثقيف أن يعود إليهم، فأرسلوا إليه وفداً فصالحهم على أن يُسلموا ويقرهم على ما في أيديهم وأموالهم واشترط عليهم، وفق البلاذري، الشروط التالية:[١]

«ان لا يربوا[٢]، ولا يشربوا الخمر».

وبعد ان انتهى الرسول ﷺ من توزيع الفيء، ذهب إلى مكّة المكرّمة وقضى مناسك العمرة. ثمّ استخلف عليها عُتاب ابن أسيد وترك معه معاذ بن جبل يفقّه الناس في الدين ويعلمهم القرآن الكريم. وحجّ عتاب بالناس وحج الناس تلك السنة على ما كانت العرب تحج.[٣]

وعاد رسول الله ﷺ في ذي العقدة أو ذي الحجة إلى المدينة.[٤]

---

(١) البلاذري، موجع سابق، ص ٧٥.

(٢) يربوا أي لا يمارسوا الربى.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٤٤.

(٤) المرجع نفسه.

الفصل الثاني
غزوات السنة التاسعة للهجرة

لم تَحُلْ الأحداث الداخلية دون تفكير النبيّ ﷺ في نشر الدين الإسلامي خارج شبه الجزيرة العربية، إلاّ ان مقاومة بعض القبائل العربية أخّرت الفتوحات الكبرى، التي ستشهدها ساحة الشرق الأدنى، إلى عهدي أبي بكر وعمر ابن الخطاب.

لكن النبيّ ﷺ كان قد حضّر الآلة العسكرية التي سينفذ قادتها وأفرادها هذه الفتوحات، وتدرّب أمراؤها على يده، وأرسل الحملات نحو الشمال رغم قصر المدّة التي بقي فيها بين أنصاره بعد فتح مكّة والتي لا تبلغ السنين الثلاث.

ففي السنة التاسعة للهجرة قدمت الوفود العربية على النبيّ ﷺ من أسد وبلّي ولخم وثقيف من الطائف الذين أتوا في شهر رمضان، بعد أن رأت ثقيف ان لا طاقة لها على حرب من حول الرسول ﷺ من العرب، فأسلمت وبايعت.[١]

نقل الطبري رواية وصول وفد ثقيف إلى المدينة لإعلان إسلام قبيلتهم فكتب:[٢]

أ - إعلان إسلام ثقيف وهدم اللات:

«فلمّا دنّوا من المدينة، ونزلوا قناة لقَوا بها المغيرة بن شعبة يرعى في نوبته ركاب أصحاب رسول الله، وكانت رِعْيتُها نُوباً على أصحابه. فلما رآهم المغيرة ترك الركاب وضَبر يشتدُّ

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٧٩.

(٢) الطبري، المرجع نفسه، ص ١٨٠ - ١٨١.

ليُبشّر رسول الله ﷺ بقدومهم عليه. فلقيَه أبو بكر الصّديق رضي الله عنه قبل أن يدخل على رسول الله، فأخبره عن ركْب ثقيف أنّهم قدموا يريدون البيعة والإسلام، بأن يشرط لهم شروطاً، ويكتتبوا من رسول الله كتاباً في قومهم وبلادهم وأموالهم. فقال أبو بكر للمغيرة: أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله ﷺ حتى أكون أنا الذي أحدّثه! ففعل المغيرة، فدخل أبو بكر على رسول الله، فأخبره عن ركب ثقيف بقدومهم. ثمّ خرج المغيرة إلى أصحابه فروَّح الظَّهر معهم، وعلّمهم كيف يُحيُّون رسول الله ﷺ، فلم يفعلوا إلاّ بتحية الجاهلية.

ولما أن قدموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قبّة في ناحية مسجده - كما يزعمون - وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ؛ حتى اكتتبوا كتابهم؛ وكان خالد هو الذي كتب كتابهم بيده. وكانوا يطعَمون طعاماً يأتيهم من عند رسول الله حتى يأكل منه خالد؛ حتى أسلموا وبايعوا وفرغوا من كتابهم. وقد كان فيما سألوا رسول الله ﷺ أن يدَع الطاغية؛ وهي اللات، لا يهدمها ثلاث سنين؛ فأبى رسول الله ذلك عليهم. فما برحوا يسألونه سنة سنة، فأبى عليهم حتى سألوه شهراً واحداً بعد مقدمهم؛ فأبى أن يدعها شيئاً يسمّى. وإنما يريدون بذلك فيما يُظْهِرون أن يسلَموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم، ويكرهون أن يروّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلَهم الإسلام. فأبى رسول الله ﷺ ذلك إلاّ أن يبعث أبا سفيان ابن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها؛ وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يُعفيَهم من الصّلاة، وأن يكسروا أوثانهم بأيديهم؛ فقال رسول الله: أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنُعْفيكم منه؛ وأما الصّلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه؛ فقالوا: يا محمّد، أما هذه فسنؤتيكها وإن كانت دناءة.

فلمّا أسلموا وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابهم؛ أمّرَ عليهم عثمان بن أبي العاص - وكان من أحدثهم سنًّا - وذلك أنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلّم القرآن. فقال أبو بكر لرسول الله ﷺ: يا رسول الله؛ إني قد رأيت هذا الغلام فيهم من أحرصهم على التفقّه في الإسلام وتعلّم القرآن.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن يعقوب بن عُتْبة، قال: فلمّا خرجوا من عند رسول الله ﷺ وتوجّهوا إلى بلادهم راجعين، بعث رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة في هدْم الطاغية، فخرجا مع القوم؛ حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة أن يقدّم أبا سفيان، فأبى ذلك أبو سفيان عليه، وقال: ادخل أنت على قومك. وأقام أبو سفيان بماله بذي الهرْم، فلمّا دخل المغيرة بن شعبة علاها يضربها بالمعْوَل، وقام قومه دونه - بنو مُعتّب - خَشْيةَ أن يُرمَى أو يُصاب كما أُصيب عُروة، وخرج نساءُ ثقيف حُسَّراً يبكين عليها.

قال: ويقول أبو سفيان والمغيرة يضربها بالفأس: واهاً لك! واهاً لك! فلما هدمها المغيرة أخذ مالها وحُليَّها وأرسل إلى أبي سفيان وحليُّها مجموع، ومالُها من الذهب والجَزْع، وكان رسول الله ﷺ أمر أبا سفيان أن يقضي من مال اللات ديْن عروة والأسود ابنيْ مسعود، فقضى منه ديْنهما».

ب - غزوة تبوك:

بعد ان وافت النبيّ ﷺ القبائل العربية معلنة إسلامها ودانت له الأقسام الرئيسية من بلاد الحجاز، راح يفكّر في توسيع دائرة الفتح. وكانت ذكرى وقعة مؤتة[(١)] ما تزال في الأذهان، لذلك قرّر النبيّ ﷺ تحضير هذه الغزوة في شكل كامل كي تأتي نتائجها إيجابية.

وهكذا أمر النبيّ ﷺ بالتجهّز لغزو بلاد الروم لأنه بلغه ان إمبراطورهم هرقل ومن يتبعه من العرب النصارى يحضّرون لغزو المسلمين في الحجاز. ونظراً إلى بعد المسافة وشدّة الحر وقوّة العدو، أعلم النبيّ ﷺ الناس مقصده كي يتجهّزوا جيداً قبل المسير.

عن التحضير للغزوة كتب الطبري:[(٢)]

«ثمّ أمر النّاس بالتهيُّؤ لغزو الروم؛ فحدّثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلَمة، عن محمّد بن إسحاق، عن الزّهريّ ويزيد بن رومان وعبدالله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم؛ كلٌّ قد حدّث في غزوة تبوك

---

(١) للتفاصيل عن وقعة مؤتة، أنظر الجزء الثاني من هذه الموسوعة.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٨١.

ما بلغه عنها، وبعض القوم يحدّث ما لم يحدّث بعض. وكلٌ قد اجتمع حديثه في هذا الحديث. إنّ رسول الله ﷺ أمر أصحابه بالتهيُّؤ لغزو الرُّوم؛ وذلك في زمن عُسْرة من الناس، وشدّة من الحرّ، وجَدْب من البلاد؛ وحين طابت الثمار وأحِبّت الظلال؛ فالناس يحبُّون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص عنها على الحال من الزمان الذي هم عليه. وكان رسول الله قلّما يخرج في غزوة إلاّ كنى عنها، وأخبر أنه يريد غير الذي يصمد له؛ إلاّ ما كان من غزوة تبوك، فإنه بيّنها للناس لبُعْد الشُّقّة وشدّة الزمان وكثرة العدوّ الذي يصمد له، ليتأهّب الناس لذلك أُهبته، وأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم.

فتجهّز الناس على ما في أنفسهم من الكُرْه لذلك الوجه لما فيه؛ مع ما عظّموا من ذكر الرّوم وغزوهم».

ونقل جرجي زيدان ان عدد أفراد الحملة بلغ ثلاثين ألفاً فيهم عشرة آلاف فارس، وان هذه كانت أكبر حملة استطاع المسلمون تجنيدها حتى ذلك الحين، بعد ان بذلوا ما في وسعهم من المال والرجال.(١)

وعن التجهّز للحملة نقل ابن الأثير أيضاً:(٢)

«ثمّ إن النبيّ ﷺ تجهز وأمر بالنفقة في سبيل الله وأنفق أهل الغنى وأنفق أبو بكر جميع ما بقي عنده من ماله، وأنفق عثمان نفقة عظيمة لم ينفق أحدٌ أعظم منها، قيل: كانت ثلاثمائة بعير وألف دينار. ثمّ إنّ رجالاً من المسلمين أتوا النبيّ ﷺ وهم البكاؤون وكانوا سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، وكانوا أهل حاجة فاستحملوه فقال: لا أجدُ ما أحملكم عليه. فتولوا يبكون، فلقيهم يامين ابن عمير بن كعب النضري فسألهم عما يبكيهم فأعلموه فأعطى أبا ليلى عبد الرحمن بن كعب وعبدالله بن مغفل المزني بعيراً فكانا يعتقبانه مع رسول الله ﷺ. وجاء المعذّرون من الأعراب فاعتذروا إلى رسول الله ﷺ فلم يعذرهم الله. وكان عدة من

(١) زيدان، مرجع سابق، جزء ٣١، ص ٦٢.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٤٩ - ١٥٠.

المسلمين تخلّفوا من غير شك، منهم كعب ابن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وأبو خيثمة، وكانوا نفر صدق لا يتهمون في إسلامهم.

فلمّا سار رسول الله ﷺ تخلّف عنه عبد الله بن أُبيّ المنافق فيمن تبعه من أهل النفاق. واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة سِباع بن عُرفطة، وعلى أهله عليّ بن أبي طالب فأرجف به المنافقون وقالوا: ما خَلّفه إلاّ استثقالاً له. فلمّا سمع عليّ ذلك أخذ سلاحه ولحق برسول الله ﷺ فأخبره ما قال المنافقون، فقال: كذبوا وإنما خلّفتُك لما ورائي فارجع فاخلُفني في أهلي وأهلك، أما ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلاّ أنه لا نبي بعدي. فرجع علي إلى المدينة.

فسار رسول الله ﷺ. ثمّ إن أبا خيثمة أقام أياماً فجاء يوماً إلى أهله، وكانت له امرأتان وقد رشت كلّ امرأة منهما عريشها وبرّدت له ماء وصنعت طعاماً، فلما رآه قال: يكون رسول الله ﷺ في الحر والريح وأبو خيثمة في الظل البارد والماء البارد والطعام المهيأ والمرأة الحسناء في ماله مقيم! ما هذا بالنصف. والله ما أحل عريشاً منهما حتى ألحق برسول الله ﷺ. فهيأ زاده وخرج إلى ناضحه فركبه وطلب رسول الله ﷺ فأدركه بتبوك. فقال الناس: يا رسول الله هذا راكب مقبل، فقال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة، فقالوا: هو والله أبو خيثمة. وأتى رسول الله ﷺ فأخبره بخبره فدعا له».

١ - سير الحملة:

خرجت الحملة يوم الخميس ونزلت بعسكرها على ثنية الوداع[1]، ثمّ تابعت مسيرتها لمدّة أيام في حرّ شديد وصفه ابن كثير فكتب:[2]

«خرجوا في غزوة تبوك، الرجلان والثلاثة على بعير واحد، وخرجوا في حرّ شديد، فأصابهم عطش حتى جعلوا ينحرون إبلهم لينفضوا أكراشها ويشربوا ماءها، فكان ذلك

(١) ثنية الوداع: إسم مكان بين مكة وتبوك.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ١٠.

عسرة في الماء وعسرة في النفقة وعسرة في الظهر».

كلّ ذلك دفع النبيّ ﷺ إلى الطلب إلى السماء بأن تمطر كما نقل عبدالله بن عباس انه قيل لعمر بن الخطاب: حدثنا عن شأن ساعة العُسْرة. فقال عمر: «خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً وأصابنا فيه عطش حتى ظنّنا أن رقابنا ستنقطع، حتى أن كان أحدنا ليذهب فيلتمس الرجل فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع. حتى أن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه، ثمّ يجعل ما بقي على كبده. فقال أبو بكر الصدّيق: يا رسول الله إن الله قد عوّدك في الدعاء خيراً فادع الله لنا، فقال: «أوتحبُّ ذلك؟» قال: نعم! قال: فرفع يديه نحو السماء فلم يرجعهما حتى قالت[1] السماء فاطلّت، ثمّ سَكَبت، فملؤوا ما معهم، ثمّ ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر».[2]

الطبري، من جهته، ذكر رواية الاستقساء من قبل الرسول ﷺ فكتب:[3]

«فلمّا أصبح الناس، ولا ماء معهم، شكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فدعا الله، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء».

وفيما كانت الحملة سائرة، جعل البعض يتخلفون عنها فيقول السائرون للنبي ﷺ: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: «دعوه، فإن يكُ فيه خير فسيلحقه الله بكم، وان يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه».

٢ - إنجازات الحملة في تبوك:

أخيراً، وصلت الحملة إلى تبوك التي أقام النبي ﷺ فيها بضع عشرة ليلة ولم يتجاوزها حيث نزل في تبوك الحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود. لكن الرسول ﷺ نهاهم عن أن يدخلوا على الناس الذين عذبوا قائلاً:[4]

---

(١) قالت أي تهيأت واستعدت.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ١٠.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٨٣.

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ١٢.

«اني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم»، ففعل الناس ما أمرهم به الرسول ﷺ.

٢١ - رسول قيصر إلى النبيّ ﷺ:

وفي تبوك قدم رسول من قبل الامبراطور البيزنطي هرقل لمقابلة النبيّ ﷺ واسمه التنوخي.

نقل ابن كثير رواية التنوخي عن رسالة قيصر الروم هرقل إلى النبيّ ﷺ كما يلي:[(١)]

«قال الإمام أحمد: حدّثنا إسحاق بن عيسى، حدّثنا يَحيَى بن سليم عن عبدالله ابن عثمان بن خيثم عن سعيد بن أبي راشد قال: لقيت التنوخي رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ بحمص وكان جاراً لي شيخاً كبيراً قد بلغ العقد أو قرب، فقلت: ألا تخبرني عن رسالة هرقل إلى رسول الله ﷺ ورسالة رسول الله ﷺ إلى هرقل؟ قال: بلى! قدم رسول الله تبوك فبعث دِحية الكلبي إلى هرقل. فلمّا أن جاءه كتاب رسول الله ﷺ دعا قسيسي الروم وبطارقتها، ثمّ أغلق عليه وعليهم الدار فقال: قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم؟ وقد أرسل إليّ يدعوني إلى ثلاث خصال: يدعوني أن أتبعه على دينه، أو على أن نعطيه مالنا على أرضنا والأرض أرضنا، أو نلقي إليه الحرب. والله لقد عرفتم فيما تقرؤون من الكتب لتؤخذن؛ فهلمّ فلنتّبعه على دينه، أو نعطيه مالنا على أرضنا. فنخروا نخرة رجل واحد حتى خرجوا من برانسهم، وقالوا: تدعونا إلى أن نذر النصرانية ونكون عبيداً لأعرابي جاء من الحجاز. فلما ظن أنهم إن خرجوا من عنده أفسدوا عليه الروم رقأهم[(٢)] ولم يكد، وقال: إنما قلت ذلك لأعلم صلابتكم على أمركم. ثمّ دعا رجلاً من عرب تجيب كان على نصارى العرب قال: ادع لي رجلاً حافظاً للحديث، عربي اللسانا أبعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه، فجاء بي فدفع إليّ هرقل كتاباً فقال: اذهب بكتابي إلى هذا

(١) ابن كثير، المرجع نفسه، ص ١٦ - ١٧.

(٢) رقأ الدمع: سكن - ورفأ: التأم وقرب.

الرجل، فما سمعتَ من حديثه فاحفظ لي منه ثلاث خصال: انظر هل يذكر صحيفته إليّ التي كتب بشيء، وانظر إذا قرأ كتابي فهل يذكر الليل، وانظر في ظهره هل به شيء يريبك. قال: فانطلقت بكتابه حتى جئت تبوكاً، فإذا هذا جالس بين ظهراني أصحابه محتبياً على الماء، فقلت: أين صاحبكم؟ قيل: ها هو ذا. فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه، فناولته كتابي فوضعه في حجره ثمّ قال: «مِمَّنْ أنتَ» فقلت: أنا أخو تنوخ. قال: «هل لك إلى الإسلام الحنيفية ملّة أبيكم إبراهيم؟». قلت: إني رسول قوم، وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم. فضحك وقال: «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين. يا أخا تنوخ إني كتبت بكتاب إلى كسرى والله ممزقه وممزّق ملكه، وكتبت إلى النجاشي بصحيفة فخرّقها والله مُخرِّقه ومخرِّق[1] ملكه، وكتبت إلى صاحبك بصحيفة فأمسكها، فلن يزال الناس يجدون منه بأساً ما دام في العيش خير». قلت: هذه إحدى الثلاث التي أوصاني بها صاحبي. فأخذت سهماً من جعبتي فكتبته في جنب سيفي. ثمّ إنه ناول الصحيفة رجلاً عن يساره قلت: من صاحب كتابكم الذي يقرأ لكم؟ قالوا: معاوية فإذا في كتاب صاحبي تدعوني إلى جنّة عرضها السموات والأرض أُعدّت للمتقين، فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله أين الليل إذا جاء النهار». قال: فأخذت سهماً من جعبتي فكتبته في جلد سيفي. فلما أن فرغ من قراءة كتابي قال: «إن لك حقاً وإنك لرسول، فلو وُجدت عندنا جائزة جوّزناك بها، إنا سفر مُرْمِلون». قال: فناداه رجل من طائفة الناس قال أنا أجوّزه، ففتح رحله فإذا هو يأتي بحلّة صفورية فوضعها في حجري. قلت: من صاحب الجائزة؟ قيل لي: عثمان، ثمّ قال رسول الله ﷺ: «أيكم يُنزلُ هذا الرجل؟» فقال فتى من الأنصار: أنا، فقام الأنصاري وقمت معه حتى إذا خرجت من طائفة المجلس، ناداني رسول الله فقال: «تعالَ يا أخا تَنوخ»، فأقبلت

---

(١) في نسخة التيمورية: فحرقها تحرق ملكه.

أهوي حتى كنت قائماً في مجلسي الذي كنت بين يديه، فحلّ حبوته عن ظهره وقال: «ها هنا امْض لما أمِرْتَ به». فجلت في ظهره فإذا أنا بخاتم في موضع غضروف الكتف مثل الحمحمة الضخمة. هذا حديث غريب، وإسناده لا بأس به تفرّد به الإمام أحمد».

٢٢ - مصالحة ملك أيلة وأهل جرباء وأذرح:

قدم إلى مخيم المسلمين في تبوك صاحب أيلة يوحنا بن رؤبة فصالحه النبيّ ﷺ على الجزية وكتب له كتاباً، فبلغت جزيته ثلاثمائة دينار.[١] وكتب النبيّ ﷺ ليوحنا وأهل أيلة كتاباً اعتبر عهد أمان أصبح فيما بعد سابقة في الكتب التي تعطى للمناطق المفتتحة صلحاً. وجاء في الكتاب:[٢]

«**بسم الله الرحمن الرحيم**، هذه أَمَنَة من الله ومحمّد النبيّ رسول الله ليُحَنّة بن رؤبة وأهل أيلة، سفنهم وسيارتهم في البرّ والبحر، لهم ذمّة الله ومحمّد النبيّ ومن كان معهم من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر، فمن أحدث منهم حَدَثاً، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وأنه طيّب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحلّ أن يمنعوا ماء يَردونه، ولا طريقاً يردونه من بر أو بحر».

وصالح الرسول ﷺ أيضاً أهل أَذرُح على مائه دينار في كلّ رجب، وأهل الجرباء على الجزية وكتب لهم كتاباً جاء فيه:

«**بسم الله الرحمن الرحيم**، هذا كتاب من محمّد النبيّ رسول الله لأهل جرباء وأذرح، أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمّد، وأن عليهم مائة دينار في كلّ رجب، ومائة أوقية طيبة، وأن الله عليهم كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين، ومن لجأ إليهم من المسلمين».

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٥٢.

زاد في الجزية هذه الخلفاء الأمويون، لكن عمر بن عبد العزيز أعادها إلى ثلاثمائة.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ١٨.

ونقل البلاذري انه صالح أيضاً مقنا وكانوا يهوداً. وكتب البلاذري عن غزوة تبوك ما يلي:[(١)]

«قالوا: لمّا توجّه رسول الله ﷺ إلى تَبُوك من أرض الشام لغزو من انتهى إليه أنّه قد تجمّع له، من الروم وعاملة ولخم وجُذام وغيرهم، وذلك في سنة ٩ من الهجرة لم يلق كيداً، فأقام بتَبُوك أيّاماً فصالحه أهلها على الجزية. وأتاه وهو بها يُحَنَّة بن رؤبَة صاحب أيْلة فصالحه على ان جعل له على كلّ حالم بأرضه في السنة ديناراً فبلغ ذلك ثلثمائة دينار. واشترط عليهم قِرَى من مرَّ بهم من المسلمين، وكتب لهم كتاباً بأن يُحفَظوا ويُمْنَعوا. فحدَّثني محمَّد بن سعد قال حدَّثنا الواقدي عن خالد بن ربيعة عن طلحة الأَيلي انَّ عمر بن عبد العزيز كان لا يزداد من هل أَيْلَة على ثلاثمائة دينار شيئاً. وصالح رسول الله ﷺ أهل أَذرُح على مائة دينار في كلّ رَجَبٍ، وصالح أهل الجَرْباء على الجزية وكتب لهم كتاباً، وصالح أهل مَقْنا على رُبع عَرُوكهم وغُزولهم (والعروك خشب يُصطادُ عليه) وربع كراعهم وحلقتهم وعلى ربع ثمارهم وكانوا يهود. وأخبرني بعض أهل مصر أنّه رأى كتابهم بعينه في جلد أحمر دارس الخطّ فنسخه واملَّ[(٢)] عليَّ نُسختَه:

بسم الله الرحمن الرحيم من محمّد رسول الله إلى بني حبيبة وأهل مَقْنا سِلْم أنتم فإنَّه أُنزل عليَّ انَّكم راجعون إلى قريتكم. فإذا جاءكم كتابي هذا فإنَّكم آمنون ولكم ذمَّة الله وذمَّة رسوله، وانَّ رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكلّ دم أُتبِعْتُم به لا شريك لكم في قريتكم إلا رسول الله ﷺ أو رسول رسول الله، وانّه لا ظلم عليكم ولا عدوان، وانَّ رسول الله ﷺ يُجيركم ممَّا يُجير منه نفسَه. فإنَّ لرسول الله ﷺ بزَّتكم، ورقيقكم، والكراع؛ والحلقة إلاَّ ما عفا عنه رسول الله أو رسول رسول الله. وانَّ عليكم بعد ذلك رُبع ما أخرجت نخيلكم، وربع ما صادت عُرُككم، وربع ما اغتزلت نساؤكم. وانَّكم قد ثريتم بعد ذلّكم ورفعكم رسول الله ﷺ عن كلّ جزية

(١) البلاذري، مرجع سابق، ص ٧٩ - ٨١.

(٢) أملَّ عليه السفر: أي طال.

وسُخرة. فإن سمعتم وأطعتم فعلى رسول الله ان يكرِّم كريمكم ويعفو عن مُسيئكم. ومن ائتمر في بني حبيبة وأهل مَقْنا من المسلمين خيراً فهو خير له ومن أطلعهم بشَرٍّ فهو شرّ له، وليس عليكم أمير إلاّ من أنفسكم أو من أهل بيت رسول الله ﷺ وكتب عليٌّ بنُ أَبي طالب في سنة ٩».

٢٣ - إرسال خالد إلى دومة الجندل:

وأرسل النبيّ ﷺ من تبوك خالداً بن الوليد في أربعمائة وعشرين فارساً إلى أكيدر ابن عبد الملك صاحب دومة الجندل، فالتقاه خالد ومعه نفر من أهل بيته فطاردهم المسلمون وقتلوا شقيقاً له اسمه حسان وأسروا أكيدر وجاؤوا به إلى رسول الله ﷺ فحقن دمه وصالحه على الجزية وأخلى سبيله فرجع إلى قريته.(١)

نقل ابن كثير ان جزية أكيدر بلغت ثمانمائة من السبي، وألف بعير، وأربعمائة درع وأربعمائة رمح.(٢)

الطبري، من جهته، نقل رواية إرسال خالد، فكتب:(٣)

«ثمّ إنّ رسول الله ﷺ دعا خالد بن الوليد، فبعثه إلى أُكَيْدِر دومة. وهو أكيدر بن عبد الملك، رجل من كِنْدة، كان ملكاً عليها، وكان نصرانياً. فقال رسولُ الله ﷺ لخالد: إنك ستجده يصيد البقر. فخرج خالد بن الوليد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين، وفي ليلة مقمرة صائفة، وهو على سطح له، ومعه امرأته، فباتت البقر تحُكّ بقرونها باب القصر، فقالت امرأته: هل رأيت مثل هذا قطّ! قال: لا والله، قالت: فمن يترك هذا؟ قال لا أحد. فنزل فأمر بفرسه فأُسْرِج له، وركب معه نفر من أهل بيته، فيهم أخٌ له يقال له حسان، فركب، وخرجوا معه بمطاردهم؛ فلمّا خرجوا تلَقّتهم خيلُ رسول الله ﷺ فأخذته، وقتلوا أخاه حسّان، وقد كان عليه قَباء له من ديباج مُخَوّص بالذهب، فاستلبه خالد، فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه عليه.

---

(١) جرجي زيدان، مرجع سابق، جزء ٣١، ص ٦٢.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ١٩.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٨٥.

حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: حدّثني محمّد بن إسحاق، عن عاصم ابن عمر بن قتادة، عن أنس بن مالك؛ قال: رأيتُ قباء أكيدر حين قُدِم به إلى رسول الله ﷺ، فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم، ويتعجّبون منه. فقال رسول الله: أتَعْجَبون مِنْ هذا! فوالذي نفس محمد بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسنُ من هذا!

حدثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، قال: ثمّ إن خالداً قدم بأكيدر على رسول الله ﷺ، فحقن له دمه، وصالحه على الجزية، ثمّ خلى سبيله، فرجع إلى قريته».

وسلّم النبيّ ﷺ كتاباً إلى صاحب دومة الجندل وجاء فيه:[1]

«هذا كتاب من محمّد رسول الله لأُكَيدِر حين أجاب إلى الإسلام، وخلع الأنداد والأصنام ولأهل دَومَة، انّ لنا الضاحِيَة من الضَّحْل والبَوْر والمعَامِيَ وأَغفَال الأرض والحَلقَة والسِلاح والحافر والحصن، ولكم الضَّامِنة من النخل والمَعِين من المعمور، لا تُعْدَلُ سَارِحَتُكُم ولا تُعدُّ فَارِدَتُكم ولا يُحْظَرُ عليكم البتات[2]، تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤتون الزكاة بحقّها. عليكم بذلك عهدُ الله والميثاق، ولكم به الصدق والوفاء شهد الله ومن حضر من المسلمين (الضاحي البارز والضَّحل الماءُ القليل، والبّور الأرض التي لم تستخرج ولم تُعتَمَل، والمَعَامي الأرض المجهولة والأغفال الّتي لا آثار فيها، والحلقة الدروع، والحافر الخيل والبراذين والبغال والحمير، والحصن حصنهم والضامنة النخل الّذي معهم في الحصن، والمَعين الماءُ الظاهر الدائم وقوله: لا تُعْدَل سارحتكم أي لا نُصَدِّقها إلاّ في مراعيها ومواضعها لا نحشرها، وقوله لا تُعَدّ فاردتكم، يقول لا تُضَمّ الفاردة[3] إلى غيرها ثمّ يُصدّق الجميع فيجمع بين متفرّق).

---

(١) البلاذري، مرجع سابق، ص ٨٢ - ٨٣.

(٢) في كتاب حياة محمد ﷺ (رسائل الرسول) ص ١٢ (البتات): أي المتاع (لا تمنعون من الزرع).

(٣) الفاردة: مؤنّث الفارد، وهي التي تفرد عادة عن الغنم في البيت.

٢٤ - الدروس المستقاة:

أ - وحّد النبيّ ﷺ جبهته الداخلية قبل أن ينتقل لغزو الخارج بدءاً بالامبراطورية البيزنطية التي كانت قد انتصرت سابقاً على المسلمين في وقعه مؤتة. ولما كان هرقل يحضّر لغزو المسلمين في الحجاز، شنّ عليه النبيّ ﷺ حرباً استباقية وأمر بتجهّز المسلمين لغزو بلاد الروم، مفضّلاً الهجوم على الدفاع.

ب - أبلغ النبيّ ﷺ المسلمين عن مقصده البعيد كي يتجهّز المقاتلون قبل بدء الحملة بسبب بُعد المسافة وشدّة الحر وقوّة العدو. فالتخطيط للمعركة يفرض دراسة جميع تفاصيلها، لأن إهمال أي منها قد يؤدي إلى خسارة القتال. وكان النبيّ ﷺ قد درج على عدم إخبار المقاتلين عن مقصد الغزوة وذلك حفظاً للسر وتحقيقاً لحرية العمل.

ج - علاوة على ذلك، إختار النبيّ ﷺ زمان جدب الأرض لأن المقاتلين قد لا يرغبون بالسير إلى القتال حين تطيب الثمار وتورف الظلال. وفي هذا التفكير المنطقي الكثير من سيكولوجية القيادة التي يتعلّمها القادة حالياً في المدارس العسكرية. فتحفيز الجند للقتال هو أفضل وسيلة لربح المعركة قبل بدئها.

د - وبالفعل، تمكّن النبيّ من حشد ثلاثين ألف مقاتل فيهم عشرة آلاف فارس. ومن دراستنا لنص ابن الأثير حول تجهّز الحملة يمكننا ملاحظة مدى حماس المسلمين ورغبتهم في المشاركة فيها. حتى أن أبا خيثمة لم يطب له الطعام والشراب فيما الرسول ﷺ مقيم في البرية والحرّ.

إن في هذا الحماس وهذه الحوافز تفسيراً منطقياً للانتصارات الإسلامية بقيادة النبيّ ﷺ ضد أعداء الإسلام.

هـ - كانت اللوجستية مقتصرة خلال حملات بداية الإسلام على تأمين الماء والطعام. وتظهر أهمية اللوجستية في القتال من خلال نص ابن كثير حول سير الحملة حيث تعرّض المسلمون لعطش شديد كاد أن يُفشِل الحملة لولا دعاء الرسول ﷺ وإمطار السماء.

و - عندما بدأ البعض يتخلّفون عن الحملة وأعلم الرسول ﷺ بذلك، تركهم لأن المقاتل الذي يسير إلى القتال مرغماً قد يكون ضرره على الأصدقاء أشدّ وأمضى

من ضرره على الأعداء. لذلك آثر النبي ﷺ عدم إلزام أحد من المقاتلين على متابعة مجرى الحملة.

ز - أعطت غزوة تبوك أولى نتائجها عندما قَبِل صاحب آيلة النصراني بدفع الجزية، وكتب له النبي ﷺ كتاب أمان أصبح مثالاً لجميع كتب الأمان في الإسلام التي دخلت ضمن تقاليد القتال.

ومّا لا شكّ فيه أن معاملة النبيّ ﷺ الحسنة لأهل آيلة وإبقائهم على دينهم دفع بأهل أذرح ومقنا أيضاً إلى المصالحة تمشياً مع مبدأ «لا إكراه في الدين».

هذه السياسة الحكيمة سمحت للخلفاء الراشدين بتوجيه الجيوش العربية لاحقاً إلى الشام والعراق لفتحهما فيما كانت شبه الجزيرة العربية ما تزال تضمّ شعوباً ما تزال على النصرانية أو اليهودية فلم تنتفض على المسلمين أو تخرق الهدنة معهم.

٣ - العودة إلى المدينة:

بعد الإنجازات التي حققتها الحملة، والتي تكلمنا عنها، كان النبيّ ﷺ قد أقام في تبوك بضع عشرة ليلة من دون أن يلاقيه جيش الروم إليها، لذلك قرر العودة إلى المدينة.

وصف ابن الأثير رحلة العودة التي حصلت فيها إحدى عجائب النبيّ ﷺ، وأرسلت مجموعة لهدم مسجد الضرار وإحراقه، وهو مسجد ظالم أهله كما جاء في تاريخ الطبري.[١] كتب ابن الأثير عن رحلة العودة ما يلي:[٢]

«وأقام رسول الله ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة، لم يجاوزها ولم يقدم عليه الروم والعرب المتنصّرة فعاد إلى المدينة. وكان في الطريق ماء يخرج من وشل لا يروي إلاّ الراكب والراكبين بواد يقال له: وادي المشقق، فقال رسول الله ﷺ: «من سبقنا فلا يستقين منه شيئاً حتى نأتيه». فسبقه نفر

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٨٦.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٥٢ - ١٥٣.

- مسجد الضرار بناه المنافقون على صورة مسجد قباء ليصلي فيه النبي ﷺ حتى تغفر ذنوبهم ويذهب ما لديهم من الفساد والكفر - فعصم الله رسوله ﷺ من الصلاة فيه.

من المنافقين فاستقوا ما فيه. فلما جاء رسول الله ﷺ أخبروه بفعلهم فلعنهم ودعا عليهم، ثمّ نزل رسول الله ﷺ إليه فوضع يده تحته وجعل يصب إليها يسيراً من الماء فدعا فيه ونضحه في الوشل فانخرق الماء جرياً شديداً فشرب الناس واستقوا. وسار رسول الله ﷺ حتى قارب المدينة فأتاه خبر مسجد الضرار فأرسل مالك بن الدخشم فحرقه وهدمه، وأنزل الله فيه ﴿وَالَّذِيْنَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِين﴾.[1] وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً وكان قد أخرج من دار خذام بن خالد من بني عمرو ابن عوف.

وقدّم رسول الله ﷺ وكان قد تخلّف عنه رهط من المنافقين فأتوه يحلفون له ويعتذرون فصفح عنهم رسول الله ﷺ ولم يعذرهم الله ورسوله. وتخلّف أولئك النفر الثلاثة وهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع تخلفوا من غير شك ولا نفاق فنهى رسول الله ﷺ عن كلامهم فاعتزلهم الناس فبقوا كذلك خمسين ليلة؛ ثمّ أنزل الله توبتهم. وكان قدوم رسول الله ﷺ المدينة من تبوك في رمضان.

٤ - قدوم وفود العرب إلى المدينة:

وبعد عودة النبيّ ﷺ، قدم إلى المدينة وفد من ثقيف أقام فيها مدّة ثمّ اعتنق أفراده الإسلام. كما جاءت وفود من مختلف القبائل العربية فاعتنقت الدين الإسلامي بعد أن أسلمت قريش وعرفت هذه القبائل أن لا طاقة لها على حرب المسلمين ولا على عداوتهم.

أما الوفود التي قدمت فقد عددها ابن الأثير فكتب:[2]

«وقدمت وفودهم في هذه السنة:

قدم وفد بني أسد على رسول الله ﷺ وقالوا: أتيناك قبل أن ترسل إلينا رسولاً. وفيها قدم وفد بلى في شهر ربيع الأول فنزلوا على رويفع بن ثابت البلوي. وفيها قدم وفد الزاريين وهم عشرة نفر.

---

(١) التوبة: من الآية ١٠٧.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٥٨ - ١٦٠.

وفيها قدم على رسول الله ﷺ وفد بني تميم الذين أسلموا فأحسن جوائزهم. وفيها قدم على رسول الله ﷺ كُتُب ملوكِ حمْيَر مُقرِّين بالإسلام مع رسولهم الحارث بن عبد كلال، والنعمان قيل ذي رُعَيْن، وهمدان، فأرسل إليه زرعة ذو يزن مالك بن مرة الرهاوي بإسلامهم، وكتب إليهم رسول الله ﷺ يأمرهم بما عليهم في الإسلام وينهاهم عما حرم عليهم.

وفيها قدم وفد بهراء على رسول الله ﷺ فنزلوا على المقداد بن عَمْرو، وكانوا ثلاثة عشر رجلاً.

وفيها قدم وفد بني البكاء.

وفيها قدم وفد بني فزارة وهم بضعة عشر رجلاً، فيهم خارجه بن حصن.

وفيها قدم وفد ثعلبة بن منقذ.

وفيها قدم وفد سعد بن بكر وكان وافدهم ضِمام بن ثعلبة، فسأل رسول الله ﷺ عن شرائع الإسلام وأسلم».

وزاد على هذه الوفود ابن كثير فذكر قدوم وفد بني عبد القيس ووفد بني حنيفة، ومعهم مسيلمة الكذّاب، ووفد أهل نجران الذين صالحهم النبيّ ﷺ وكتب لهم كتاب أمان جاء فيه:[1]

«**بسم الله الرحمن الرحيم**، هذا ما كتب محمّد النبيّ رسول الله لنجران أن كان عليهم حكمه في كلّ ثمرة وكلّ صفراء وبيضاء ورقيق فأفضل عليهم، وترك ذلك كلّه على ألفيّ حلّة في كلّ رجب ألف حلّة، وفي كلّ صفر ألف حلّة، وذكر تمام الشروط. إلى أن قال: شهد أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ومالك بن عوف من بني نصر، والأقرع بن حابس الحنظلي والمغيرة. وكتب حتى إذا قبضوا كتابهم انصرفوا إلى نجران».

كما وفدت إلى المدينة جماعة من بني عامر على رأسهم عامر بن الطفيل الذي رفض اعتناق الإسلام فأصابه الطاعون أثناء عودته وتوفي.[2]

وجاء المدينة وفد من أهل اليمن ووفد الاشعريين برئاسة أبي موسى الأشعري، ووفد من كندة برئاسة فروة بن مسيك

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٨ – ٨٠.

(٢) البلاذري، مرجع سابق، ص ٥٨ – ٨٠.

المرادي، ووفد من رابيد برئاسة عمرو بن معد يكرب الذي أسلم ثمّ ارتدّ بعد وفاة النبيّ ﷺ، ثمّ عاد وأسلم وحسن إسلامه، ثمّ وفد من كنانة برئاسة الأشعث بن قيس.

ثمّ جاءت النبيّ ﷺ وفود أهل جُرش من الأزد الذين أسلموا وحسن إسلامهم، ووفود أخرى من أسد وفزارة وعبس ومرّة وكلب وجُذام وثعلبة وبني محارب وكلاب وعقيل بن كعب وبني هلال وكنانة وأشجع وباهلة وسليم وبكر بن وائل وتغلب وخولان وهُذيم وثعلبة بن منقذ وغيرهم.(١)

وهكذا نرى أن وفوداً كثيرة من أقطار شبه الجزيرة العربية وفدت على النبيّ ﷺ بعد سقوط مكّة وخيبر. ففتح مكة، كما سبق القول، كان له وقع معنوي كبير على هذه القبائل وشكّل حدثاً مفصلياً في تاريخ الإسلام.(٢)

وبالفعل، فإن المسلمين كانوا قد بدأوا يتحضّرون، قبل وفاة النبي ﷺ، لغزو باقي مناطق الشرق الأدنى الواقعة خارج شبه الجزيرة العربية، خاصة بعد أن خضعت مناطق شبه الجزيرة بغالبيتها لهم. لكن وفاة النبيّ ﷺ وارتداد عدد من القبائل عن الإسلام، جعلا الخليفة الراشدي الأول يخصّص السنة الأولى من خلافته لمحاربة المرتدين وإعادتهم إلى حضن الإسلام، ممّا أخّر عملية الفتوحات الكبرى.

٥ - غزوة طيئ:

في شهر ربيع الأول أرسل النبيّ ﷺ سرية بقيادة علي بن أبي طالب إلى ديار طيئ وأمره بأن يهدم صنمهم «الفلس». اتجهت السرية إلى ديار طيئ فأغارت عليهم وأخذت السبايا وأخذ علي سيفين كانا قد علقا على الصنم بعد أن هدمه وسلّمهما إلى الرسول ﷺ، يقال لأحدهما «رسوب» وللآخر

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٩٠ - ١٠٢.
الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٩١ - ١٩٣.
للمزيد من أسماء الوافدين - أنظر الملحق بهذا الفصل.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٠.

«المخزم».[١] وقد أسلم بنو طيئ بعد هذه الغزوة.

ذكر ابن الأثير هذه الغزوة ونتائجها بالتفصيل، إذ كتب:[٢]

«في هذه السنة في شهر ربيع الآخر أرسل النبيّ ﷺ عليّ بن أبي طالب في سرية إلى ديار طيئ وأمره أن يهدم صنمهم الفلس، فسار إليهم وأغار عليهم فغنم وسبى وكسر الصنم. وكان متقلّداً سيفين، يقال: لأحدهما مخذم، وللآخر رسوب فأخذهما عليّ وحملهما إلى رسول الله ﷺ. وكان الحارث بن أبي شمر أهدى السيفين للصنم فعلقا عليه. وأسر بنتاً لحاتم الطائي وحملت إلى رسول الله ﷺ بالمدينة فأطلقها. وأما إسلام عديّ بن حاتم فقال عديّ: جاءتْ خيلُ رسول الله ﷺ فأخذوا أختي وناساً فأتوا بهم رسول الله ﷺ فقالت أختي: يا رسول الله هلك الوالد، وغالب الوافد فامنن عليّ مَنّ الله عليك: فقال: ومَن وافدك؟ قالت: عدي بن حاتم. قال: الذي فرّ من الله ورسوله. فمنّ عليها وإلى جانبه رجل قائم وهو علي بن أبي طالب قال: سليه حملاناً، فسألته فأمر لها به، وكساها وأعطاها نفقة. قال عدي: وكنت معك طيئ آخذ منهم المرباع وأنا نصرانيّ. فلمّا قدمتْ خيلُ رسول الله ﷺ هربتُ إلى الشام من الإسلام وقلتُ: أكون عند أهل ديني. فبينا أنا بالشام إذ جاءت أختي وأخذتْ تلومني على تركها وهربي بأهلي دونها، ثمّ قالت لي: أرى أنْ تلحق بمحمّد سريعاً فإنْ كان نبيّاً كان للسابق فضله، وإنْ كان ملكاً كنت في عزٍّ وأنت أنت. قال: فقدمتُ على رسول الله ﷺ فسلمتُ عليه وعرَّفته نفسي. فانطلق إلى بيته فلقيْته امرأة فاستوقفته فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها فقلت: ما هذا بملك. ثمّ دخلتُ بيته فأجلسني على وسادة وجلس على الأرض، فقلت في نفسي: ما هذا ملك. فقال لي: يا عدي إنك تأخذ المِرْباع[٣] وهو لا يحل في

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٨٦ - ١٨٧.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٣) المرباع أي ربع الغنيمة الذي كان يخصص لرئيس القبيلة في الجاهلية.

دينك، ولعلك إنما يمنعك من الإسلام ما ترى من حاجتنا وكثرة عدونا. والله ليفيضنَ المالَ فيهم حتى لا يوجد مَنْ يأخذه، ووالله لتسمعن بالمرأة تسير من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف إلاَ الله، ووالله لتسمعن بالقصور البيض من بابل وقد فُتِحَتْ. قال: فأسلمتُ فقد رأيتُ القصور البيض وقد فتحت؛ ورأيت المرأة تخرج إلى البيت لا تخاف إلاَ الله. ووالله لتكونن الثالثة ليفيضن المال حتى لا يقبله أحد».

ملحق رقم ١

لائحة الوفود إلى المدينة بعد عودة النبي ﷺ إليها من غزوة تبوك

- وفود من ثقيف وتميم وعبد القيس وبني حنيفة وأهل نجران وبني سعد بن بكر وطيئ وأهل اليمن والأشعريين ومراد وزبيد وكندة ومازن والازد وأهل جُرش وملوك حمير وبلاد معان وبني أسد وعبس وفزارة ومرّة وثعلبة ومحارب وكلاب ورؤاس من كلاب وعقيل بن كعب وقشير بن كعب وبني البكاء وكنانة وأشجع وسليم وهلال بن عامر وبكر بن وائل وتغلب وخولان وجعفي والصدف وخشين وبني سعد.(١)

- من رؤساء القوم: عامر بن الطفيل، ضمام بن ثعلبة، عدي بن حاتم الطائي، الطفيل بن عمرو، أبو موسى الأشعري، مزوة بن مسيك المراوي، عمرو بن معد يكرب، الأشعث بن قيس، صرد بن عبدالله الأزدي، جرير بن عبدالله البجلي، وائل بن حجر بن ربيعة، لقيط بن عامر بن المنتفق، زياد بن الحارث الصدائي، الحارث بن حسان البكري، عبد الرحمن بن أبي عقيل، طارق بن عبدالله، فروة بن عمرو الجذامي، تميم الدّاري.

(١) عن ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٠ - ١٠٠.

الفصل الثالث

أحداث السنتين العاشرة والحادية عشرة حتى وفاة النبي ﷺ

في السنة العاشرة للهجرة حجّ رسول الله ﷺ حجة الوداع وقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض».[1] وفيها توفي إبراهيم ابنه وله سنة وعشرة أشهر وثمانية أيام. وفيها أرسل النبيّ ﷺ علياً بن أبي طالب على رأس بعثة إلى اليمن، كما أرسل خالداً بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب في نجران الذين أعلنوا إسلامهم.

وفيها أرسل أمراءه وعمّاله على الصدقات.

أ - إرسال خالد بن الوليد إلى نجران:

أرسل رسول الله ﷺ خالداً بن الوليد على رأس مجموعة إلى بني الحارث بن كعب في نجران وأمره بأن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثاً، فإن أجابوا أقام عندهم وعلّمهم القرآن وشرائعه، وإن أبو الإسلام قاتلهم.

خرج خالد إليهم ودعاهم إلى الإسلام فأجابوا فكتب إلى النبيّ كتاباً يخبره فيه بذلك، نقله ابن كثير الذي كتب:[2]

«قال ابن إسحاق: ثم بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى، سنة عشر، إلى بني الحارث بن كعب بنجران «وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً، فإن استجابوا فاقبل منهم، وإن لم يفعلوا فقاتلهم». فخرج خالد حتى قدم عليهم، فبعث

(١) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٣١٤.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ١٠٢ - ١٠٣.

الركبان يضربون في كلّ وجه، ويدعون إلى الإسلام ويقولون: أيها الناس أسلموا تسلموا، فأسلم الناس ودخلوا فيما دعوا إليه. فأقام فيهم خالد يعلّمهم الإسلام، وكتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ كما أمره رسول الله إن هم أسلموا ولم يقاتلوا. ثمّ كتب خالد ابن الوليد إلى رسول الله ﷺ.

بسم الله الرحمن الرحيم. لمحمّد النبي رسول الله من خالد بن الوليد، السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو. أما بعد يا رسول الله صلّى الله عليك، فإنك بعثتني إلى بني الحارث بن كعب، وأمرتني إذا أتيتهم أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام، وأن أدعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا قبلت منهم، وعلّمتهم معالم الإسلام، وكتاب الله وسنّة نبيه، وإن لم يسلموا قاتلتهم. وإني قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله، وبعثت فيهم ركباناً: يا بني الحارث أسلموا تسلموا، فأسلموا ولم يقاتلوا، وأنا مقيم بين أظهرهم آمرهم بما أمرهم الله به، وأنهاهم عمّا نهاهم الله عنه، وأعلّمهم معالم الإسلام وسنّة النبيّ ﷺ، حتى يكتب إليّ رسول الله ﷺ. والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته.

فكتب إليه رسول الله ﷺ:

«**بسم الله الرحمن الرحيم.** من محمّد النبي رسول الله إلى خالد بن الوليد سلام عليك، فإني أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلاّ هو. أما بعد، فإن كتابك جاءني مع رسولك يخبر أن بني الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام، وشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمّداً عبده ورسوله، وأن قد هداهم الله بهداه، فبشّرهم وأنذرهم وأَقْبِل، وليُقبل معك وفدهم والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

فأقبل خالد إلى رسول الله ﷺ وأقبل معه وفد بني الحارث بن كعب، منهم قيس بن الحصين ذو الغصّة، ويزيد بن عبد المدان، ويزيد بن المحجّل، وعبدالله بن قراد الزِّيادي، وشدادُ بن عُبَيد الله القناني، وعمرو بن عبدالله الضبابي. فلما قدموا على رسول الله ﷺ ورآهم قال: «ممن هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند؟» قيل: يا

رسول الله هؤلاء بنو الحارث بن كعب. فلما وقفوا على رسول الله ﷺ سلّموا عليه وقالوا: نشهد أنك رسول الله وأنه لا إله إلاّ الله. فقال رسول الله ﷺ: «وأنا أشهد أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله». ثمّ قال «أنتم الذين إذا زجروا استقدموا»، فسكتوا فلم يراجعه منهم أحد. ثمّ أعادها الثانية، ثم الثالثة فلم يراجعه منهم أحد ثمّ أعادها الرابعة. قال يزيد بن المدان: نعم يا رسول الله! نحن الذين إذا زجروا استقدموا، قالها أربع مرات. فقال رسول الله ﷺ: «لو أن خالداً لم يكتب إليّ أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم». فقال يزيد بن عبد المدان: أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالداً! قال: «فمن حمدتم؟» قالوا: حمدنا الله الذي هدانا بك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «صدقتم». ثمّ قال: «بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟» قالوا: لم نك نغلب أحداً، قال: «بلى قد كنتم تغلبون من قاتلكم». قالوا: كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله إنا كنا نجتمع ولا نتفرّق، ولا نبدأ أحداً بظلم، قال: «صدقتم» ثمّ أمّر عليهم قيس بن الحصين.

قال ابن إسحاق: ثمّ رجعوا إلى قومهم في بقية شوال أو في صدر ذي القعدة، قال: ثمّ بعث إليهم بعد أن ولّى وفدهم عمرو بن حزم ليفقّههم في الدين، ويعلّمهم السنّة ومعالم الإسلام، ويأخد منهم صدقاتهم، وكتب له كتاباً عهد إليه فيه عهده وأمره أمره.

أمّا نصارى نجران، فقد صالحهم النبيّ ﷺ على ألفي حلّة، ثمن كلّ منها أربعون درهماً، شرط أن يستضيفوا رسل رسول الله ﷺ. وجعل لهم ذمة الله تعالى وعهده أن لا يفتنوا عن دينهم ولا يعشروا،[1] وأن لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به.[2] وفي خلافة عمر بن الخطاب، أُجلي هؤلاء عن نجران فخرج بعضهم إلى الشام وبعضهم إلى الكوفة.

(١) يعشروا أي يأخذوا ضريبة العشر.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٦٢.

ب - إرسال علي إلى اليمن:

أرسل رسول الله ﷺ علياً إلى همدان في اليمن يدعوهم إلى الإسلام، فقرأ عليهم علي كتاب النبيّ ﷺ فأسلمت همدان كلّها في يوم واحد، فكتب بذلك إلى النبيّ ﷺ الذي قال: «السلام على همدان».(١)

ثمّ تتابع أهل اليمن على اعتناق الإسلام.

كتب الطبري عن سرية علي ابن أبي طالب إلى اليمن ما يلي:(٢)

«قال: وفيها وجّه رسولُ الله ﷺ عليّ بن أبي طالب في سريّة إلى اليمن في رمضان. فحدّثنا أبو كريب ومحمّد بن عمرو بن هيّاج، قالا: حدّثنا يحيى بن عبد الرحمن الأَرْجيّ، قال: حدّثنا إبراهيم بن يوسف، عن أبيه عن أبي إسحاق، عن البَرَاء بن عازب، قال: بعث رسول الله ﷺ خالدَ بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام فكنت فيمن سار معه، فأقام عليه ستة أشهر لا يجيبونه إلى شيء، فبعث النبيّ ﷺ عليّ ابن أبي طالب، وأمره أن يُقفِل خالداً ومَن معه، فإن أراد أحد ممن كان مع خالد بن الوليد أن يعقّب معه تركه.

قال البَراء: فكنت فيمن عقّب معه؛ فلمّا انتهينا إلى أوائل اليمن، بلغ القوم الخبر، فجمعوا له، فصلّى بنا عليٌّ الفجر. فلمّا فرغ صَفّنا صفّاً واحداً، ثمّ تقدّم بين أيدينا، فحمِد الله وأثنى عليه، ثمّ قرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، فأسلمت هَمْدان كلُّها في يوم واحد، وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ، فلما قرأ كتابه خرّ ساجداً، ثمّ جلس، فقال: السلام على هَمْدان، السلام على هَمْدان! ثمّ تتابع أهل اليمن على الإسلام».

ج - إرسال أمراء النبيّ ﷺ على الصدقات:

أرسل النبيّ ﷺ إلى جميع المناطق التي دخلها الإسلام عمالاً على الصدقات مهمتهم جمع الصدقات من المسلمين والجزية من غير المسلمين المقيمين في تلك المناطق.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٦٨.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٩٧.

نـقـل ابـن الأثير روايـة إرسـال عـمّـال الصدقات فكتب:(١)

«وفيها بعث رسول الله ﷺ أمراءه وعمّاله على الصدقات، فبعث المهاجر بن أبي أمية ابن المغيرة إلى صنعاء فخرج عليه العنسي وهو بها. وبعث زياد بن لبيد الأنصاري إلى حضرموت على صدقاتهم. وبعث عديّ بن حاتم الطائي على صدقات طيئ وأسد. وبعث مالك بن نويرة على صدقات بني حنظلة، وجعل الزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم على صدقات سعد بن زيد مناة بن تميم. وبعث العلاء بن الحضرمي إلى البحرين. وبعث علي بن أبي طالب إلى نجران ليجمع صدقاتهم وجزيتهم ويعود، ففعل وعاد ولقي رسول الله ﷺ بمكّة في حجة الوداع. واستخلف على الجيش الذي معه رجلاً من أصحابه وسبقهم إلى النبيّ ﷺ فلقيه بمكّة، فعمد الرجل إلى الجيش فكساهم كلّ رجل حُلّة من البز الذي كان مع عليّ. فلما دنا الجيش خرج عليّ ليتلقاهم فرأى عليهم الحُلل فنزعها عنهم فشكاه الجيش إلى رسول الله ﷺ فقام النبيّ ﷺ خطيباً فقال: أيها الناس لا تشكوا علياً فوالله إنه لأخشن في ذات الله، وفي سبيل الله».

د - حجة الوداع:

يقال لحجة الوداع أيضاً حجة البلاغ وحجة الإسلام لأنه (عليه الصلاة والسلام) ودّع الناس فيها ولم يحجّ بعدها. وسميت حجة الإسلام لأن النبيّ ﷺ لم يحج من المدينة غيرها. وقيل إن فريضة الحج نزلت يومذاك. ودعيت حجة البلاغ لأن النبي ﷺ بلّغ الناس شرع الله في الحج قولاً وفعلاً، ولم يبقَ من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلاّ بيّنه. فلمّا أبان لهم شريعة الحج وشرحه، أنزل الله عليه وهو واقف بعرفة:(٢)

«اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً»(٣)

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٦٨ - ١٦٩.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ١١٥.

(٣) المائدة: من الآية ٣.

وهكذا، ولمّا حل ذو القعدة من السنة العاشرة للهجرة، تجهّز النبيّ ﷺ للحج وأمر الناس بالتحضير له، فخرج من المدينة لخمس ليال بقين من ذي القعدة ومعه أشرف أشراف الناس، فوصل مكّة بعد أسبوع.

نقل ابن الأثير رواية الخروج من المدينة والمسير نحو مكّة والخطبة في الناس فكتب:[١]

«خرج رسول الله ﷺ إلى الحج لخمس ليال بقين من ذي القعدة لا يذكر الناس إلاّ الحج. فلما كان بسرف أمر الناس أمر الناس أن يحلوا بعمرة إلاّ من ساق الهدي، وكان رسول الله ﷺ قد ساق الهدي وناسٌ معه. وكان علي بن أبي طالب قد لقيه مُحْرِماً فقال له النبي ﷺ: حل كما حل أصحابك. فقال: إني قد أهللت بما أهل به رسول الله فبقي على إحرامه.

ونحر رسول الله ﷺ الهدي عنه وعن علي. وحجّ بالناس فأراهم مناسكهم وعلّمهم سنن حجهم وخطب خطبته التي بيّن فيها للناس ما بيّن، وكان الذي يبلغ عنه بعرفة ربيعة بن أمية بن خلف لكثرة الناس».

نقل الطبري الخطبة الطويلة في حجة الوداع فكتب:[٢]

«حدثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن عبدالله بن أبي نَجِيح، قال: ثمّ مضى رسول الله ﷺ على حجّه؛ فأرى الناس مناسكهم، وأعلمهم سنَن حجّهم؛ وخطب الناس خطبته التي بيّن للناس فيها ما بيّن، فحمد الله وأثنى عليه؛ ثمّ قال:

أيّها الناس، إسمعوا قولي؛ فإنّي لا أدري لعلّي ألقاكم بعد عامي هذا، وبهذا الموقف أبداً. أيّها الناس؛ إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام؛ إلى أن تلقَوا ربّكم كحرْمة يومكم هذا، وحرْمة شهركم هذا؛ وستلقوْن ربّكم فيسألكم عن أعمالكم. وقد بَلّغْتُ، فمن كانت عنده أمانة فليُؤدّها إلى من ائتمنه عليها. وإنّ كلّ رباً موضوع، ولكم رؤوس

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٧٠ - ١٧١.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

أموالكم، لا تَظلمون، ولا تُظلمون. قضى الله أنه لا ربا. وإنّ ربا العباس بن عبد المطلب موضوعٌ كلّه، وإنّ كلّ دم كان في الجاهلية موضوع، وإنّ أوّل دم أضعُ دمَ ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب - وكان مسترضعاً في بني ليث، فقتلتْه بنو هُذَيْل - فهو أوّل ما أبدأ به من دماء الجاهليّة.

أيّها الناس؛ إنّ الشيطان قد يئس من أن يُعْبَد بأرضكم هذه أبداً؛ ولكنه رَضِيَ أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيّها الناس: ﴿إنّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الكُفْر يُضَلّ به الّذينَ كَفَرُوا يُحلُّونَهُ عَاماً ويُحَرّمُونَهُ عاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ ما حَرّمَ اللهُ فيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللهُ﴾،(١) ويُحرّموا ما أحَلّ الله وإنّ الزّمان قد استدار كهيئته يوم خَلَق الله السموات والأرض؛ و﴿إنّ عِدَّةَ الشُّهُور عِنْدَ الله اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ الله يَوْم خَلَقَ السَّمَوات وَالأرضَ مِنْها أرْبعَةٌ حُرُمٌ﴾،(٢) ثلاثة متوالية؛ ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد أيها الناس؛ فإنّ لكم على نسائكم حقاً ولهنّ عليكم حقاً، لكم عليهنّ ألا يُواطئن فرشَكم أحداً تكرهونه، وعليهنّ ألا يأتين بفاحشة مُبيِّنة؛ فإن فعلن فإنّ الله أذن لكم أن تهجروهنّ في المضاجع، وتضربوهنّ ضرباً غير مُبَرِّح، فإن انتهينَ فلهنّ رزقهنّ وكِسْوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيراً، فإنّهنّ عندكم عَوانٍ لا يملكن لأنفسهنّ شيئاً. وإنكم إنما أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله؛ فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولي؛ فإنّي قد بلّغت وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلنْ تضلُّوا أبداً؛ كتاب الله وسنّة نبيّه.

أيها الناس، إسمعوا قولي فإني قد بلّغت، واعقلوه. تعلَّمُنَّ أن كلّ مسلم أخو المسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحلّ لامرىء من أخيه إلاّ ما أعطاه عن طيب نفس؛ فلا تظلموا أنفسكم. اللهم هل بلغتُ! قال: فذكر أنهم قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله: اللهمّ اشهد».

---

(١) التوبة: من الآية ٣٧.

(٢) التوبة: من الآية ٣٦.

هـ - مرض النبيّ ﷺ ووفاته:

في السنة الحادية عشرة للهجرة التي استهلّت، وقد استقرّ الركاب الشريف النبوي بالمدينة بعد أن حجّ حجة الوداع، وقعت فيها أمورٌ عظام من أعظمها وقعاً على المسلمين وفاة رسول الله ﷺ أو مغادرته لهذه الدار الفانية إلى الدار الباقية والنعيم الأبدي، وذلك بعد أن أكمل إدارة الرسالة التي أمره الله بإبلاغها ونصح أمته ودلّها على خير ما يعلّمه لهم، وحذّرهم ونهاهم عمّا فيه مضرّة عليهم في دنياهم وآخرتهم.[١]

وكان الرسول ﷺ قد وحّد شبه الجزيرة العربية تحت راية الإسلام من جنوبها حتى شمالها، من اليمن حتى الحجاز، ومن عمان إلى حضرموت. وكان قد درّب القادة وكبار الأمراء الذين سيتولون نشر الدعوة بعده وتنفيذ العمليات العسكرية التي ستنشر راية الإسلام في الشرق الأدنى وآسيا الصغرى وشمال افريقيا والأندلس.

وكان الرسول قد غزا ستاً وعشرين غزوة قاتل في تسع منها، وفق ابن الأثير، وفي إحدى عشرة منها وفق الطبري.[٢] واختُلف في عدد سراياه وبعوثه، فمنهم من قال إنه أرسل خمساً وثلاثين منها.[٣]

فإذا عددنا إنجازات النبيّ ﷺ في السنين العشر للهجرة لوجدنا أنها كانت كبيرة للغاية. فعندما هاجر إلى المدينة السنة ٦٢٢م، كان قد حاول إقناع قريش بعبادة الله الواحد بدل عبادة الأصنام، لكنه لم يلقَ منها أي تجاوب. إلاّ أنه، وبعد سنين عشر كان قد أقام دولة المسلمين في المدينة، ونظم أحوالها في شكل يدعو إلى الإعجاب، وفتح المدن والمناطق المجاورة لها، وقاد جيوشاً يدفعها الحماس الديني لإنجازات تفوق أعدادها بكثير. كما جاءته وفود من كامل أصقاع شبه الجزيرة العربية معلنة تأييدها لدعوته واعتناقها الإسلام ديناً.

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٠٧.

(٣) أنظر ملحق بهذا الفصل: غزوات النبيّ ﷺ.

لقد وحّد النبيّ ﷺ خلال سنين عشر شبه الجزيرة العربية التي كانت تقطنها قبائل يقول ابن خلدون أن لها من العصبية الضيّقة ما يجعلها متفرّدة ومستوحشة وغير متفقة مع بعضها البعض. كما أن هذه القبائل كانت دوماً في صراع مع بعضها البعض في معارك سميت «أيام العرب».

كلّ هذه الإنجازات تدفع إلى القول أن وفاة النبيّ ﷺ قبل قيام الفتوحات الكبرى كانت خسارة كبيرة للمسلمين، عوّضها عمل القادة الكبار الذين تسلّموا المسيرة بعده والذين سنتكلّم عن إنجازاتهم في ما يلي من هذا الجزء من الموسوعة العسكرية العربية الاسلامية.

أخيراً، مرض النبيّ ﷺ في أواخر صفر في بيت زينب بنت جحش. وكان يدور على نسائه حتى اشتدّ المرض عليه في بيت ميمونة، فجمع نساءه وأبلغهن أنه سيمضي أيام مرضه في بيت عائشة. في هذا الوقت وصلته أخبار عن ظهور الأسود العنسي باليمن، ومسيلمة الكذاب باليمامة، وطليحة في بني أسد، وعسكر بسميراء.(١)

لم تشغل النبي ﷺ شدّة مرضه عن إرسال السرايا لمحاربة الخارجين عن الإسلام، فأرسل إلى نفر من الأنصار في أمر الاسود العنسي يحثّهم على الجهاد. فأصيب الأسود في حياة رسول الله ﷺ قبل وفاته بيوم واحد. كما أرسل مولاه أسامة بن زيد ابن حارثة إلى الشام على أن يوطيء الخيل تخوم البلقاء والدّاروم من أرض فلسطين فخرج أسامة، لكنه ضرب في الجرف.(٢)

وخرج النبي ﷺ رغم مرضه إلى أهل البقيع الذين قال لهم:

«لقد أوتيت مفاتيح خزائن الأرض، والخلد بها، ثمّ الجنة، وخُيّرت بين ذلك وبين لقاء ربي، فاخترت لقاء ربي».(٣)

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٨٢.

(٢) الجرف مكان بين المدينة والشام على مسافة ثلاثة أميال من المدينة.

- الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٢٥.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٨٣.

- الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٢٦.

نقل ابن الأثير نقلاً عن عائشة أم المؤمنين قولاً عن أواخر أيام النبي ﷺ جاء فيه:(١)

«قالت عائشة: فلما رجع من البقيع وجدني وأنا أجد صداعاً [في رأسي] وأنا أقول: وارأساه. قال: بل أنا والله يا عائشة وارأساه. ثمّ قال: ما ضرك لو متّ قبلي فقمتُ عليك وكفنتك وصليتُ عليك ودفنتك؟ فقلت: كأني بك - والله لو فعلت ذلك - فرجعت إلى بيتي فعرّست ببعض نسائك. فتبسّم وتتامّ به وجعه، وتمرض في بيتي فخرج منه يوماً بين رجلين، أحدهما الفضل بن العباس، والآخر علي. قال الفضل: فأخرجته حتى جلس على المنبر [ثمّ قال نادِ بالناس فاجتمعوا إليه] فحمد الله، وكان أول ما تكلّم به النبي ﷺ أن صلّى على أصحاب أُحُد فأكثر واستغفر لهم، ثمّ قال:

أيها الناس ان قد دنا مني حقوق من بين أظهركم، فمن كنت جلدتُ له ظهراً فهذا ظهري فليستقِدّ منه، ومن كنت شتمتُ له عرضاً، فهذا عِرْضِي فليستقِدّ منه، ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ولا يخشى الشحناء من قِبَلي فإنها ليست من شأني.

ألا وإن أحبكم إليّ من أخذ مني حقاً إن كان له أو حللني فلقيت ربي وأنا طيب النفس [وقد أرى أن هذا غير مغن عني حتى أقوم فيكم مرارا]».

وقبل وفاته جلس النبيّ ﷺ على المنبر وخطب في الناس كما جاء في الطبري الذي كتب:(٢)

«فحدّثني حُميد بن الربيع الخراز، قال: حدّثنا معن بن عيسى، قال: حدّثنا الحارث ابن عبد الملك بن عبدالله بن إياس الليثيّ؛ ثمّ الأشجعيّ؛ عن القاسم بن يزيد، عن عبدالله بن قُسَيْط، عن أبيه، عن عطاء، عن ابن عبّاس، عن أخيه الفضْل بن عبّاس، قال: جاءني رسولُ الله ﷺ، فخرجت إليه فوجدته موعوكاً قد عصب رأسه، فقال: خذ بيدي يا فَضْل، فأخذتُ بيده؛ حتى جلَس

---

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ١٨٣.

(٢) الطبري، المرجع نفسه، جزء ٢، ص ٢٢٧.

على المنبر، ثمّ قال: نادِ في الناس. فاجتمعوا إليه. فقال: أمّا بعدُ أيّها الناس، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلاّ هو؛ وإنه قد دنا منّي حقوق من بين أظهركم، فمن كنتُ جلدتُ له ظهراً فهذا ظهري فليستقدْ منه، ومنْ كنتُ شتمتُ له عِرْضاً فهذا عِرْضي فليستقد منه؛ ألا وإنّ الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني، ألا وإنّ أحبكم إليّ مَنْ أخذ منّي حقّاً إن كان له، أو حلّلني فلقيت الله وأنا أطيبُ النفس؛ وقد أرى أن هذا غير مُغْنٍ عنّي حتى أقوم فيكم مراراً.

قال الفضل: ثمّ نزل فصلّى الظهر، ثمّ رجع فجلس على المنبر، فعاد لمقالته الأولى في الشحناء وغيرها، فقام رجل فقال: يا رسول الله؛ إنّ لي عندك ثلاثة دراهم، قال: أعطِه يا فضل، فأمرته فجلس. ثمّ قال: أيّها الناس، مَنْ كان عنده شيء فليؤدّه ولا يقل فُضوح الدنيا، ألا وإن فضوح الدنيا أيسرُ من فضوح الآخرة. فقام رجل فقال: يا رسول الله عندي ثلاثة دراهم غللتَها في سبيل الله، قال: ولِمَ غللتَها؟ قال: كنت إليها محتاجاً، قال: خُذْها منه يا فضل. ثمّ قال: يا أيها النّاس، مَنْ خَشيَ من نفسه شيئاً فليقمْ أدعُ له. فقام رجل فقال: يا رسولَ الله، إنّي لكذّاب، إنّي لفاحِش، وإني لنؤوم؛ فقال: اللهم ارزقه صدقاً وإيماناً، وأذهِبْ عنه النوم إذا أراد. ثمّ قام رجل فقال: والله يا رسول الله، إنّي لكذّاب وإني لمنافق، وما شيء - أو إن شيء - إلاّ قد جنيته. فقام عمر بن الخطاب، فقال: فضحت نفسك أيها الرجل! فقال النبيّ ﷺ: يا بنَ الخطاب، فضوح الدنيا أهونُ من فضوح الآخرة، اللهمّ ارزقه صدقاً وإيماناً وصيِّرْ أمرَه إلى خير».

وتوفي النبيّ ﷺ عند عائشة التي نقل عنها ابن كثير رواية وفاة النبيّ ﷺ فكتب:[1]

«قالت عائشة رضي الله عنها: فمات في اليوم الذي كان يدور عليّ فيه في بيتي، وقبضه الله وإن رأسه لبين سحري[2] ونحري وخالط ريقه ريقي. قالت: ودخل عبد الرّحمن بن أبي بكر ومعه سواك يستنّ به،

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٢٤٦.

(٢) السحر: الرئة.

فنظر إليه رسول الله ﷺ. فقلت له: أعطني هذا السواك يا عبد الرّحمن، فأعطانيه فقضمته، ثمّ مضغته فأعطيته رسول الله ﷺ فاستنّ به، وهو مستند إلى صدري. انفرد به البخاري من هذا الوجه. وقال البخاري: أخْبَرَنا عبدالله بن يوسف، ثنا الليث، حدَّثني ابن الهاد عن عبد الرَّحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة. قالت: مات النبيّ ﷺ وإنه لبين حاقنتي[1] وذاقنتي[2] فلا أكره شدّة الموت لأحد أبداً بعد النبيّ ﷺ. وقال البخاري: حدّثنا حيان، أنبأنا عبدالله، أنبأنا يونس عن ابن شهاب، قال أخبَرَني عروة أن عائشة أخبرته: أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى أنفث عليه بالمعوذات، ومسح عنه بيده. فلما اشتكى وجعه الذي توفي فيه طفقت أنفث عليه بالمعوذات التي كان ينفث، وأمسح بيد النبيّ ﷺ عنه».

وكان النبيّ ﷺ، لما اشتدّ عليه مرضه، أوصى أبا بكر بأن يصلّي بالناس،[3] فصلّى بهم سبع عشرة صلاة.

وكانت وفاة النبيّ ﷺ يوم الإثنين لليلتين بقيتا من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة[4] وبويع أبو بكر بنفس اليوم. الواقدي نقل أنه توفي يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ودفن في اليوم التالي أي الثلاثاء.

أما تفاصيل ما بعد الوفاة، وحديث أبي بكر وعمر إلى الناس فقد نقله الطبري الذي كتب:[5]

«قال أبو جعفر: تُوُفِّيَ رسول الله ﷺ وأبو بكر بالسُّنْح وعمر حاضرٌ. فحدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن الزُّهريّ، عن سعيد بن المسيّب، عن أبي هريرة، قال: لما تُوُفِّيَ رسولُ الله ﷺ قام عمر

---

(١) الحاقنة: المعدة.

(٢) الذاقنة: الذقن والحلقوم.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٢٥٢.

(٤) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ١٨٧.

تاريخ الوفاة كانت في ٨ حزيران من العام ٦٣٢ ميلادي.

(٥) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٣٢ - ٢٣٣.

ابن الخطاب، فقال: إنَّ رجالاً من المنافقين يزعمون أنَّ رسول الله تُوُفِّيَ وإنَّ رسول الله والله ما مات؛ ولكنه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة؛ ثمّ رجع بعد أن قيل قد مات؛ والله ليرجعَنَّ رسول الله فليقطعنَّ أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنَّ رسول الله مات.

قال: وأقبلَ أبو بكر حتى نزلَ على باب المسجد حين بلَغه الخبر، وعمَر يكلّم الناس؛ فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة؛ ورسول الله مُسَجّى في ناحية البيت، عليه بُرْد حِبَرة، فأقبل حتى كشف عن وجهه، ثمّ أقبل عليه فقبّله، ثمّ قال: بأبي أنت وأمي! أما الموْتة التي كتب الله عليك فقد ذُقْتها، ثمّ لن يصيبك بعدها موتةٌ أبداً. ثمّ ردّ الثّوب على وجهه، ثمّ خرج وعمرُ يكلّم الناس، فقال: على رِسْلِك يا عمر! فأنصت، فأبى إلاّ أن يتكلّم، فلمّا رآه أبو بكر لا يُنصِت أقبل على الناس، فلمّا سمع الناسُ كلامه أقبلوا عليه، وتركوا عمر، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: أيّها الناس؛ إنه مَنْ يعبُد محمّداً فإن محمّداً قد مات؛ ومَنْ كان يعبد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت. ثمّ تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُل...﴾[1] إلى آخر الآية. قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حتى تلاها أبو بكر يومئذ».

ودفن رسول الله ﷺ في المدينة «في حجرة عائشة التي كانت تختص بها شرقي مسجده في الزاوية الغربية القبلية من الحجرة، ثمّ دفن بعده أبو بكر، ثمّ عمر رضي الله عنهما».[2]

---

(١) آل عمران: من الآية ١٤٤.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٢٩٥.

ملحق رقم ٢

تعداد غزوات النبيّ ﷺ

نقل ابن الأثير لائحة بعدد وأسماء الغزوات التي أرسلها النبيّ ﷺ والتي قاتل فيها أو شارك فيها فجاءت الحصيلة كالآتي:(١)

«وكان آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ بنفسه غزوة تبوك، وجميع غزواته بنفسه تسع عشرة غزوة. قال الواقدي: هكذا يرويه أهل العراق عن زيد بن أرقم وهو خطأ لأن زيداً غزا مؤتة مع عبدالله بن رواحة وهو رديفه على رحله ولم يغز مع النبيّ ﷺ غير ثلاث غزوات أو أربع.

وقيل: تعداد غزوات رسول الله ﷺ ستاً وعشرين غزوة، وقيل: سبعاً وعشرين. فمن قال: ستاً وعشرين جعل غزوة خيبر ووادي القُرى واحدة لأنه لم يرجع من خيبر حين فرغ من أمرها إلى منزله ولكنه مضى منها إلى وادي القرى. ومَنْ فرَّق بينهما وجعل غزواته سبعاً وعشرين جعل خيبر غزوة ووادي القرى غزوة.

وأول غزوة غزاها ودّان، وهي الأبواء، ثمّ بُواط بناحية رضوى، ثمّ العُشَيْرة، ثمّ بدر الأولى لطلب كرز بن جابر، ثمّ بدر التي قتل فيها قريشاً، ثمّ غزوة بني سليم، ثمّ غزوة السويق، ثمّ غزوة غطفان وهي غزوة ذي أمرّ، ثمّ غزوة بحران بالحجاز، ثمّ غزوة أحد؛ ثمّ غزوة حمراء الأسد، ثمّ غزوة بني النضير، ثمّ غزوة ذات الرقاع، ثمّ غزوة بدر الآخِرَة، ثمّ غزوة

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٧٢ - ١٧٣.

دُومَة الجَنْدَل، ثمَّ غزوة الخندق، ثمَّ غزوة بني قريظة، ثمَّ غزوة بني لحيان من هذيل، ثمَّ غزوة ذي قَرَد، ثمَّ غزوة بني المصطلق، ثمَّ غزوة الحديبية، ثمَّ غزوة خيبر، ثمَّ عمرة القضاء، ثمَّ غزوة فتح مكّة، ثمَّ غزوة حنين، ثمَّ غزوة الطائف، ثمَّ غزوة تبوك.

قاتل منها في تسع غزوات بدر، وأحد، والخندق، وقريظة، والمصطلق، وخيبر، والفتح، وحنين، والطائف.

واختلف في عدد سراياه فقيل: كانت خمساً وثلاثين ما بين سرية وبَعْث، وقيل: ثمانياً وأربعين».

القسم الثاني

حروب الرِّدّة

الفصل الرابع
حركة الردّة

توفي رسول الله ﷺ من دون أن يوصي بالخلافة لأحد. لكن المسلمين تمكّنوا من اتباع قول أبي بكر الذي سيصبح خليفة النبي ﷺ أنّ «من كان يعبد محمّداً، فإن محمّداً قد مات؛ ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت».

ومن متابعة مسيرة النبي ﷺ الدينية، فقد تمكّن خلفاؤه ﷺ من إعادة إخضاع قبائل شبه الجزيرة العربية التي ارتدت عن الإسلام ومجابهة إمبراطوريتين عمر الواحدة منهما مئات السنين، ونشر راية الإسلام في القسم الأكبر من العالم الذي كان معروفاً يومذاك.

كلّ هذه الإنجازات التي قام بها الخليفتان الأول والثاني، أي أبو بكر وعمر، تحققت بفضل الآلة العسكرية الضخمة التي كان النبيّ ﷺ قد حضّرها قبل وفاته، وتدرّب قادتها على يده وكانوا مشبعين بالإيمان بالدين وراغبين في نشره، وفي الجهاد في سبيل ذلك. ومن هؤلاء القادة الذين برزوا خلال الفتوحات الكبرى نذكر خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح وشرحبيل ابن حسنة والمغيرة بن شعبة وعقبة بن نافع وموسى بن نصير وعبد الرحمن الغافقي وعبد الرحمن الثاني والثالث، وغيرهم من الذين اعتبروا قادة الفتوحات والذين سنتكلّم عنهم تباعاً في هذه الموسوعة.

إنما وقبل التطرّق إلى الحروب والمعارك والقادة، رأينا وجوب التطرق إلى مجرى الأمور في المدينة بعد وفاة النبي ﷺ وحتى تسلّم أبي بكر رعاية شؤون المسلمين.

أولاً – الخلاف بين المهاجرين والأنصار على الخلافة

لمّا لم يستخلف النبيّ ﷺ، وقع الخلاف بين المهاجرين والأنصار على من سيكون خليفة المسلمين. فالأنصار اعتبروا أن نصرتهم للنبي ﷺ هي التي ساهمت في وصول الإسلام إلى ما وصل إليه يومذاك، فيما اعتبر المهاجرون أن الخلافة ينبغي أن تكون في قريش، وخاصة فيهم، كونهم تركوا أرزاقهم ومدينتهم وتعرّضوا لشتى أنواع القهر والحرمان في سبيل الدين.

كتب جرجي زيدان يصف الحالة في المدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ:[1]

«كان النبي في أثناء حياته أمير المسلمين وقائدهم في الحرب، وإمامهم في الصلاة، وقاضيهم في سائر الأحوال. فلمّا مات ولم يخلف له ذكراً ولا أوصى بالخلافة لأحد – وأما قوله لعلي المتقدّم ذكره أنه وصيه فالأئمّة مختلفون فيه – إختلفوا عند موته في من يخلفه. وأولى الناس بخلافته أصحابه وهم المهاجرون والأنصار، فقال المهاجرون نحن أحقّ بالخلافة، لأننا أهل النبيّ وأصحابه وقد تركنا أهلنا وبلدنا وهاجرنا معه. وقال الأنصار بل نحن أحقّ بذلك لأننا آويناه ونصرناه. واشتدّ الجدال بينهما حتى كاد يفضي إلى النزاع، فذكّرهم أبو بكر بحديث كان النبي قد قاله على مسمع منهم وهو: «قريش ولاة هذا الأمر» فأذعنوا وتراجع الأنصار.

ولكن الخطر ما زال يهدّد الإسلام من اختلاف المهاجرين على من يختارونه لذلك المنصب العظيم، فأحسّ عمر بن الخطاب رجل المسلمين بذلك، وخاف الفشل لأنّ الإسلام قام على الاتّحاد، فبادر إلى أبي بكر فبايعه والناس ينظرون. وهم إنما كانوا يخافونه إذا طلب الخلافة لنفسه لشدّة بطشه وقوّته. فلمّا رأوه سبقهم إلى مبايعة أبي بكر، بايعوا معه وانفضّ المشكل».

---

(١) جرجي زيدان، مرجع سابق، جزء ٣١، ص ٦٣ – ٦٤.

أ - تجمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة:

عند وفاة النبي ﷺ كان المسلمون يتشكلون في ثلاث فئات:

١ - فئة المهاجرين الذين تجمّعوا في بيت ابنته فاطمة وانشغلوا بغسل النبيّ ﷺ وتجهيزه.

٢ - فئة الأنصار الذين اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة وقرروا مبايعة سعد بن عبادة كحاكم للمدينة.

٣ - فئة من المهاجرين على رأسها أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، تحرّكت بسرعة وأخذت المبادرة بمبايعة الخلف فبايعت أبي بكر بالخلافة. وربحت الجولة الأولى من الصراع الذي نشب أثر وفاة النبيّ ﷺ مباشرة.

فما الذي جرى في سقيفة بني ساعدة؟

ما حصل هو أنه، وفي يوم وفاة النبيّ ﷺ، اجتمعت جماعات من الأنصار في سقيفة بني ساعدة وقرروا انتخاب سعد بن عبادة أحد زعماء قبيلة الخزرج أميراً على المدينة خلفاً للنبي ﷺ. وحين علم أبو بكر وعمر بالاجتماع توجها بسرعة إلى المكان مما أحدث مفاجأة بين الأنصار الذين طرح أحدهم السؤال:

«فإن أبت مهاجرة قريش، ما العمل؟»

فأجاب المهاجرون: «نحن المهاجرون وصحابة رسول الله ﷺ الأولون، ونحن عشيرته وأولياؤه، فعلام تنازعوننا هذا الأمر بعده!» فقالت جماعة من الأنصار: «منا أمير ومنكم أمير؟» فقال سعد بن عبادة: «هذا أول الوهن».[(١)]

وحصلت فوضى وجدل حتى وقف أبو بكر خطيباً.

نقل الطبري رواية سقيفة بني ساعدة ومبايعة أبي بكر بالخلافة عن عمر بن الخطاب قوله:[(٢)]

«قال: فأتيناهم وهم مجتمعون في سَقِيفة بني ساعدة. قال: وإذا بين أظهرهم رجلٌ مُزَّمَّلٌ؛ قال: قلتُ: مَنْ هذا؟ قالوا: سعد بن عبادة، فقلت: ما شأنه؟ قالوا: وَجِعٌ، فقام رجلٌ منهم، فحمد الله، وقال: أمّا بعد، فنحنُ الأنصار وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر

(١) بيضون وزكار، تاريخ العرب السياسي، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٤، ص ٥٢ - ٥٣.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٣٥.

قريش رهطُ نبيّنا؛ وقد دفّت إلينا من قومكم دَافّةٌ. قال: فلمّا رأيتهم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، ويغصبونا الأمر. وقد كنت زوّرت في نفسي مقالةً أقدمها بين يدي أبي بكر، وقد كنت أداري منه بعض الحدّ، وكان هو أوقرَ منّي وأحلم. فلمّا أردت أن أتكلّم، قال: على رِسْلِكَ! فكرهت أن أعصيَه؛ فقام فحمد الله وأثنى عليه، فما ترك شيئاً كنتُ زوّرت في نفسي أن أتكلّم به لو تكلّمت؛ إلاّ قد جاء به أو بأحسن منه. وقال: أما بعدُ يا معشرَ الأنصار؛ فإنكم لا تذكرون منكم فضلاً إلاّ وأنتم له أهلٌ؛ وإنّ العرب لا تعرف هذا الأمر إلاّ لهذا الحيّ من قريش؛ وهم أوسط العرب داراً ونسباً، ولكن قد رضيتُ لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيّهما شئتم. فأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح. وإني والله ما كرهتُ من كلامه شيئاً غير هذه الكلمة؛ إن كنت لأقدَّم فتُضرَب عنقي فيما لا يقرّبني إلى إثم أحبُّ إليّ من أن أؤمَّر على قوم فيهم أبو بكر. فلمّا قضى أبو بكر كلامه، قام منهم رجلٌ، فقال: أنا جُذيلُها المُحكّك، وعُذَيْقُها المُرجَّب؛ منّا أميرٌ ومنكم أمير؛ يا معشر قريش.

قال: فارتفعت الأصوات، وكثر اللّغط. فلمّا أشفقت الاختلاف، قلت لأبي بكر: أبسِط يدك أبايعْك. فبسط يده فبايعتُه وبايعه المهاجرون، وبايعه الأنصار. ثمّ نزونا على سعد، حتى قال قائلهم: قتلتُم سعد بن عبادة! فقلت: قتل الله سعداً! وإنا والله ما وجدنا أمراً هو أقوى من مبايعة أبي بكر؛ خشينا إنْ فارقنا القوم ولم تكن بيعةٌ أن يحدثوا بعدنا بيعة، فإمّا أن نتابعهم على ما نرضى، أو نخالفهم فيكون فساد».

ب - مبايعة أبي بكر:

وبعد مبايعة أبي بكر في السقيفة، توجّه مع عمر وأبو عبيدة إلى المسجد، فصعد أبو بكر المنبر ووقف عمر إلى جانبه وأخبر الناس الذي جرى في السقيفة ومبايعة أبي بكر وطلب من الحاضرين مبايعته أيضاً ففعلوا. ثمّ وقف أبو بكر وأعلن في خطبة قصيرة سياسته وخططه.

أما مبايعة علي فقد تضاربت الآراء بها. فقد نقل ابن الأثير أنه بعد مبايعة الناس لأبي بكر قال بعض الأنصار: لا نبايع إلاّ علياً. وكان الذين تخلّفوا عن البيعة هم علي

وبنو هاشم والزبير بن العوّام وطلحة. وقال الزبير يومئذ: «لا أغمد سيفاً حتى يبايع علي».

أكمل ابن الأثير الرواية، فكتب:(١)

«قال: وتخلف علي، وبنو هاشم، والزبير؛ وطلحة عن البيعة وقال الزبير: لا أغمد سيفاً حتى يُبايع علي. فقال عمر: خذوا سيفه واضربوا به الحجر، ثمّ أتاهم عمر فأخذهم للبيعة، وقيل: لما سمع عليٌّ بيعة أبي بكر خرج في قميص ما عليه إزار ولا رداء عَجِلاً حتى بايعه ثمّ استدعى إزاره ورداءه فتجلّله. والصحيح أن أمير المؤمنين ما بايع إلاّ بعد ستة أشهر، والله أعلم. وقيل: لما اجتمع الناس على بيعة أبي بكر أقبل أبو سفيان وهو يقول: إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلاّ دم يا آل عبد مناف: فيم أبو بكر من أموركم؟ أين المستضعفان؟ أين الأذلان؟ علي والعباس؟ ما بال هذا الأمر في أقل حيّ من قريش؟ ثمّ قال لعليّ: أبسط يدك أبايعك، فوالله لئن شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجلاً. فأبى عليّ عليه السلام عليه، وزجره عليّ وقال: والله إنك ما أردتَ بهذا إلاّ الفتنة وإنك والله طالما بغيتَ للإسلام شراً، لا حاجة لنا في نصيحتك».

أما الطبري، فنقل رواية مبايعة علي وبني هاشم بشكل مختلف إذ كتب:(٢)

«قال معمر: فقال رجلٌ للزهريّ: أفلم يبايعه عليٌّ ستة أشهر! قال: لا، ولا أحدٌ من بني هاشم؛ حتى بايعه عليّ. فلمّا رأى عليٌّ انصراف وجوه الناس عنه ضرع إلى مصالحة أبي بكر، فأرسل إلى أبي بكر: أن ائتنا ولا يأتنا معك أحدٌ، وكره أن يأتيه عمر لما علم من شدّة عمر. فقال عمر: لا تأتهم وحدك. قال أبو بكر: والله لآتينّهم وحدي، وما عسى أن يصنعوا بي! قال: فانطلق أبو بكر، فدخل على عليّ، وقد جمع بني هاشم عنده، فقام عليٌّ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثمّ قال: أمّا بعد، فإنه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر إنكارٌ لفضيلتك، ولا نَفاسَةٌ عليك بخيرٍ ساقه الله إليك، ولكنا كنّا

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٨٩.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٣٦.

نرى أنّ لنا في هذا الأمر حقاً، فاستبددتم به علينا. ثمّ ذكر قرابته من رسول الله وحقهم. فلم يزل عليٌّ يقول ذلك حتى بكى أبو بكر.

فلمّا صمت عليٌّ تشهّد أبو بكر. فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثمّ قال: أمّا بعدُ؛ فوالله لقرابة رسول الله أحبُّ إليّ أن أصل من قرابتي؛ وإني والله ما ألوت في هذه الأموال التي كانت بيني وبينكم غيرَ الخير؛ ولكنّي سمعت رسول الله يقول: «لا نورَث؛ ما تركنا فهو صدقة، إنما يأكل آل محمّد في هذا المال»؛ وإني أعوذ بالله لا أذكر أمراً صنعه محمّد رسول الله إلاّ صنعته فيه إن شاء الله.

ثمّ قال عليٌّ: موعدك العشيّة للبيعة. فلمّا صلّى أبو بكر الظّهْر أقبل على الناس، ثمّ عذر علياً ببعض ما اعتذر، ثمّ قام عليّ فعظّم من حق أبي بكر، وذكر فضيلته وسابقته، ثمّ مضى إلى أبي بكر فبايعه».

ثانياً – ردّة القبائل العربية

عندما انتشر خبر وفاة النبيّ ﷺ واستخلاف أبي بكر، قطعت قبائل عربية كثيرة علاقتها بالمدينة وارتدّت عن الإسلام.

وصفت عائشة أم المؤمنين بداية عهد أبي بكر بقولها: «توفي رسول الله ﷺ، فلو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بأبي لهاضها، اشرأب النفاق بالمدينة، واتدّت العرب».(١)

كما وصف جرجي زيدان ببلاغة وإيجاز أول عهد أبي بكر إذ كتب:(٢)

«تسلّم أبو بكر الخلافة والإسلام في غاية الاضطراب بسبب الردّة التي أشرنا إليها، ومن أسبابها أنّ بعض القبائل دانت للإسلام ولم يتمكّن الإسلام من عقولهم وقلوبهم. فلمّا مات النبيّ تبادر إلى أذهانهم أنّ الدعوة إلى النبوّة أمر هيّن وظنّوا أنفسهم يستعينون على تأييد دعواهم بقبائلهم وهي أكثر رجالاً من قريش، فكيف يستطيع هؤلاء

---

(١) بيضون وزكار، مرجع سابق، صفحة ٥٥ – والبلاذري، مرجع سابق، ص ١٣٢.

(٢) زيدان، مرجع سابق، جزء ٣١، ص ٦٥ – ٦٦.

السادة على جزيرة العرب كلّها وهم قليلون؟ فادّعى النبوّة غير واحد، وفيهم طليحة الأسدي من بني أسد، وسجاح التميمية من تميم، ومسيلمة من بني حنيفة من اليمامة، وغيرهم. واستعان كلّ منهم بقبيلته وأنصاره، فدعا ذلك إلى اضطراب الأحوال في سائر القبائل، فمنهم من رفض الإسلام وتابع أولئك الدعاة. ومنهم من اكتفى بالامتناع عن أداء الزكاة. والزكاة من دعائم الإسلام الأوّلية، ولها شأن المال في الدولة، والمال ضروري لقيام الدول في كلّ زمان ومكان. وبعض العرب امتنعوا عن الزكاة لأنهم عدّوها من قبيل الأتاوة التي كانوا يدفعونها في جاهليتهم.

واشتدّ أمر الردّة واستفحل المرتدون، حتى حمل بعضهم على المدينة نفسها وهي عاصمة المسلمين، فهاجموها وكادوا يأخذونها لو لم يدافعهم أبو بكر دفاعاً جميلاً، وقد تصرّف في محاربة المرتدين تصرّف الرجل الحكيم الحازم، وبين يديه نخبة من القوّاد وأهل الحزم. فعقد لهم الألوية للقتال، وبلغ عدد ما عقده منها أحد عشر لواء عقدت لأحد عشر قائداً في جملتهم خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وعمرو بن العاص.

فلم تمض على ذلك سنتان حتى استتبّ الأمر لأبي بكر، وعاد الناس إلى ما كانوا عليه وسكنت الأحوال، فحوّل التفاتة إلى الشام والعراق اقتداء بما أراده النبي، فوجّه إليهما الجنود فجرت واقعة اليرموك الشهيرة سنة ١٣هـ. وكانت سبباً في فتح الشام، واشتدّ إزر المسلمين بها كما اشتدّ إزرهم بواقعة بدر الكبرى».

أهم حركتين مرتدتين كانتا:

- حركة الاسود العنسي في اليمن.
- حركة مسيلمة بن حبيب الكذّاب في بني حنيفة الذي ادعى النبوة.

كما يمكن تلخيص أنواع الارتداد بثلاثة أمور هي:

- ظهور أنبياء كذبة لحق بهم رجال قبائلهم.
- رغبة بعض القبائل بالعودة إلى حياة الجاهلية لتفرض نفوذها على مناطقها؛
- رفض بعض القبائل تأدية الزكاة.

وشملت حركة الردة مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية ما عدا مكّة والمدينة والطائف.

أما المرتدون، غير الاسود ومسيلمة، فكانوا:[1]

- طُليحة بن خويلد الأسدي الذي ادعى النبوة.

- عُيينة بن حصن الفزاري.

- قُرة بن سلَمة القشيري في بني عامر وغطفان.

- الفُجاءة بن عبد يا ليل السلمي في بني سُليم.

- مالك بن نويرة في بني تميم.

- الأشعث بن قيس في بني كندة.

- سجاع التغلبية من بني تغلب التي قدمت شبه الجزيرة العربية من أرض الجزيرة بالعراق، وقيل انها تزوّجت مسيلمة الكذاب.

هذا إضافة إلى مرتدين من كلّ القبائل العربية.

وأول حادث حصل في بني فزارة إذ كان النبيّ ﷺ قد استعمل نوفل بن معاوية الديلمي على صدقات بني فزارة. وبينما كان نوفل متجهاً إلى المدينة لحقه «خارة بن حصن» مع مقاتلين من بني فزارة في مكان اسمه «الشَّرَبَّة» فأخذ ما معه من مال الصدقات.

وكان لدى أبي بكر جهاز عسكري ضخم ليس له أي منازع في شبه الجزيرة العربية، كان النبيّ ﷺ قد حضره وتدرّب قادته على يديه طيلة عشر سنين وشاركوا في معارك عديدة. وكان جيش المسلمين حسن التجهيز، جيد النظام، قوي العقيدة، يمكنه تنفيذ جميع المناورات العسكرية التي كانت معروفة يومذاك. لذلك قرّر أبو بكر التصدي لجميع حركات الارتداد عن الإسلام وإعادة إخضاع شبه الجزيرة العربية وقبائلها، رغم نصائح بعض معاونيه له بالتريث ومنهم عمر ابن الخطاب الذي سأله:

- «علام تقاتل الناس؟»

فأجاب الخليفة الراشدي الأول:

- «قد قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٠١ - ٢٣٣.
الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٥٧ - ٣٠٦.

وأن محمّداً رسول الله. فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاً بحقها».[١]

ثالثاً – إنفاذ جيش أسامة بن زيد إلى بلاد الشام

كان النبيّ ﷺ قد قرّر، قبل وفاته، إرسال جيش إلى بلاد الشام بقيادة أسامة بن زيد لمحاربة الروم، فتوفي النبيّ ﷺ من دون أن يسير الجيش في وقت ارتدّت القبائل العربية عن الإسلام وأصبح على أبي بكر إخضاع هذه القبائل كمهمّة أولية.

إلاّ أن أبا بكر قرّر إرسال جيش أسامة زعم ذلك لسببين، الأول عدم تغيير أمر أعطاه النبي ﷺ، وقد قال عن ذلك أبو بكر:

– «لو خطفتني الكلاب والذئاب، لم أردّ قضاء قضى به رسول الله».[٢]

والسبب الثاني هو إظهار تماسك الدولة الإسلامية رغم وفاة النبيّ ﷺ ورغم حركة الردة.

وبالفعل أعطى هذا الإصرار نتيجته، فكان الجند، كلّما مروا بحي من أحياء العرب قال هؤلاء: ما خرج هؤلاء من قوم إلاّ وبهم منعة شديدة.[٣]

وهكذا خرج أبو بكر إلى منطقة «الجرف» حيث معسكر جيش أسامة فودعه وأوصاه بوصية قبل المسير أصبحت تعطى لجميع جيوش المسلمين قبل التوجّه إلى الفتوحات الكبرى.

وجاء في وصية أبي بكر:[٤]

– «أيها الناس...

قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني:

لا تخونوا ولا تُغلّوا ولا تغدروا ولا تُمثّلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا [٥] نخلاً ولا تحرقوه ولا

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٠٨.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٤٦.

(٣) ابن كثير، المرجع نفسه، ص ٣٠١.

(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٤٦.

(٥) تعقروا: تقطعوا رؤوسها.

تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلاّ لمأكلة.

وسوف تمرون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له. وسوف تقْدِمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام. فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء، فاذكروا اسم الله عليها. وتلقون أقواماً قد فحصوا[1] أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسيف خفقاً.

اندفعوا باسم الله».

وسار جيش أسامة كما أمر النبيّ ﷺ وأوقع بقبائل قضاعة التي كانت قد ارتدّت، وأغار على آبل فنجح في غارته، وغنم غنائم كثيرة للمسلمين وانتهى من مهمّته في أربعين يوماً.[2]

وكان إنفاذ جيش أسامة أعظم الأمور نفعاً للمسلمين.

رابعاً – الدروس المستقاة

– كان لتصميم أبي بكر على حسم قضيتين عسكريتين أهمية كبرى في متابعة سير الدعوة الإسلامية بشكل يدعو إلى الإعجاب، وهما:

– إخضاع المرتدّين عن الإسلام،

– الإصرار على إرسال جيش أسامة بن زيد إلى بلاد الشام رغم حركة الردّة.

فبالنسبة لحركة الردة، قرّر أبو بكر إعادة إخضاع القبائل العربية المرتدّة رغم كثرتها ورغم نصائح بعض معاونيه له بالتريث في ذلك وسؤال عمر بن الخطاب له: «علام تقاتل الناس؟».

هذا القرار أنقذ الإسلام من التشتت والضياع ومن تعدّد الولاءات والشرزمة.

أما الاصرار على إنفاذ جيش أسامة بن زيد إلى الشام رغم الحاجة إليه في إخضاع المرتدّين، ففيه الكثير من سيكولوجية

(١) فحصوا: حلقوا شعر رؤوسهم.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٠٠.

القيادة، إذ أنه أفهم المرتدّين، وحتى القبائل العربية الأخرى، أن الدولة الإسلامية قوية وثابتة الدعائم. وهذا ما دفع بعددٍ من هذه القبائل إلى الامتناع عن مجاراة المرتدين بالخروج عن الدين الإسلامي.

ففي المبادىء الاستراتيجية، يُنصح القادة بعدم خوض الحرب على جبهات عدّة لأن ذلك يوزِّع الجهود ويضعف القوات المقاتلة. ولنا في التاريخ العسكري أمثلة عديدة عن دول وجيوش خاضت حروباً على جبهات عدّة فخسرت حروبها. وخير مثال على ذلك يأتي من خسارة المانيا خلال الحرب العالمية الثانية كونها كانت تحارب على جبهات عدّة أهمّها جبهات أوروبا الغربية وروسيا وشمال افريقيا.

إنما، ورغم خطورة الحرب على جبهتين، فقد رأى أبو بكر أن إهمال أي منهما قد يؤثّر سلباً على معنويات المسلمين وقد يدفع بالقبائل العربية إلى المزيد من حركات الارتداد عن الإسلام. واستند أبو بكر في تحقيقه لاستراتيجيته على عنصرين مهمّين:

- الأول هو مجموعة المقاتلين المسلمين المتحمّسين للدين الجديد والذين تحدوهم رغبات في تثبيته وإكمال نشره. وكان هؤلاء قد تمرّسوا على الأعمال الحربية في عهد النبي ﷺ.

- الثاني هم القادة الذين تدرّبوا على أيدي النبيّ ﷺ فأصبحوا متمرّسين على قيادة الوحدات العسكرية، وهم: خالد بن الوليد وخالد بن سعيد وعكرمة بن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة والعلاء بن الحضرمي وحذيفة بن محصن وسويد بن مقرن ومعن بن حاجز وعمرو بن العاص وعرفجة بن هرثمة والمهاجر بن أبي أمية.

وهكذا، كان الخليفة الراشدي الأول يملك آلة عسكرية قوية وثابتة وموحّدة اعتبرت أهم قوّة عسكرية عربية منذ الجاهلية. واستعمل أبو بكر هذه القوة بحنكة ودراية فنجح في إخضاع المرتدين وفي إعادة توحيد العرب تمهيداً للانطلاق في حركة الفتوحات الكبرى إلى الشام والعراق.

الفصل الخامس

إخضاع الأسود العنسي وطليحة الأسدي

قرّر أبو بكر التصدّي للمرتدّين مهما بلغت قوتهم ولأي قبيلة انتموا، وقد حاول بعض المرتدّين البقاء على الإسلام، إنّما دون تأدية الزكاة، فرفض الخليفة. وكان أكبر وفد قدم إلى المدينة لمحاولة التخلّص من الزكاة وفد بني أسد وغطفان وطيئ الذين قابلوا أبا بكر وطلبوا السماح لأفراده بإقامة الصلاة وعدم تأدية الزكاة، فرفض ذلك رغم محاولة بعض الصحابة تليين موقفه.

كتب ابن الأثير عن بداية الردّة:[١]

«قال عبدالله بن مسعود: لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاماً كدنا نهلك فيه لولا أن الله منّ علينا بأبي بكر أجمعنا على أن لا نقاتل على إبنة مخاض وابنة لبون؛ وأن نأكل قرى عربية ونعبد الله حتى يأتينا اليقين. فعزم الله لأبي بكر على قتالهم، فوالله ما رضيَ منهم إلاّ بالخطة المخزية أو الحرب المجلية. فأما الخطة المخزية فأنْ يُقِرُّوا بأنّ مَنْ قُتِل منهم في النار ومن قتل منا في الجنة، وأن ما أخذوا منا مردود علينا. وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم.

وأما أخبار الردة فإنه، لما مات النبيّ ﷺ وسيّر أبو بكر جيش أسامة، ارتدت العربُ وتضرمت الأرضُ ناراً وارتدتْ كلُّ قبيلة عامة أو خاصة إلاّ قريشاً وثقيفاً. واستغلظ أمر مسلمة وطليحة واجتمع على طليحة عَوامّ طيئ، وأسد وارتدّت غطفان تبعاً لعيينة بن حصن فإنه قال: «نبيٌّ من

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٠٥.

الحليفين - يعني أسداً وغطفان - أحبَّ إلينا من نبي من قريش. وقد مات محمّد ﷺ وطليحة حيٌ فاتبعه وتبعته غطفان، وقدمتْ رسلُ النبيِّ ﷺ من اليمامة وأسد وغيرهما وقد مات فدفعوا كتبهم لأبي بكر وأخبروه الخبر عن مسيلمة وطليحة فقال: لا تبرحوا حتى تجيء رسل أمرائكم وغيرهم بأدهى مما وصفتم. فكان كذلك وقدمت كتب أمراء النبيِّ ﷺ من كلِّ مكان بانتقاض العرب عامة وخاصة وتسلّطهم على المسلمين».

وقرّر أبو بكر محاربة المرتدين وإعادتهم إلى كنف الإسلام. واختار لذلك أبرز القادة وهم: خالد بن الوليد، عكرمة بن أبي جهل، المهاجر بن أبي أمية، شرحبيل بن حسنة، خالد بن سعيد، حذيفة بن محصن، عرفجة ابن هرثمة، سويد بن مقرن، العلاء بن الحضرمي، معن بن حاجز، عمرو بن العاص.(١)

أولاً - حركة الاسود العنسي

كان النبي ﷺ قد أقرّ «باذان» الذي كان عامل كسرى على بلاد اليمن بعد أن اعتنق الإسلام. وبعد موته سمّى عمّاله على اليمن وحضرموت فكانوا عشرة عمّال، وسمّى معاذ بن جبل معلماً للمسلمين في تلك البلاد.(٢)

وقبل وفاة النبي ﷺ بأربعة أشهر اعترض على هؤلاء العمال رجل أسود خرج من «كهف خبّان»(٣) اسمه «عبهلة بن كعب بن غوث» ولقبه «الأسود العنسي». وخرج من بلاده على رأس جيش من سبعماية فارس إضافة إلى المشاة وادّعى النبوءة، وغزا نجران فأخرج منها عمال المسلمين وسيطر على اليمن وحضرموت وصولاً إلى الطائف والبحرين والإحساء في عدن.

واستقرّ الاسود في صنعاء وجعلها عاصمة دولته بعد أن تزوّج زوجة شهر بن باذان

(١) عن الطبري، جزء ٢، وابن الأثير، جزء ٢، وابن كثير، جزء ٦.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٠١.
(٣) اسم بلد في اليمن.

الذي كان والي المسلمين على صنعاء وذلك بعد أن قاتله وقتله مع عدد كبير من رجاله.

كتب ابن الأثير واصفاً وضع اليمن في هذه المرحلة:(١)

«وكان أول من اعترض الأسود الكاذب شهر، وفيروز، وداذويه، وكان الأسود العنسي لما عاد رسول الله ﷺ من حجة الوداع وتمرض من السفر غير مرض موته بلغه ذلك فادعى النبوة، وكان مشعبذاً يريهم الأعاجيب، فاتبعته مَذحِج. وكانت ردة الأسود أول ردة في الإسلام على عهد رسول الله ﷺ. وغزا نجران، فأخرج عنها عمرو بن حزم، وخالد بن سعيد، ووثب قيس بن عبد يغوث بن مكشوح على فروة ابن مسيك، وهو على مراد فأجلاه ونزل منزله. وسار الأسود عن نجران إلى صنعاء، وخرج إليه شهر بن باذان فلقيه فقتل شهر لخمس وعشرين ليلة من خروج الأسود. وخرج معاذ هارباً حتى لحق بأبي موسى وهو بمأرب فلحقا بحضرموت. ولحق بفروة من تم على إسلامه من مَذحج، واستتب للأسود ملكُ اليمن، ولحق أمراء اليمن إلى الطاهر ابن أبي هالة إلاّ عمراً وخالداً فإنهما رجعا إلى المدينة، والطاهر [يومئذ] بجبال عك وجبال صنعاء. وغلب الأسود على ما بين مفازة حضرموت إلى الطائف إلى البحرين والإحساء إلى عدن، واستطار أمره كالحريق وكان معه سبعمائة فارس يوم لقي شهراً سوى الركبان. واستغلظ أمره، وكان خليفته في مذحج عمرو بن معد يكرب، وكان خليفته على جنده قيس بن عبد يغوث. وأمر الأبناء إلى فيروز وداذويه، وكان الأسود تزوّج امرأة شهر بن باذان بعد قتله، وهي ابنة عم فيروز. وخاف من بحضرموت من المسلمين أن يبعث إليهم جيشاً أو يظهر بها كذابٌ مثل الأسود فتزوّج معاذ إلى السكون فعطفوا عليه.

وجاء إليهم وإلى مَنْ باليمن من المسلمين كتابُ النبيّ ﷺ يأمرهم بقتال الأسود فقام معاذ في ذلك، وقويت نفوس المسلمين».

أبدى أشراف قبيلة «السكون» الاستعداد لمقاتلة الأسود العنسي بالاشتراك مع معاذ بن

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٠١ - ٢٠٢.

جبل الذي كان النبيّ ﷺ قد سماه معلّماً متنقلاً بين عماله في اليمن وحضرموت.

وأخذ معاذ يتصل بالمسلمين في المنطقة ويعلمهم بنيته في قتال الأسود الذي كان قد بدأ يسيء معاملة قادة جيشه ومعاونيه وخاصة قيس بن مكشوح وفيروز الديلمي وداذويه. فاجتمع معاذ بهؤلاء وقرروا مقاتلة الأسود وقتله ثمّ إعلان ذلك على المسلمين الذين تكون هذه إشارة لهم لمهاجمة رجال الاسود وتخليص اليمن منهم.

إتفق الثلاثة مع زوجة الأسود فدخل أحدهم عليه وقتله ورمى رأسه خارجاً وهو يؤذن قائلاً:

- «أشهد أن محمّداً رسول الله... وأن عبهلة كذّاب»، فأخذ المسلمون يطاردون رجال الأسود فيقتلونهم أو يأسرونهم.

وهكذا هزم جيش المرتدّين وعاد الإسلام إلى بلاد اليمن.[1]

أما تاريخ قتل الأسود، فلم يتفق المؤرّخون عليه، فمنهم من قال أنه قتل في الليلة التي سبقت وفاة النبي ﷺ. ومنهم من قال ان ذلك حصل صبيحة اليوم الذي توفي فيه النبيّ ﷺ.[2]

نقل الطبري رواية عودة المسلمين للسيطرة على اليمن، على لسان فيروز الديلمي، فكتب:[3]

«فلمّا أمسينا عملنا في أمرنا؛ وقد وطّأنا أشياعُنا، وعجلْنا عن مراسلة الهَمْدانيّين والحميَريِّين؛ فنقبنا البيت من خارج، ثمّ دخلنا وفيه سراج تحت جَفْنة؛ واتّقينا بفيروز، وكان أنجدنا وأشدّنا - فقلنا: أنظر ماذا ترى! فخرج ونحن بينه وبين الحرس معه في مقصورة؛ فلمّا دنا من باب البيت سمع غطيطاً شديداً وإذا المرأة جالسة. فلمّا قام على الباب أجلسه الشَّيْطان فكلّمه على لسانه - وإنه ليُغطّ جالساً. وقال أيضاً: مالي ولك يا فيروز! فخشيَ إن رجع أن يهلِك وتهلك المرأة، فعالجه فخالطه وهو مثل الجمَل؛ فأخذ برأسه فقتله؛ فدقّ عنقه، ووضع ركبته في ظهره فدقّه، ثمّ قام ليخرج،

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٠٤.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٥٠.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٥٠.

فأخذت المرأة بثوبه وهي ترى أنه لم يقتله، فقالت: أين تَدعُني! قال: أخبرُ أصحابي بمقتله. فأتانا فقمنا معه؛ فأردنا حزّ رأسه؛ فحرّكه الشيطان فاضطرب فلم يضبطه؛ فقلت: إجلسوا على صدره؛ فجلس اثنان على صدره، وأخذت المرأة بشعره وسمعنا بربرة فألجمته بمئلاة. وأمرَّ الشَّفْرة على حَلْقه فخار كأشدّ خُوار ثور سمعته قطّ، فابتدر الحرس الباب وهم حول المقصورة، فقالوا: ما هذا، ما هذا! فقالت المرأة: النبيّ يوحَى إليه! فخمد. ثمّ سمرنا ليلَتنا ونحن نأتمر كيف نخبرُ أشياعنا، ليس غيرنا ثلاثتنا: فيروز وداذويه وقيس؛ فاجتمعنا على النداء بشعارنا الذي بيننا وبين أشياعنا، ثمّ يُنادى بالأذان. فلما طلع الفجر نادى داذويه بالشعار، ففزع المسلمون والكافرون، وتجمّع الحرس فأحاطوا بنا، ثمّ ناديت بالأذان، وتوافت خيولهم إلى الحرس، فناديتهم: أشهدُ أن محمّداً رسول الله؛ وأن عَبهلة كذّاب! وألقينا إليهم رأسه، فأقام وَبَر الصلاة، وشنّها القوم غارةً، ونادينا: يا أهل صنعاء، من دخل عليه داخل فتعلّقوا به، ومن كان عنده منهم أحد فتعلّقوا به. ونادينا بمن في الطريق: تعلّقوا بمن استطعتم! فاختطفوا صبياناً كثيرين، وانتهبوا ما انتهبوا، ثمّ مضوا خارجين. فلمّا برزوا فقدوا منهم سبعين فارساً ركباناً؛ وإذا أهلُ الدّور والطُرق وقد وافونا بهم. وفقدنا سبعمائة عيِّل فراسلونا وراسلناهم أن يتركوا لنا ما في أيديهم، ونترك لهم ما في أيدينا؛ ففعلوا فخرجوا لم يظفروا منا بشيء؛ فتردَّدوا فيما بين صنعاء ونجران؛ وخلصت صنعاء والجَند، وأعزّ الله الإسلام وأهله؛ وتنافسْنا الإمارة؛ وتراجع أصحابُ النبيّ ﷺ إلى أعمالهم؛ فاصطلحنا على معاذ بن جبل، فكان يصلّي بنا. وكتبنا إلى رسول الله ﷺ بالخبر؛ وذلك في حياة النبيّ ﷺ. فأتاه الخبر مِنْ ليلته، وقدَمت رُسُلنا؛ وقد مات النبيّ ﷺ صبيحة تلك الليلة؛ فأجابنا أبو بكر رحمه الله».

ثانياً – طليحة الأسدي

كان طليحة بن خويلد، من قبيلة أسد، قد ادّعى النبؤة في حياة النبي ﷺ، فأرسل له النبيّ ﷺ ضراراً بن الأزور عاملاً على بني

أسد وأمرهم بمحاربة من ارتدَّ عن الإسلام، فضعف أمر طليحة.[1]

وبعد وفاة النبيّ ﷺ عاد طليحة إلى سيرته الأولى فارتدَّ وتبعه كثيرون من قبائل أسد وغطفان وطيئ وعبس وذبيان وغيرهم من العرب.

كتب ابن الأثير عن بداية ارتداد طليحة:[2]

«وكان طليحة بن خويلد الأسدي من بني أسد بن خزيمة قد تنبأ في حياة رسول الله ﷺ فوجّه إليه النبي ﷺ ضرار بن الأزور عاملاً على بني أسد وأمرهم بالقيام على من ارتدّ. فضعف أمر طليحة حتى لم يبق إلاّ أخذه، فضربه بسيف فلم يصنع فيه شيئاً فظهر بين الناس أن السلاح لا يعمل فيه، فكثر جمعه. ومات النبيّ ﷺ وهم على ذلك، فكان طليحة يقول: إنّ جبريل يأتيني وسَجَعَ للناس الأكاذيب. وكان يأمرهم بترك السجود في الصلاة ويقول: «إن الله لا يصنع بتعفر وجوهكم وتقبح أدباركم شيئاً. اذكروا الله اعبدوه قياماً» إلى غير ذلك.

وتبعه كثير من العرب عصبيةً، فلهذا كان أكثر أتباعه من أسد، وغطفان، وطيئ. فسارت فزارة وغطفان إلى جنوب طيبة، وأقامت طيئ على حدود أراضيهم، وأسد بسُميراء، واجتمعت عبس وثعلبة بن سعد ومرة بالأبرق من الربذة، واجتمع إليهم ناس من بني كنانة. فلم تحملهم البلاد فافترقوا فرقتين أقامت فرقة بالأبرق وسارت فرقة إلى ذي القَصة. وأمدّهم طليحة بأخيه حبال فكان عليهم وعلى من معهم من الدئل وليث ومدلج، وأرسلوا إلى المدينة يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة».

كما كتب الطبري عن ذلك أيضاً:[3]

«قال: حدّثنا سيْف – عن هشام بن عُروة، عن أبيه، قال: لما مات رسولُ الله ﷺ، وفَصَل أسامة ارتدّت العرب عوامٌّ أو خواصٌّ وتوحّى مسيلمة وطُليحة، فاستغلظ أمرهما؛

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٠٦.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٥٤.

واجتمع على طُليحة عوامُّ طيٍّء وأسد، وارتدّت غطفان إلى ما كان من أشجع وخواصّ من الأفناء فبايعوه. وقدّمت هوازن رجلاً وأخّرت رجلاً أمسكوا الصّدقة إلاّ ما كان من ثَقِيف ولِفّها؛ فإنهم اقتدى بهم عوّام جَديلة والأعجاز. وارتدّت خواصّ من بني سُليْم؛ وكذلك سائر الناس بكلّ مكان».

علم أبو بكر بتحرّكات طليحة، فقرّر التصدي لحركته ولغيرها من الحركات، لكنه انتظر عودة جيش أسامة من الشمال لتكليف أمرائه بإخضاع المرتدين.

أما طليحة، فإنه قام بغارة على المدينة ذكرها ابن كثير عندما كتب:(١)

«وقال القاسم بن محمد: اجتمعت أسد وغطفان وطيئ على طليحة الأسدي، وبعثوا وفوداً إلى المدينة، فنزلوا على وجوه الناس فأنزلوهم إلاّ العباس، فحملوا بهم إلى أبي بكر، على أن يقيموا الصلاة ولا يؤتوا الزكاة، فعزم الله لأبي بكر على الحق وقال: لو منعوني عقالاً لجاهدتهم، فردّهم فرجعوا إلى عشائرهم، فأخبروهم بقلّة أهل المدينة، وطمعوهم فيها. فجعل أبو بكر الحرس على أنقاب المدينة، وألزم أهل المدينة بحضور المسجد وقال: إن الأرض كافرة، وقد رأى وفدهم منكم قلّة، وإنكم لا تدرون ليلاً يأتون أم نهاراً، وأدناهم منكم على بريد، وقد كان القوم يؤملون أن نقبل منهم ونوادعهم وقد أبينا عليهم، فاستعدوا وأعدوا. فما لبثوا إلاّ ثلاثاً حتى طرقوا المدينة غارة، وخلفوا نصفهم بذي حُسًى ليكونوا رِدْءاً لهم. وأرسل الحرس إلى أبي بكر يخبرونه بالغارة، فبعث إليهم: أن الزموا مكانكم، وخرج أبو بكر في أهل المسجد على النواضح إليهم، فانفش العدو واتبعهم المسلمون على إبلهم، حتى بلغوا ذا حسًى فخرج عليهم الردء فالتقوا مع الجميع.

وفي جمادى الآخرة ركب الصديق في أهل المدينة وأمراء الأنقاب، إلى من حول المدينة من الأعراب الذين أغاروا عليها. فلمّا تواجه هو وأعداؤه من بني عبس، وبني مرة، وذبيان ومن ناصب معهم من بني كنانة، وأمدّهم طليحة بابنه حبال، فلما

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٠٩.

تواجه القوم كانوا قد صنعوا مكيدة وهي أنهم عمدوا إلى أنحاء فنفخوها ثمّ أرسلوها من رؤوس الجبال. فلما رأتها إبل أصحاب الصديق نفرت وذهبت كلّ مذهب، فلم يملكوا من أمرها شيئاً إلى الليل، وحتى رجعت إلى المدينة.

فلما وقع ما وقع ظن القوم بالمسلمين الوهن، وبعثوا إلى عشائرهم من نواحي أخر، فاجتمعوا. وبات أبو بكر رضي الله عنه قائماً ليله بعبىء الناس، ثمّ خرج على تعبئة من آخر الليل، وعلى ميمنته النعمان بن مقرّن، وعلى الميسرة أخوه عبدالله بن مقرن. وعلى الساقة أخوهما سويد بن مقرن، فما طلع الفجر إلاّ وهم والعدو في صعيد واحد، فما سمعوا للمسلمين حساً ولا همساً، حتى وضعوا فيهم السيوف، فما طلعت الشمس حتى ولوهم الأدبار، وغلبوهم على عامة ظهرهم، وقتل حبال. واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القصة، وكان أول الفتح، وذل بها المشركون، وعز بها المسلمون. ووثب بنو ذبيان وعبس على من فيهم من المسلمين فقتلوهم، وفعل من وراءهم كفعلهم. فحلف أبو بكر ليقتلن من كلّ قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة.

فكانت هذه الوقعة من أكبر العون على نصر الإسلام وأهله، وذلك أنه عزّ المسلمون في كلّ قبيلة، وذل الكفار في كلّ قبيلة، ورجع أبو بكر إلى المدينة مؤيداً منصوراً، سالماً غانماً. وطرقت المدينة في الليل صدقات عدي بن حاتم، وصفوان والزبرقان، إحداهما في أول الليل، والثانية في أوسطه والثالثة في آخره، وقدم بكلّ واحدة منهن بشير من أمراء الأنقاب. فكان الذي بشر بصفوان سعد بن أبي وقاص، والذي بشر بالزبرقان عبد الرحمن بن عوف، والذي بشر بعدي ابن حاتم عبدالله بن مسعود، ويقال: أبو قتادة الأنصاري رضي الله عنه. وذلك على رأس ستين ليلة من متوفى رسول الله ﷺ».

أ - قتال عبس وذبيان:

عن مقاتلة عبس وذبيان وانتصار المسلمين، كتب ابن كثير:[١]

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣١١.

«ثمّ قدم أسامة بن زيد بعد ذلك بليال، فاستخلفه أبو بكر على المدينة، وأمرهم أن يريحوا ظهرهم. ثمّ ركل أبو بكر في الذين كانوا معه، في الوقعة المتقدّمة، إلى ذي القصة، فقال له المسلمون: لو رجعت إلى المدينة وأرسلت رجلاً، فقال: والله لا أفعل، ولأواسينكم بنفسي. فخرج في تعبئته، إلى ذي حسّى وذي القصة، والنعمان وعبدالله وسويد بنو مقرن على ما كانوا عليه، حتى نزل على أهل الربذة بالأبرق وهناك جماعة من عبس وذبيان، وطائفة من بني كنانة، فاقتتلوا فهزم الله الحارث وعوفاً وأخذ الحطيئة أسيراً. فطارت بنو عبس وبنو بكر، وأقام أبو بكر على الأبرق أياماً وقد غلب بني ذبيان على البلاد وقال: حرام على بني ذبيان أن يتملّكوا هذه البلاد، إذ غنمناها الله وحمى الأبرق بخيول المسلمين، وأرعى سائر بلاد الربذة. ولّما فرّت عبس وذبيان صاروا إلى مؤازرة طليحة وهو نازل على بُزاخة».

ب - أبو بكر يرسل قادته لمحاربة المرتدين:

قرّر أبو بكر مقاتلة كلّ المرتدين، كما سبق القول. لذلك خرج إلى ذي القصة بعد ان عادت خيول أسامة من الشمال، وعقد ألوية إلى الأمراء الأحد عشر وأرسلهم لقتال المرتدين.

كتب ابن الاثير عن عقد الألوية للأمراء:(١)

فلمّا استراح أسامة وجنده قطع أبو بكر البعوث وعقد الألوية فعقد أحد عشر لواء، عقد لواء لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح إن أقام له. وعقد لعكرمة بن أبي جهل وأمره بمسيلمة. وعقد للمهاجر بن أبي أمية وأمره بجنود العنسي، ومعونة الأبناء على قيس بن مكشوح ومن أعانه من أهل اليمن عليهم، ثمّ يمضي إلى كندة بحضرموت. وعقد لخالد بن سعيد وبعثه إلى [الحمقتين من] مشارف الشام. وعقد لعمرو ابن العاص وأرسله إلى قضاعة. وعقد لحذيفة

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

ابن محصن الغلفاني وأمره بأهل دَبَا. وعقد لعرفجة بن هرثمة وأمره بمهرة، وأمرهما أن يجتمعا وكلّ واحد منهما على صاحبه في عمله. وبعث شرحبيل بن حَسَنة في أثر عكرمة بن أبي جهل وقال: إذا فرغ من اليمامة فالحق بقضاعة وأنت على خيلك تقاتل أهل الردة. وعقد لمعن بن جابر وأمره ببني سليم ومن معهم من هوازن. وعقد لسويد بن مُقَرِّن وأمره بتهامة باليمن. وعقد للعلاء بن الحضرمي وأمره بالبحرين. ففصلت الأمراء من ذي القصة ولحق بكلّ أمير جنده وعهد إلى كلّ أمير، وكتب إلى جميع المرتدين نسخة واحدة يأمرهم بمراجعة الإسلام ويحذّرهم، وسيّر الكتب إليهم مع رسله».

أما العهود التي كتبها أبو بكر لقادته فقد ذكرها الطبري، وهي توصيات تحدد استراتيجية التعامل مع المرتدين والتي أصبحت، في ما بعد، سابقة في الإسلام بالنسبة إلى الحالات المشابهة، فقد جاء فيها:[1]

«**بسم الله الرحمن الرحيم**. هذا عهدٌ من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال مَن رجع عن الإسلام، وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كلّه سرّه وعلانيته، وأمره بالجدّ في أمر الله، ومجاهدة مَنْ تولّى عنه، ورجع عن الإسلام إلى أمانيّ الشيطان بعد أن يُعذِر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام؛ فإن أجابوه أمسك عنهم، وإن لم يجيبوه شنّ غارته عليهم حتى يقرّوا له؛ ثمّ ينبئهم بالذي عليهم والّذي لهم، فيأخذ ما عليهم؛ ويعطيهم الذي لهم؛ لا يُنظرهم، ولا يردّ المسلمين عن قتال عدوّهم. فمن أجاب إلى أمر الله عزّ وجلّ وأقرّ له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف؛ وإنما يقاتل مَن كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله؛ فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيلٌ؛ وكان الله حسيبه بعد فيما استسرّ به. ومَن لن يجب داعية الله قُتِل وقوتل حيث كان؛ وحيث بلغ مراغمه، لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلاّ الإسلام؛ فمَن أجابه وأقرّ قبِل منه وعلّمه،

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٥٨ - ٢٥٩.

ومَنْ أبى قاتله؛ فإن أظهره الله عليه قتل منهم كلَّ قتلة بالسلاح والنيران، ثمَّ قسَّم ما أفاء الله عليه، إلاّ الخُمس فإنه يبلّغناه، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد، وألاّ يُدخل فيهم حَشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم؛ لا يكونوا عيوناً، ولئلاّ يؤتى المسلمون مِنْ قِبَلهم، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق في السير والمنزل ويتفقَّدهم، ولا يعجل بعضَهم عن بعض، ويستوصي بالمسلمين في حُسْن الصحبة ولين القول».

ج - القضاء على طليحة:

أمر أبو بكر خالداً بن الوليد بالتوجه إلى قبيلة طيئ[١] لقتالها، وبعد انتهائه منها يتجه نحو «بزاخة». وقد تظاهر خالد بأنه متجه نحو خيبر فلم تتحضر قبيلة طيئ لمواجهته.[٢] في الوقت نفسه أرسل أبو بكر عدي بن حاتم إلى قبيلته لإقناعها بعدم مجابهة المسلمين.

خرج خالد على رأس جيش من أربعة آلاف مقاتل وسلك طريق «أجأ» التي تقود إلى خيبر ثم انعطف شمالاً نحو قبيلة طيئ التي كان عدي بن حاتم قد تمكّن من إقناع قادتها بعدم مقاتلة المسلمين. وقد ندم هؤلاء على تورّطهم مع طليحة وقرّروا العودة إلى الإسلام، لكنهم استمهلوا عدياً ثلاثة أيام ريثما يعود رجالهم الذين أرسلوهم إلى طليحة في «بزاخة» وذلك خوفاً من انتقامه منهم إذا علم بأنهم عادوا إلى الإسلام.[٣]

وبالفعل، وبعد ثلاثة أيام، صالح خالد قبيلة طيئ فالتحق بجيشه خمسمائة مقاتل منها.

وسار خالد باتجاه جديلة، وهم بطن من طيئ تمكّن عدي أيضاً من إقناعهم بإطاعة خالد ففعلوا،[٤] وقدّموا لخالد خمسمائة مقاتل آخر. وهكذا أصبح قوام جيش خالد خمسة آلاف مجاهد.

---

(١) في شمال المدينة المنوّرة.

(٢) هذه الخدعة تعتبر خدعة استراتيجية إي إيهام العدو بالقيام بشيء وصنع عكسه.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٠٨.

(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٦٠.

- **معركة بُزاخة:**

بعد ذلك اتجه خالد بجيشه نحو «بزاخة» حيث طليحة وجيشه. وطلب عدي من خالد أن يكون جند طيئ في طليعة المقاتلين، لكن خالداً أقنعه بوضع عناصر الأنصار في الطليعة لأن لهم جلد أكبر على القتال.

والتقى الجيشان في «بزاخة»، فأعطى خالد أمره بالهجوم العام فشنّ المسلمون هجوماً كاسحاً على طليحة وجيشه واعملوا السيوف فيهم، فدارت معركة شرسة صمد فيها الجانبان إلى أن انهزم طليحة وولّى هارباً بعد أن انسحب من جيشه بنو فزارة وعددهم سبعمائة مقاتل، ثمّ رمى المرتدون السلاح وأعلنوا توبتهم أمام خالد.

أما طليحة فهرب إلى مكان يقال له «النقع» على حدود الشام ونزل بحماية بني كلب.

وبعد أن كتب للخليفة يعلمه بالنصر، أقام خالد في بزاخة شهراً يلاحق فلول المرتدين ويقتل كلّ رجل قتل مسلماً.

وهكذا قضى خالد بن الوليد على حركة طليحة بن خويلد الأسدي.

كتب ابن الأثير عن الحرب ضد طليحة:(١)

«ولمّا انهزمت عبس وذبيان ورجعوا إلى طليحة ببزاخة أرسل إلى جديلة والغوث من طيئ يأمرهم باللحاق به فتعجل إليه بعضهم وأمروا قومهم باللحاق بهم فقدموا على طليحة. وكان أبو بكر بعث عديّ بن حاتم قبل خالد إلى طيئ واتبعه خالداً وأمره أن يبدأ بطيىء، ومنهم يسير إلى بزاخة ثم يثلث بالبطاح ولا يبرح إذا فرغ من قوم حتى يأذن له. وأظهر أبو بكر للناس أنه خارج إلى خيبر بجيش حتى يلاقي خالداً يرهب العدو بذلك. وقدم عدي على طيئ فدعاهم وخوّفهم فأجابوه، وقالوا له: استقبل الجيش فأخِّرْه عنا حتى نستخرج مَنْ عند طليحة منا لئلا يقتلهم فاستقبل عدي خالداً [وهو بالسنح] وأخبره بالخبر فتأخّر خالد، وأرسلت طيئ إلى أخوانهم عند طليحة، فلحقوا بهم فعادت طيئ إلى خالد بإسلامهم. ورحل

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

خالد يريد جديلة فاستمهله عدي عنهم، وخق بهم عدي يدعوهم إلى الإسلام فأجابوه، فعاد إلى خالد بإسلامهم ولحق بالمسلمين ألف راكب منهم، وكان خير مولود [ولد] في أرض طيئ. وأعظمه بركة عليهم.

وانصرف بهم خالد نحو طيئ فقال له طيئ: نحن نكفيك قيساً فإنّ بني أسد حلفاؤنا، فقال: قاتلوا أيّ الطائفتين شئتم. فقال عدي بن حاتم: لو نزل هذا على الذين هم أسرتي الأدنى فالأدنى لجاهدتهم عليه، والله لا أمتنع عن جهاد بني أسد لحلفهم. فقال له خالد: إنّ جهاد الفريقين جهاد، لا تخالف رأي أصحابك وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط. ثمّ تعبىء لقتالهم ثمّ سار حتى التقيا على بُزاخة وبنو عامر قريباً يتربّصون على من تكون الدائرة؛ قال: فاقتتل الناس على بزاخة، وكان عيينة بن حصن مع طليحة في سبعمائة من بني فزارة، فقاتلوا قتالاً شديداً وطليحة متلفف في كسائه يتنبأ لهم. فلمّا اشتدّت الحرب كرّ عيينة على طليحة، وقال له: هل جاءك جبريل بعد؟ قال لا. فرجع فقاتل ثمّ كرّ على طليحة فقال له: لا أبالك، أجاءك جبريل؟ قال: لا. فقال عيينة: حتى متى؟ قد والله بلغ منا.

ثمّ رجع فقاتل قتالاً شديداً ثمّ كرّ على طليحة فقال: هل جاءك جبريل؟ قال: نعم. قال: فماذا قال لك؟ قال قال لي: إن لك رحى كرحاه وحديثاً لا تنساه. فقال عيينة: قد علم الله أنه سيكون حديثٌ لا تنساه، انصرفوا يا بني فزارة فإنه كذّاب. فانصرفوا وانهزم الناس. وكان طليحة قد أعد فرسه وراحلته لامرأته النوار، فلمّا غشوه ركب فرسه وحمل امرأته ثمّ نجا بها وقال: يا معشر فزارة مَنْ استطاع أن يفعل هكذا وينجو بامرأته فليفعل.

ثمّ انهزم فلحق بالشام، ثمّ نزل على كلب فأسلم حين بلغه أن أسداً وغطفان قد أسلموا ولم يزل مقيماً في كلب حتى مات أبو بكر، وكان خرج معتمراً [في إمارة أبي بكر] ومرّ بجنبات المدينة فقيل لأبي بكر: هذا طليحة. فقال: ما أصنع به قد أسلم.

ثمّ أتى عمر فبايعه حين استُخلف فقال له: أنت قاتل عكاشة وثابت والله لا أحبك أبداً. فقال: يا أمير المؤمنين ما يهمّك من رجلين أكرمهما الله بيدي ولم يهني

بأيديهما. فبايعه عمر وقال له: [يا خدع] ما بقي من كهانتك؟ فقال: نفخة أو نفختان [بالكير] ثمّ رجع إلى قومه فأقام عندهم حتى خرج إلى العراق».

وأرسل خالد إلى الخليفة خُمس الغنائم التي غنمها من طليحة إضافة إلى الأسرى. أما طليحة، فقد عاد وأسلم في خلافة عمر بن الخطاب وكان من أبطال فتح بلاد فارس.

د - الدروس المستقاة:

١ - كانت حركة الأسود العنسي خطرة على المسلمين كونه سيطر على اليمن وحضرموت والبحرين والطائف والاحساء وأعلن قيام دولة مستقلّة وقاتل المسلمين في اليمن وتغلّب عليهم. كما أنه ادّعى النبوءة فاتبعته قبيلة مذحج. وكانت ردّته قد بدأت على عهد رسول الله ﷺ.

٢ - لكن الأسود أساء معاملة قادة جيشه الذين انقلبوا عليه وقتلوه. ثمّ أخذ المسلمون يطاردون رجاله فيقتلونهم أو يأسرونهم. وهكذا تمّت هزيمة المرتدّين في اليمن.

لقد أخطأ الأسود في معاملة معاونيه. فبدلاً من أن يحفّزهم للقتال إلى جانبه، دفعتهم معاملته لهم إلى الخروج عن طاعته والتآمر ضده وقتله. فالقائد الذي لا يحترمه جنوده لا يمكنه ربح المعركة. ومن المعروف أن القادة العسكريين الكبار الذين برزوا في التاريخ العسكري هم الذين سُجل تعلّق جنودهم ومعاونيهم بهم وولاؤهم الثابت لهم.

٣ - أما طليحة، فكان قد ارتد في عهد النبي ﷺ مدعياً النبوّة، ثمّ عاد وارتدّ بعد وفاة النبيّ ﷺ وتبعته قبائل عدّة. وجاءت خطورة حركته في أنه حاول التغيير في ممارسات الإسلام كالسجود والصلاة، كما أنه شنّ غارة على المدينة، لكنها فشلت.

٤ - طبّق أبو بكر، في قتاله لطليحة، مبدأ الحرب الثاني أي «حرية العمل» فقام بمفاجأته بعد سير ليلي صامت فانتصر عليه ووضع السيف في اتباعه.

٥ - وفي القتال ضد قبيلتي عبس وذبيان، قاد الخليفة بنفسه جيش المسلمين، الأمر الذي حفّزهم للقتال ولمزيد من الجهاد في سبيل الدين. فالقائد الذي يعطي المثل الصالح لجنوده ويقودهم بنفسه ويسير في مقدّمة جموعهم، يجعلهم متحمّسين للقتال، الأمر الذي يساهم في النصر على العدو.

لقد سجّل التاريخ العسكري أمثلة عديدة عن قادة كبار كانوا دائماً على رأس مقاتليهم فسجلوا انتصارات رائعة في معاركهم، ومنهم خالد بن الوليد والاسكندر المقدوني وهنيبعل.

٦ - ثمّ عقد أبو بكر الألوية لأحد عشر قائداً، ووجههم لقتال المرتدين بعد أن زوّدهم بأوامر واضحة حدّد فيها العدو لكلّ منهم وطريقة القتال. وهدفت الأوامر الواضحة إلى عدم قيام أي قائد بتصرّفات قد تسيء إلى الإسلام. فالقائد العام الناجح يحدد في أوامره جميع تفاصيل التنفيذ بشكل لا يُترك معه أي مجال للتأويل أو لعدم فهم روح المهمّة المكلّف بملاحقتها. وكلّما كانت الأوامر أوضح وأكثر تفصيلاً، كلّما جاء التنفيذ أكثر انضباطاً وتقيّداً بالأصول العملانية.

وبالفعل، فإن استراتيجية التعامل مع المرتدّين التي حدّدها أبو بكر لأمرائه، دخلت لاحقاً في تقاليد الحملات الإسلامية وطبقها القادة المسلمون فأصبحت ضمن تراثهم العسكري الحافل بالانتصارات.

٧ - تظاهر خالد بأنه يقصد خيبر فيما كان يخطّط لمفاجأة قبيلة طيئ التي لم تتحضّر لمواجهته. وهكذا أحسن خالد الاستفادة من المفاجأة مطبّقاً مبدأي الحرب الثاني (حرية العمل) والثالث (الحصيل الأقصى للوسائل). وهذا ما أقنع قبيلة طيئ بعدم مواجهة الجيش الإسلامي فعادوا عن ردّتهم دون قتال فحقنت دماء المسلمين، والتحق بجيش خالد ألفٌ من مقاتليهم. كما أحسن خالد تطبيق قاعدة «التهديد بالقوة كي لا تضطر لاستعمالها»، خاصة وأن القتال ضد المرتدين كان يهدف إلى إعادتهم لاعتناق الدين الإسلامي مع حقن دماء المسلمين، وليس إلى تدمير المرتدين وقتلهم.

٨ - خلال معركة بزاخة، رفض خالد وضع جند طيئ في مقدّمة جيشه بسبب عدم ثقته التامة بهم، وفضّل تكليف عناصر الأنصار بالمهمّة الأساسية في القتال. وهكذا وضع العنصر المناسب في المكان المناسب. فالقائد الذي يعرف إمكانات جنوده يتمكّن من تطبيق مبدأ الحرب الثالث أي «الحصيل الأقصى للوسائل» إذ أنه ينال أكبر قدر من الإنتاجية من عناصر جيشه.

٩ - أحسن خالد أيضاً تطبيق استراتيجية «استغلال النصر». فبعد أن أعمل السيف في رقاب المرتدّين، أقام شهراً كاملاً في منطقة العمليات كان خلاله يلاحق فلولهم حتى قضى عليهم نهائياً. واستغلال النصر هو مرحلة من مراحل القتال يعمد خلالها الجيش إلى ملاحقة مفارز أعدائه المنهزمين بقصد القضاء عليهم ومنعهم من إعادة تجميع قواتهم تمهيداً لعمليات لاحقة.

الفصل السادس
إخضاع المرتدين

كتب الخليفة أبو بكر إلى خالد بن الوليد بعد انتصاره على طليحة:

«ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً. واتق الله في أمرك. فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. جدَّ في أمر الله ولا تَنَيَنً. ولا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ونكّلت به غيره. ومن أحببت من حادّ الله أو ضادّه ممن ترى أن في ذلك صلاحاً فاقتله».

وتابع خالد والقادة الآخرون ملاحقة المرتدين.

أ - قتال الفجاءة:

بعد خروج جيوش المسلمين من المدينة أتى إليها «إياس ابن عبد عميرة بن خفاف المعروف بـ«الفجاءة» وادعى أنه يريد قتال المرتدين وطلب جنداً وسلاحاً، فأعطاه الخليفة السلاح والخيل وعزّزه بعشرة من الرجال المسلمين.[1]

انطلق الفجاءة من المدينة وسيطر على بقعة من الأرض جعلها مقرّاً له واستقطب أهل الفساد وراح يحارب المسلمين بعد أن قتل العشرة الذين عززه بهم الخليفة. لكن نهايته رواها الطبري فكتب:[2]

«قال أبو جعفر: وأمّا ابنُ حُميد؛ فإنه حدّثنا في شأن الفُجاءة عن سلَمة، عن محمّد بن إسحاق، عن عبدالله بن

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٦٦.

(٢) المرجع نفسه.

أبي بكر، قال: قدِم على أبي بكر رجلٌ من بني سُلَيْم، يقال له الفجاءة؛ وهو إياس بن عبدالله بن عبد ياليل بن عميرة بن خُفاف، فقال لأبي بكر: إني مسلم وقد أردت جهاد مَن ارتدّ من الكُفّار، فاحملني وأعنّي؛ فحمله أبو بكر على ظَهْر، وأعطاه سلاحاً، فخرج يستعرض الناس: المسلِم والمرتدّ، يأخذ أموالهم، ويصيب من امتنع منهم؛ ومعه رجلٌ من بني الشَّريد، يقال له: نجبة ابن أبي الميْثاء. فلمّا بلغ أبا بكر خبرُه، كتب إلى طريفة بن حاجز: إنّ عدوّ الله الفجاءة أتاني يزعمُ أنه مسلم، ويسألني أن أقوّيه عَلى من ارتدّ عن الإسلام، فحملته وسلّحته. ثمّ انتهى إليّ من يقين الخبر أنّ عدوّ الله قد استعرض الناس: المسلم والمرتد يأخذ أموالهم، ويقتل مَن خالفه منهم، فسرْ إليه بمن معك من المسلمين حتى تقتله، أو تأخذه فتأتيَني به. فسار طُريفة بن حاجز، فلمّا التقى الناس كانت بينهم الرِّمِّيَّا بالنّبل، فقُتل نجبة بن أبي الميثاء بسهم رُمي به. فلمّا رأى الفجاءة من المسلمين الجِدّ قال لطُريفة: والله ما أنت بأوْلى بالأمر منّي، أنت أميرٌ لأبي بكر وأنا أميره. فقال له طريفة: إن كنت صادقاً فضع السلاح، وانطلق معي إلى أبي بكر. فخرج معه، فلما قدما عليه أمر أبو بكر طُريفَة بن حاجز، فقال: اخرج به إلى هذا البَقيع فحرِّقه فيه بالنار؛ فخرج به طُريفة إلى المصلّى فأوقد له ناراً».

ب - قتال أم زمل:

اجتمعت فلول من أسد وغطفان وطيئ وسُليم وهوازن حول امرأة شديدة البأس تدعى «أم زمل»، أعلنت عصيانها. فسار إليها خالد وقاتلها قتالاً شديداً وقتلها مع مائة من أتباعها. نقل ابن الأثير رواية قتال خالد لها فكتب:(١)

«وأما أم زِمل فاجتمع فلال غطفان، وطيئ، وسليم، وهوازن وغيرها إلى أم زمل سلمى بنت مالك بن حذيفة بن بدر وكانت أمها أم قِرفة بنت ربيعة بن بدر. وكانت أم زمل قد سبيت أيام أمها أم قِرفة، وقد تقدّمت الغزوة. فوقعت لعائشة فأعتقتها،

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢١١.

ورجعت إلى قومها وارتدّت؛ واجتمع إليها الفل فأمرتهم بالقتال وكثف جمعها وعظمت شوكتها. فلمّا بلغ خالداً أمرها سار إليها فاقتتلوا قتالاً شديداً أول يوم، وهي واقفة على جمل كان لأمها وهي في مثل عزها. فاجتمع على الجمل فوارس فعقروه وقتلوها، وقتل حول جملها مائة رجل، وبعث بالفتح إلى أبي بكر».

ج - ردة هوازن وسليم وعامر:

كان علقمة بن عُلاثة قد أسلم ثمّ ارتد في زمن النبي ﷺ، ثمّ خرج بعد فتح الطائف إلى الشام. فلمّا توفي النبي عاد مسرعاً وعسكر في بني كعب. بلغ خبره أبا بكر الذي بعث إليه سريّة بقيادة القعقاع بن عمرو[1] وقال له:

- «يا قعقاع، تُغير على علقمة، لعلّك أن تأخذه أو تقتله».

فخرج في تلك السرية حتى أغار على الماء الذي عليه علقمة الذي فرّ أمامه. لكن القعقاع أسر أهله ونساءه وبناته الذين أسلموا، فقدم بهم على الخليفة. ثمّ أسلم علقمة.[2]

أما قرة بن هبيرة من بني عامر، فقد ارتدّ واعتدى على المسلمين مع نفر من أصحابه. لذلك، لما جاء بنو عامر إلى أبي بكر لإعادة الدخول في الإسلام، قبلهم باستثناء قرّة وأصحابه الذين قتلهم.

كتب الطبري عن هذه الحادثة:[3]

«وأقبلت بنو عامر بعد هزيمة أهل بُزاخة يقولون: ندخل فيما خرجنا منه؛ فبايعهم على ما بايع عليه أهل البُزاخة من أسَد وغَطَفان وطيئ قبلهم، وأعطوه بأيديهم على الإسلام. ولم يقبل من أحد من أسد ولا غطَفَان ولا هوازن ولا سُليم ولا طيئ إلاّ أن يأتوه بالذين حَرّقوا ومثّلوا وعدوا على أهل

(١) من فرسان العرب المشهورين والذي لعب دوراً مهماً في معركة القادسية إذ ساهم في قتل الفيل الكبير الأبيض - وهذا ما سنفعله عند الكلام عن القادسية.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٦٤.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٦٥.

الإسلام في حال ردّتهم. فأتوه بهم، فقبل منهم إلاّ قرة بن هُبيرة ونفراً معه أوثقهم، ومثّل بالذين عَدَوْا على الإسلام، فأحرقهم بالنيران ورضَخهم بالحجارة، ورمى بهم من الجبال ونكسهم في الآبار، وخزَق بالنّبال. وبعث بقرّة وبالأسارى، وكتب إلى أبي بكر: إنّ بني عامر أقبلت بعد إعراض، ودخلت في الإسلام بعد تربّص؛ وإني لم أقبل من أحد قاتلني أو سالمني شيئاً حتى يجيئوني بمن عدا على المسلمين؛ فقتلتهم كلّ قتلة، وبعثت إليك بقرّة وأصحابه».

د - بنو تميم وسجاح بنت الحارث:

كانت بنو تميم قد اختلفت آراؤهم أيام الردّة، فمنهم من ارتدّ، ومنهم من بعث بأموال الصدقات إلى الخليفة، ومنهم من تريث لينظر في أمره.(١)

وفيما بنو تميم على تلك الحال من الانقسام، وصلت إلى تخوم أحيائهم امرأة نصرانية من بني تغلب يقال لها سجاح ادّعت النبوءة، وهي بنت الحارث بن سويد ابن عقفان، وقد التف حولها قومها وكبر جيشها فصممت على غزو المدينة المنوّرة وقتال أبي بكر فيها.

ولمّا وصلت إلى منازل بني تميم، دعتهم للانضمام إليها فاستجاب لها عدد كبير منهم بينهم مالك بن نويرة الذي كان قد ارتدّ عن الإسلام. ثمّ اتفقت سجاح مع مسيلمة الكذاب الذي قيل إنه تزوّجها.(٢)

إلاّ أنها، وحين بلغها دنو خالد بن الوليد وجيشه من أرض اليمامة عادت إلى الجزيرة في أرض العراق بعدما قبضت من مسيلمة نصف خراج أرضه، فأقامت في قومها بني تغلب حتى أيام معاوية الذي أجلاهم عن أرضهم كما سيأتي الحديث لاحقاً.

هـ - الدروس المستقاة:

١ - وقع الخليفة بحبائل الفجاءة فزوّده بالأسلحة والخيول وعزّزه بعشرة مقاتلين من المسلمين بعد أن ادّعى أنه يريد محاربة المرتدّين. لكنه غدر بالمسلمين وقتل العشرة منهم وراح يحاربهم.

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣١٦ - ٣١٧.

(٢) ابن كثير، المرجع نفسه.

كان من الواجب التأكّد من حسن نية وصدق الفجاءة قبل الوثوق به لا سيما وأنه لم يكن من قادة المسلمين المعروفين.

لكن الفجاءة، ورغم ثقة الخليفة به، لم يحسن تقدير قوته ونتائج عمله خارقاً بذلك مبدأ الحرب الأول (نسبية الأهداف للوسائل)، إذ أنه اعتقد بإمكانية مقاومته لجيوش الخلافة القوية مّا أدّى إلى مقتله.

٢ - اجتمعت فلول من قبائل عدّة حول أم زمل التي قادت جموع الخارجين عن القانون في القتال ضد خالد بن الوليد الذي اضطر لخوض معركة قاسية ضدها. هذا رغم أن وضع المرأة في الجاهلية لم يكن يؤهّلها للقيام بدور القائد أو الرئيس لمجموعات من المقاتلين الرجال المتشربين بروح الجاهلية والذين يرفضون الانسياق وراء قائد من الجنس الضعيف.

كما أن التاريخ العسكري العالمي لم يسجل بروز قائد عسكري كبير من النساء. فمشاهير القادة هم من الرجال كهنيبعل والاسكندر وجنكيزخان وبونابرت وخالد بن الوليد وغيرهم، وذلك لأن الخدمة في الميدان تفرض على القائد العسكري، علاوة على قوّة تحمل المشقات، روحاً قتالية وقيادية نادرة.

٣ - في حملة القعقاع بن عمرو ضد علقمة المرتدّ، مارس القعقاع ضغطاً نفسياً ومعنوياً على علقمة من خلال أسر أهله ونسائه وبناته واعتناقهم الإسلام ديناً، الأمر الذي جعله يستسلم ويدخل أيضاً في دين الإسلام دون مقاومة. لذلك، تقوم مدارس تنشئة الضباط في الجيوش بتعريض تلامذتها لشتى أنواع الضغوط النفسية والمعنوية بهدف تحضيرهم لمقاومة هذه الضغوط وعدم الانهيار أمامها عند تعرّضهم للأسر.

لقد دخلت أساليب تعذيب تلامذة الضباط في تقاليد المدارس العسكرية إذ يقوم التلامذة القدماء بإساءة معاملة الجدد في إطار الاحتفالات التي يطلق عليها اسم «المعمودية». فالشاب الذي يجتاز امتحان الدخول إلى مدرسة الضباط بنجاح، لا يكون مؤهّلاً لقيادة الجند إلاّ بعد اجتيازه مراحل متعدّدة من التدريب العنيف والضغوط النفسية وسوء المعاملة والتعذيب

التي تهدف إلى تأهيله لتسلّم مقدرات عشرات من الجنود وقيادتهم أحياناً في حرب حقيقية مقابل عدو شرس لا يرحم.

فالقائد العسكري الشاب يملك سلطة قد لا يملكها القاضي، إذ أنه يرسل عناصره أحياناً في مهمّة قد تعرضهم للإصابة أو للوفاة. وعليهم ان ينفذوا أوامره دون مناقشة. إن هذه السلطة تفرض على القائد تحمّل مسؤوليات قيادية لا يمكن تحقيقها إلاّ من خلال التدريب القاسي والتنشئة المعنوية والنفسية الطويلة والحقيقية.

٤ - اعتمد أبو بكر العنف والقسوة ضد الذين غدروا بالمسلمين من بني عامر رغم إعلانهم توبتهم ورغبتهم في العودة إلى الإسلام. وقد يستغرب القارىء تصرف الخليفة الراشدي الأول. لكن استغرابه يزول إذا اعتبر أنّ هذا التصرّف القاسي شكّل رادعاً لباقي القبائل العربية منعها من العودة إلى الردّة عن الاسلام.

فالقائد يفرض أحياناً عقاباً صارماً على المخالفين من رجاله يتجاوز درجة المخالفة بهدف ردع باقي المرؤوسين عن ارتكاب مخالفات مماثلة. فالعقوبة التي يفرضها الرئيس ضد المذنبين تهدف إلى أمرين:

- الأول مجازاتهم عمّا ارتكبوه من ذنب.

- الثاني تشكيل رادع لجميع مرؤوسيه.

لذلك تعتمد الوحدات العسكرية قاعدة تعميم العقوبات التي يتعرّض لها بعض أفرادها على جميع عناصرها بقصد أخذ العبرة وعدم الوقوع في الأخطاء.

٥ - أحسنت سجاع بنت الحارث في تقدير قوتها بالنسبة لقوّة جيش خالد بن الوليد فانسحبت من اليمامة إلى أرض العراق تطبيقاً لمبدأ الحرب الأول (نسبية الأهداف للوسائل).

و - مالك بن نويرة:

بعد أن انتهى خالد من قتال طليحة، قرّر التوجّه لقتال مالك بن نويرة في مكان يُقال له «البطاح». وكان مالك قد ندم على ارتداده عن الإسلام.

فصّل ابن كثير خبر قتل خالد لمالك بعد عودته إلى الإسلام، لا سيما وأن جدلاً قام حول تصرّفه هذا، خاصّة بعد زواجه من

امـرأة مـالك. جـاءت روايـة ابـن كـثير كـما يلي:[١]

« - ندم مالك بن نويرة على ما كان من أمره، وتلوم في شأنه، وهو نازل بمكان يقال له: البطاح، فقصدها خالد بجنوده. وتأخّرت عنه الأنصار، وقالوا: إنا قد قضينا ما أمرنا به الصديق، فقال لهم خالد: إن هذا أمر لا بدّ من فعله، وفرصة لا بدّ من انتهازها، وإنه لم يـأتـنـي فـيـهـا كـتـاب، وأنا الأمير وإليّ تـرد الأخبار، ولست بالذي أجبركم على المسير، وأنا قـاصـد الـبطـاح. فسـار يـومين ثـمّ لحقـه رسول الأنصار يطلبون منه الانتظار، فلحقوا به؛ فلمّا وصل البطاح وعليها مالك بن نويرة، بثّ خالد السرايا في البطاح يدعون الناس، فاستقبله أمراء بني تميم بالسمع والطاعة، وبذلوا الزكوات، إلاّ ما كان من مالك بن نويرة فإنه متحيّر في أمره، متنح عن الناس. فجاءته السرايا فأسروه وأسروا معه أصحابه. واختلفت السرية فيهم، فشهد أبو قتادة - الحارث بن ربعي الأنصاري - أنهم أقاموا الصلاة، وقال آخرون: إنهم لم يؤذنوا ولا صلّوا. فيقال إن الأسارى باتوا كبولهم في ليلة شديدة البرد، فنادى منادي خالد: أن أدفئوا أسراكم، فظن القوم أنه أراد القتل، فقتلوهم، وقتل ضرّار بن الأزور مالك بن نويرة. فلما سمع الداعية خرج وقد فرغوا مـنـهـم، فـقـال: إذا أراد الله أمـراً أصـابـه. واصطفى خالد امرأة مالك بن نويرة، وهي أم تميم ابنـة المنـهال، وكانت جميلة، فلما حلّت بنى بها. ويقال: بل استدعى خالد مالك بن نويرة فأنّبه عل ما صدر منه من متابعة سجاح، وعلى منعه الزكاة، وقال: ألم تـعلم أنها قرينة الصلاة؟ فقال مالك: إن صـاحـبـكـم كـان يـزعـم ذلك، فـقـال: أهو صاحبنا وليس بصاحبك؟ يا ضرّار اضرب عنقه فضربت عنقه.

وقد تكلّم أبو قتادة مع خالد فيما صنع وتقاولا في ذلك حتى ذهب أبو قتادة فشكاه إلى الصديق. وتكلّم عمر مع أبي قتادة في خالد، وقال للصديق: اعزله فإن في سيفه

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣١٨ - ٣٠٩.

رهقاً. فقال أبو بكر لا أشيم[1] سيفاً سلّه الله على الكفار. وجاء متمم بن نويرة فجعل يشكو إلى الصديق خالداً، وعمر يساعده.

والمقصود أنه لم يزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحرض الصديق ويذمره على عزل خالد عن الأمرة ويقول: إن في سيفه لرهقاً، حتى بعث الصديق إلى خالد بن الوليد فقدم عليه المدينة، وقد لبس درعه التي من حديد، وقد صدىء من كثرة الدماء، وغرز في عمامته النشاب المضمخ بالدماء. فلمّا دخل المسجد قام إليه عمر بن الخطاب فانتزع الأسهم من عمامة خالد فحطمها، وقال: أرياء قتلت امرءاً مسلماً ثمّ نزوت على امرأته، والله لأرجمنك بالجنادل، وخالد لا يكلمه، ولا يظن إلاّ أن رأي الصديق فيه كرأي عمر، حتى دخل على أبي بكر فاعتذر إليه فَعَذره وتجاوز عنه ما كان منه في ذلك وودى[2] مالك بن نويرة»[3].

- تقييم قضية مقتل مالك بن نويرة:

١ - خلال توجهه لقتال مالك بن نويرة، رفض القائد خالد بن الوليد تبلّغ أمرٍ بواسطة

---

(١) اشيم: أغمد.

(٢) ودى أي دفع الدية.

(٣) تضاربت الآراء حول إسلام مالك أو بقائه على الردة. ففي رواية للعقاد في كتابه «عبقرية خالد» ص ٩٤ - ٩٥، جاء ما يلي:

«تضطرب الروايات في نقل حديثهما (أي حديث خالد ومالك) فلا يدرى له نص صحيح. فقيل ان مالكاً صرح بأنه لا يعطي الزكاة وإنما يقيم الصلاة، فقال خالد: أما علمت ان الصلاة والزكاة معاً لا تقبل واحدة دون الأخرى؟ فقال مالك: قد كان صاحبك (ويقصد النبي ﷺ) يقول ذلك. فقال خالد: أوما تراه لك صاحبا؟... ثمّ حمي الجدل بينهما حتى أمر بقتله»... ويتابع العقاد فيقول: «ونسجت الخرافة بعد ذلك نسيجها الذي لا يتماسك لوهيه... وقيل ان مالكاً لمح في عيني خالد الإعجاب بامرأته فصاح به: هذه التي قتلتني، فقال له خالد: بل الله قتلك برجوعك عن الإسلام... وقيل ان خالداً توعّد مالكاً بالقتل فقال له مالك: أوبذلك أمرك صاحبك؟ قال خالد: وهذه بعد تلك؟ (يقصد صاحبك» الأولى). ثمّ تكلّم أبو قتادة الانصاري وعبدالله بن عمر في أمره، فكره خالد كلامهما. وعاد مالك يقول له: يا خالد، ابعثنا إلى أبي بكر فيكون هوالذي يحكم فينا، فقال خالد: لا أقالني الله إن أقلتك، وتقدّم إلى ضرار بن الازور أن يضرب عنقه». =

مرؤوسيه الذين قال لهم: «أنا الأمير واليّ ترد الأخبار».

لقد أحسن خالد بردّة فعله إذ أن القائد يتبلّغ الأوامر الجديدة من رئيسه وليس بواسطة مرؤوسيه. فاحترام التراتبية في الجيوش يساهم في تدعيم سلطة القادة وبالتالي في قوّة هذه الجيوش ومنعتها.

وقد يعمد القائد العام أحياناً إلى ضرب التراتبية في جيشه بعرض الحائط متصلاً بالضباط من الرتب الدنيا دون المرور بقائد الوحدة الكبرى التي إليها ينتمون، ويوجه إليهم أوامر ينفذونها دون إعلام رئيسهم المباشر، مما يجرّ إلى كوارث عسكرية حقيقية. وهذه المخالفات تحصل غالباً خلال الحروب أو الأزمات المسلّحة.

حالياً، تُنشأ في القيادة الكبرى غرف عمليات توجّه الأوامر عبرها وترد الإفادات والمعلومات إليها فتحولها إلى القائد المسؤول لمعالجتها.

٢ - تعدّدت الروايات حول مقتل مالك ابن نويرة بعد أن عاد إلى الإسلام واستسلم. ومهما يكن من أمر، أخطأ القائد خالد بن الوليد خلال هذه الحادثة في أمرين:

- الأول، قتل مالك بعد استسلامه وسجنه في وحدة عسكرية هو قائدها. فالقائد مسؤول عن تصرّفات عناصره حتى ولو نفذها هؤلاء دون علمه أو دون أمر منه.
- الثاني، زواجه من أرملة مالك بعد مقتله في وقت وجهت أصابع الاتهام بشأنه إليه.

فللقادة الكبار أخطاء كبار، وخالد واحد من هؤلاء.

= وفي رأينا أن الرواية التي وردت على لسان ابن الأثير هي الرواية الصحيحة، إذ ان ما عرف عن خالد من رجاحة في العقل وحكمة لا يسمح بقبول بقية الروايات التي صدق العقاد في وصفها بأنها من نسج الخرافة «الذي لا يتماسك لوهيه».

ونلفت النظر، في هذا المجال، إلى رواية عن البلاذري في كتابه (فتوح البلدان) ان سرية عليها ضرار بن الازور الاسدي لقيت مالكاً وجماعة، فاقتتلوا وأسر ضرار مالكاً وجماعة معه، «فأتى بهم خالداً، فأمر بهم فضربت أعناقهم، وتولى ضرار ضرب عنق مالك».

ز - يوم اليمامة ومسيلمة الكذاب:

اعتبرت ردّة بني حنيفة في اليمامة من أقوى الردات العربية عن الإسلام بسبب كثرة الذين تبعوا مسيلمة الكذاب الذي استطاع أن يجمع جيشاً قوامه أربعون ألف مقاتل.

ومسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث سيد بني حنيفة كان قد ادّعى النبوءة في حياة النبي ﷺ وطلب منه أن يترك له الأمر بعده. فزجره النبي ﷺ يومذاك.

ولّما توفي النبي ﷺ ارتدّ مجدداً عن الإسلام مع قبيلته،[1] وأخذ يتظاهر بنزول الوحي عليه محللاً لاتباعه الخمر والزنا ومعفيهم من الصلاة والزكاة - لذلك تبعه كثيرون.

وبدأ مسيلمة، بمساعدة مستشارية، بتحضير الناس للقتال وبتجهيز جيش كبير يرهب به العرب ويسيطر على شبه الجزيرة العربية.

وكان أبو بكر، عندما أرسل أمراء الجيوش لقتال المرتدين، قد كلّف عكرمة بن ابي جهل بالسير لقتال بني حنيفة ومسيلمة شرط أن ينتظر المدد المرسل لمساعدته بقيادة شرحبيل بن حسنة. «وأمرهما أن يتلاقيا ولا ينفردا بالهجمة على اليمامة».[2]

لكن عكرمة رأى أن يستأثر بالنصر، فهاجم مسيلمة قبل أن يصل جيش شرحبيل إلى ميدان المعركة. لذلك هزمه مسيلمة. وعندما بلغ شرحبيل هزيمة عكرمة توقف في منتصف الطريق وطلب إمداده قبل استئناف المعركة، فأمره الخليفة بالتوقف حيث هو حتى يأتيه أمره.

كتب ابن كثير عن مجرى الأحداث المذكورة أعلاه:[3]

«لما رضي الصديق عن خالد بن الوليد وعذره بما اعتذر به، بعثه إلى قتال بني حنيفة باليمامة، وأوعب معه المسلمون، وعلى الأنصار ثابت بن قيس بن شماس، فسار لا

(١) ابن الاثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢١٨ - ٢١٩.

(٢) العقاد، عباس محمود، عبقرية خالد، دار الهلال، القاهرة، ص ٨٩.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣١٩.

يمر بأحد من المرتدين إلاّ نكل بهم. وقد اجتاز بخيول لأصحاب سجاح فشردهم وأمر بإخراجهم من جزيرة العرب، وأردف الصديق خالداً بسرية لتكون رداءاً له من ورائه. وقد كان بعث قبله إلى مسيلمة عكرمة ابن أبي جهل، وشرحبيل بن حسنة، فلم يقاوما بني حنيفة، لأنهم في نحو أربعين ألفاً من المقاتلة، فعجل عكرمة قبل مجيء صاحبه شرحبيل، فناجزهم فنكب، فانتظر خالداً. فلما سمع مسيلمة بقدوم خالداً، عسكر بمكان يقال له: عقربا في طرف اليمامة والريف وراء ظهورهم، وندب الناس وحثهم، فحشد له أهل اليمامة».

إلا أن شرحبيل عاد وتابع سيره من دون أن ينتظر خالداً وفعل فِعل عكرمة، فالتقى بجيش مسيلمة وقاتله، فهزمه مسيلمة، ولامه خالد على تسرّعه.[1]

أمر الخليفة خالداً بالتوجّه لمقاتلة مسيلمة، فسار خالد بجيش لم يتجاوز العشرة آلاف مقاتل من المسلمين.

كتب الطبري عن تكليف خالد:[2]

«وكتب إلى شُرحبيل يأمره بالمقام حتى يأتيه أمرُه، ثمّ كتب إليه قبل أن يوجّه خالداً بأيام إلى اليمامة: إذا قدم عليك خالدٌ، ثمّ فرغتم إن شاء الله فالحق بقُضاعة؛ حتى تكون أنت وعمرو بن العاص على من أبى منهم وخالف. فلمّا قدِم خالدٌ على أبي بكر ابن البُطاح رضيَ أبو بكر عن خالد، وسَمع عذْره وقَبِل منه وصدّقه ورضي عنه، ووجّهه إلى مُسيلمة وأوعب معه الناس. وعلى الأنصار ثابت بن قيس والبَراء بن فلان، وعلى المهاجرين أبو حذَيفة وزيد، وعلى القبائل؛ على كلّ قبيلة رجلٌ. وتعجّل خالد حتى قدِم على أهل العسكر بالبُطاح، وانتظر البعث الذي ضرِب بالمدينة؛ فلمّا قدِم عليه نهض حتّى أتى اليمامة وبنو حَنيفة يومئذ كثير.

كتب إليّ السّريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي عمرو بن العلاء، عن رجال قالوا: كان عددُ بني حنيفة يومئذ أربعين

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٧٥.

(٢) المرجع نفسه.

ألف مقاتل؛ في قُراها وحُجَرها، فسار خالد حتى إذا أظلّ عليهم أسندَ خيولاً لعَقّة والهُذيل وزياد؛ وقد كانوا أقاموا على خَرْج أخرجَه لهم مُسَيلمة ليلحقوا به سجاح. وكتب إلى القبائل من تميم؛ فنفّروهم حتى أخرجوهم من جزيرة العرب، وعجّل شُرحبيل بن حسنة، وفعل فِعل عِكْرِمة، وبادر بقتال مُسيلمة قبل قدوم خالد عليه؛ فنُكِب، فحاجَزَ؛ فلمّا قدم عليه خالد لامَه؛ وإنّما أسنَد خالد تلك الخيول مخافَة أن يأتوه من خَلْفه؛ وكانوا بأفْنِيَة اليمامة».

ولما بلغ مسيلمة خبر قدوم خالد تمركز بجيشه في عقرباء(١) واختار الأرض المناسبة له واضعاً ريف اليمامة وحصونها وراء ظهره. وأرسل لملاقاة خالد سرية قوامها ستون مقاتلاً بقيادة مجّاعة بن مرارة.

اشتبكت سرية المشركين بطليعة جيش خالد التي فتكت بهم. وعندما رأى مسيلمة هزيمة سريته تقدّم بجموعه نحو خالد ومعه ابنه شرحبيل يحرض المقاتلين على الثبات.

١ - المعركة مع مسيلمة:

كان عديد جيش خالد يقارب العشرة آلاف، فيما بلغ جيش مسيلمة أربعين ألفاً.

ونظم خالد جيشه فجعل على الميمنة زيداً ابن الخطاب مع المهاجرين، وعلى الميسرة أسامة بن زيد، وعلى القلب البراء بن مالك. وكان ثابت بن قيس بن شماس يحمل راية الأنصار وأبو حذيفة يحمل راية المهاجرين. ووزع خالد الرايات المميزة على المهاجرين والأنصار والأعراب ليراقب المعركة عن كثب.

أما مسيلمة فقد جعل على ميسرة جيشه محكم بن الطفيل، وعلى الميمنة الرجّال بن عنفوة.

وخاطب كلّ قائد جنده يحثهم على القتال.

وكان أول من لقي المسلمين «نهّار الرجل ابن غفوة»، فانبرى له زيد بن الخطاب وقتله.(٢)

ثمّ التحم الجيشان في قتال شديد أظهر خلاله الجانبان ثباتاً وقوّة. لكن القتال اشتدّ

---

(١) عقرباء: موضع في طرف أرض اليمامة.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٢٠.

علـى المسـلـمين بسـبب كثرة عـدد جيش المرتـديـن الـذي تـوغـل في مضاربـهـم حتـى وصـل إلى فسـطـاط خـالـد، فترك خـالـد فسطاطه ودخله مقاتلون من المشركين.(١)

وصـف ابـن الأثير شـدّة الحرب عـلـى المسلمين، فكتب:(٢)

«واشتدّ القتال ولم يلق المسلمون حرباً مثلها قط، وانهزم المسلمون وخلص بنو حنيفة إلى مجاعة وإلى خالد فزال خالد عن الفسطاط. ودخلوا [الفسطاط] إلى مجاعة وهو عند أمرأة خالد(٣) وكان سلمه إليها فأرادوا قتلها فنهاهم مجاعة عن قتلها وقال: أنا لها جار [فنعمت الحرة] فتركوها. وقال لهم: عليكم بالرجال فقطعوا الفسطاط. ثمّ إن المسلمين تداعوا فقال ثابت بن قيس: بئس ما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين، اللهم إني أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء - يعني أهل اليمامة - وأعتذر إليك مما يصنع هؤلاء - يعني المسلمين، ثمّ قاتل حتى قتل. وقال زيد بن الخطاب: لا نحور بعد الرجال والله لا أتكلّم اليوم حتى نهزمهم أو أقتل، فأُكَلِّمُهُ بحجتي، غضّوا أبصاركم، وعضّوا على أضراسكم أيها الناس، واضربوا في عدوكم، وامضوا قدماً. [ففعلوا فردوهم إلى مصافهم حتى أعادوهم إلى أبعد من الغاية التي حيزوا إليها من عساكرهم]. وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن زيّنوا القرآن بالفعال؛ وحمل خالد في الناس حتى ردوهم إلى أبعد مما كانوا، واشتدّ القتال وتذامرت بنو حنيفة وقاتلت قتالاً شديداً، وكانت الحرب يومئذ تارة للمسلمين، وتارة للكافرين، وقتل سالم، وأبو حذيفة، وزيد بن الخطاب وغيرهم من أولي البصائر».

وبدأت البطولات تظهر في جيش المسلمين المصمم على النصر، فقام ثابت بن قيس بن شماس قائد جيش الأنصار بهجوم عام قاتل خلاله حتى قتل. وقام أيضاً زيد ابن الخطاب قائد جيش المهاجرين بهجوم بعد أن قال: «لا تحوُّز بعد الرحّال، والله لا

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٧٩.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٢١.

(٣) كان مجاعة أسيراً لدى خالد.

أتكلّم اليوم حتى نهزمهم أو أقتل».[1] ثمّ قاتل حتى قتل. وقاتل أبو حذيفة أيضاً حتى قتل.

ثمّ طلب خالد من بعض المقاتلين حماية ظهره لئلا يهاجم من الوراء، وحمل بمن معه على المرتدين وقاتلهم قتالاً شديداً حتى ردهم إلى أبعد مما كانوا فيه. وبقي الوضع هكذا بين المسلمين والمرتدين حتى كاد المسلمون ييأسون من الفوز بسبب كثرة أعدائهم بعد أن أصيب أو قتل معظم قادتهم.

٢ - نتيجة المعركة:

نقل الطبري رواية كاملة عن معركة اليمامة يظهر فيها اشتداد الحرب على المسلمين، ثمّ انتفاضتهم وقتالهم الشديد وصولاً إلى النصر، فكتب:[2]

«ثمّ التقى الناس ولم يلقهم حَرْبٌ قطّ مثلها من حرب العرب؛ فاقتتل النّاس قتالاً شديداً؛ حتى انهزم المسلمون وخلّص بنو حنيفة إلى مجّاعة وإلى خالد، فزال خالد عن فُسطاطه ودخل أناس الفسطاط وفيه مجّاعة عند أم تميم، فحمل عليها رجل بالسيف، فقال مجّاعة: مَهْ، أنا لها جارٌ، فنعمَت الحُرَّة! عليكم بالرجال، فرَعبَلوا الفُسْطاط بالسيوف. ثمّ إنّ المسلمين تَداعَوا، فقال ثابت بن قيس: بئسَما عَوَّدْتم أنفسكم يا معشر المسلمين! اللهمّ إنّي أبرأ إليك ممّا يَعبُد هؤلاء - يعني أهل اليمامة - وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء - يعني المسلمين - ثمّ جالد بسيفه حتى قُتِل. وقال زيد بن الخطاب حين انكشف الناس عن رحالهم: لا تحوُّز بعد الرّحال، ثمّ قاتل حتى قتل. ثمّ قام البَراءُ بن مالك أخو أنس ابن مالك - وكان إذا حضر الحرب أخذته العُروَاء حتى يقعد عليه الرجال؛ ثم ينتفض تحتهم حتى يبولَ في سراويله؛ فإذا بال يثور كما يثور الأسد - فلمّا رأى ما صنع الناس أخذه الذي كان يأخذه حتى قعد عليه الرجال، فلمّا بال وثب، فقال: أين يا معشر المسلمين! أنا البراءُ بن مالك، هلمّ إليَّ وفاءَت فئة من النّاس، فقاتلوا القوم حتى قتلهم الله، وخلَصوا إلى مُحكَّم اليمامة - وهو مُحكَّم بن الطُّفيل فقال حين بلغه القتال: يا معشر بني

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٢٠.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

حنيفة، الآن والله تُستحقَب الكرائم غير رضيّات، ويُنكحن غير خطيبات؛ فما عندكم من حَسَب فأخرجوه. فقاتل قتالاً شديداً؛ ورماه عبد الرحمن بن أبي بكر الصّدّيق بسهم فوضعه في نحره فقتله. ثمّ زحف المسلمون حتى ألجؤوهم إلى الحديقة؛ حديقة الموت؛ وفيها عدوّ الله مسيلمةالكذاب، فقال البراء: يا معشر المسلمين، ألقوني عليهم في الحديقة. فقال الناس: لا تفعل يا بَرَاء، فقال: والله لتطرُحنّي عليهم فيها؛ فاحتمِل حتى إذا أشرف على الحديقة من الجدار؛ اقتحم فقاتلهم عن باب الحديقة، حتى فتحها للمسلمين، ودخل المسلمون عليهم فيها؛ فاقتتلوا حتى قتل الله مسيلمة عدوّ الله. واشترك في قتله وَحشيّ مولى جُبير بن مطعم ورجل من الأنصار، كلاهما قد أصابه؛ أمّا وحشيٌ فدفع عليه حربَته، وأمّا الأنصاريّ فضربه بسيفه، فكان وحشيّ يقول: ربّك أعلم أيّنا قتله!».

وبالفعل، لمّا شاهد المقاتلون خالداً بن الوليد يقاتل بشدّة أمامهم، استبسلوا في القتال، فقام المسلمون بهجوم كاسح استعادوا فيه مواقعهم وتراجع بنو حنيفة أمامهم وأخذوا يفقدون مواقعهم ويتركون جثث قتلاهم حتى دخلوا حديقة مسوّرة، ثمّ أقفلوا بابها عليهم.

اقتحم المسلمون الحديقة وقتلوا مسيلمة فولت بنو حذيفة منهزمة فانتهت المعركة وصالح خالد بني حنيفة.(١)

أما عدد القتلى فقد ذكر الطبري ذلك إذ كتب:(٢)

«وقد قتل من المهاجرين والأنصار من أهل قصبة المدينة يومئذ ثلاثمائة وستون. قال سهل: ومن المهاجرين من غير أهل المدينة والتابعين بإحسان ثلاثمائة من هؤلاء؛ ستمائة أو يزيدون. وقتل ثابت بن قيس يومئذ؛ قتله رجل من المشركين قُطعت رجلُه، فرمى بها قاتله فقتله، وقتل من بني حنيفة في الفضاء بعَقرَباء سبعة آلاف، وفي حديقة الموت سبعة آلاف؛ وفي الطلب نحوٌ منها».

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٨٣.

(٢) المرجع نفسه.

٣ - الدروس المستقاة:

- لم يحسن عكرمة بن أبي جهل تقدير قوّة جيش مسيلمة فلم ينتظر وصول المدد وخاض قتالاً ضدّه فهزم كونه ضرب مبدأ الحرب الأول (نسبية الأهداف للوسائل) بعرض الحائط.

أما شرحبيل بن حسنة فقد تقيّد بهذا المبدأ بعد أن قارن بين جيشه وجيش خصمه فتوقف في منتصف الطريق قبل خوض المعركة فنجا من هزيمة شبه مؤكّدة. ثمّ عاد وتعرض لها بعد أن قرّر مواجهة غير متكافئة.

- مسيلمة، من جهته، أحسن تطبيق قواعد حشد القوى واختيار المكان، إذ أنه حثّ الناس وحشد أهل اليمامة فاجتمع إليه أربعون ألف مقاتل.

ثمّ استند في تمركزه على الريف الذي كان يمتد خلفه فيحمي مؤخّرات جيشه، مطبّقاً بذلك مبدأي الحرب الثاني (حرية العمل) والثالث (الحصيل الأقصى للوسائل).

- المعركة النهائية أظهرت عبقرية خالد ابن الوليد العسكرية، إذ أنه انتصر بعشرة آلاف مقاتل على خصمه الذي يقود أربعين ألفاً. ومما لا شكّ فيه أن مقاتلي خالد كانوا يقاتلون من أجل عقيدة دينية ثابتة في نفوسهم، لذلك فإن حماسهم كان شديداً. أما أتباع مسيلمة، فما كان يحركهم للقتال هو العصبية القبلية الضيّقة ومصالح بني حنيفة. كما أن خالداً بثّ في جنده روح التنافس لأنه وزّع عليهم رايات مختلفة الألوان كي يميز قتال كلّ جماعة منهم. وقد لاحظنا من مجرى المعركة استبسال قادة المجموعات المقاتلة المسلمة.

علاوة على ذلك، أن لجوء مسيلمة إلى حديقة مسوّرة بدل الحصون التي كانت متوافرة في بلاده، كان خطأ من قبله إذ أنه سهّل اقتحام الحديقة من قبل جيش المسلمين.

ومن إنجازات خالد في هذه المعركة أنه قرّر مهاجمة قلب جيش الخصم مباشرة وقتل قائده، لأن المعركة كانت ستطول في حال بقائه حياً، وذلك بسبب تفوّق جيشه العددي الكبير على جيش المسلمين.

لقد كانت معركة اليمامة مثالاً رائعاً للانجازات العسكرية التي سيقوم بها خالد ابن الوليد في ما بعد خلال الفتوحات الكبرى.

الفصل السابع
متابعة قتال المرتدّين

انتهت معركة اليمامة التي اعتبرت أهم المعارك التي خاضها المسلمون لإخضاع المرتدّين، لكن الحرب ضد هؤلاء لم تنته. فقد كان على قادة أبي بكر متابعة القتال ضد المرتدّين في البحرين وعمان واليمن ونجد وحضرموت، وذلك قبل الانطلاق لغزو وفتح باقي أقطار الشرق الأدنى.

أ - ردة أهل البحرين وعودتهم إلى الإسلام:

كان أهل البحرين من قبائل بكر بن وائل وعبد قيس على دين الإسلام في حياة رسول الله ﷺ. فلمّا توفي رسول الله ﷺ توفي الملك المنذر بن ساوى العبدي الذي كان قد أُعلن إسلام بلاده. فلما مات المنذر ارتد أهل البحرين وعادوا إلى حياة الشرك وملّكوا عليهم المنذر بن النعمان بن المنذر، وقال قائلهم: «لو كان محمد نبياً لما مات».(١)

وكان رئيس قبيلة عبد قيس رجلاً يتحلى بالأخلاق الفاضلة ويؤمن بالإسلام وهو «الجارود بن المعلى». فلما علم بارتداد قومه دعاهم إلى داره وقام فيهم خطيباً.

نقل الطبري رواية هذه الأحداث فكتب:(٢)

«فلم يلبث إلاّ يسيراً حتى مات النبي ﷺ. فقالت عبد القيس: لو كان محمدٌ نبيّاً لما مات؛ وارتدوا، وبلغه ذلك فبعث فيهم فجمعهم، ثمّ قام فخطبهم، فقال: يا معشر عبد القيس؛ إني سائلُكم عن أمر فأخبروني به إن علمتموه ولا

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٢٣.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٨٥.

تجيبوني إن لم تعلموا. قالوا: سلْ عمّا بدا لك، قال: تعلمون أنّه كان لله أنبياء فيما مضى؟ قالوا: نعم، قال: تعلمونه أو ترونه؟ قالوا: لا بل نعلمه، قال: فما فعلوا؟ قالوا: ماتوا، قال: فإن محمّداً ﷺ مات كما ماتوا، وأنا أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله. قالوا: ونحن نشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمّداً عبده ورسوله؛ وإنّك سيّدنا وأفضلُنا. وثبتوا على إسلامهم، ولم يبسطوا ولم يُبسَط إليهم وخلّوا بين سائر ربيعة وبين المنذر والمسلمين، فكان المنذر مشتغلاً بهم حياته. فلمّا مات المنذر حُصر أصحاب المنذر في مكانين حتى تنقّذهم العلاء.

وارتدّت ربيعة بالبحرين فيمن ارتدّ من العرب، إلاّ الجارود بن عمرو بن حنش بن مَعَلى؛ فإنه ثبت على الإسلام ومَن معه من قومه. وقامَ حين بلغته وفاة رسول الله ﷺ وارتداد العرب، فقال: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، وأكفّر من لا يشهد. واجتمعت ربيعة بالبحرين وارتدّت، فقالوا: نردُّ الملك في آل المنذر، فملّكوا المنذر بن النعمان بن المنذر، وكان يُسمّى الغَرور، وكان يقول حين أسلم وأسلم الناس وغلبهم السيف: لستُ بالغَرور؛ ولكنّي المغرور».

وتزعّم ردة العرب من أهل البحرين، من ربيعة وبكر بن وائل، «الحُطم بن ضُبيعة» الذي سمى المنذر بن النعمان ملكاً على البحرين.

وكان الخليفة أبو بكر قد عيّن العلاء بن الحضرمي أميراً على الجيش المكلّف بالقضاء على المرتدين من ضمن الأمراء الأحد عشر الذين سماهم في «ذي القصة»، وأمره بالذهاب إلى البحرين للقضاء على حركة الحطم.(١)

خرج العلاء بألف مجاهد وراح يدعو القبائل العربية للانضمام إليه لقتال الحطم، فانضمّ إليه فرسان ومشاة من بني «عمرو بن تميم» و«الرباب». كما انضمّ إليه «ثمامة بن أثال» أحد ملوك بني حنيفة، فبلغ عدد مقاتليه ألفي مجاهد بين فارس وراجل، اتجه بهم نحو البحرين.(٢)

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٢٤.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٢٦.

وصل العلاء إلى مكان اسمه «هَجُر»، فعسكر فيه. وكان قد اجتمع مع الحطم جيش كبيرٌ تمركز مقابل جيش العلاء. وأخذ الجيشان يناوشان بعضهما مدّة شهر من دون أن تجري معركة حاسمة، إلى أن كان أحد الأيام حين سكر جميع مقاتلي الحطم فعلم العلاء بذلك وأرسل مقاتليه إلى معسكرهم حيث قاتلوهم وانتصروا في المعركة التي روى الطبري عن نهايتها الرواية التالية:[1]

«وتجمّع المشركون كلُّهم إلى الحُطم إلاّ أهل دارين، وتجمَّع المسلمون كلّهم إلى العلاء بن الحضرميّ. وخندق المسلمون والمشركون، وكانوا يتراوحون القتال ويرجعون إلى خَنْدقهم؛ فكانوا كذلك شهراً. فبينا الناس ليلةً إذ سمع المسلمون في عسكر المشركين ضوضاء شديدة؛ كأنها ضوضاءُ هزيمة أو قتال، فقال العلاء: مَنْ يأتينا بخبر القوم؟ فقال عبدالله بن حَذَف: أنا آتيكم بخبر القوم - وكانت أمّه عِجْلِيَّة - فخرج حتى إذا دنا من خندقهم أخذوه، فقالوا له: مَن أنت؟ فانتسب لهم، وجعل ينادي: يا أبْجَراه! فجاء أبجر بن بُجَير، فعرفه فقال: ما شأنك؟ فقال: لا أضيعنَّ الليلة بين اللَّهازم! علام أقتَل وحولي عساكر من عِجْل وتيْم اللات وقيس وعَنَزَة! أيتلاعب بي الحُطم ونُزَّاع القبائل وأنتم شهود! فتخلَّصه، وقال: والله إني لأظنُّك بئس ابن الأخت لأخوالك الليلة! فقول: دعْني من هذا وأطعِمْني؛ فإنّي قد متُّ جوعاً. فقرَّب له طعاماً؛ فأكل ثمّ قال: زوّدني واحمِلْني وجوّزني أنطلق إلى طيَّتي. ويقول ذلك لرجل قد غلب عليه الشراب، ففعل وحمله على بعير، وزوّده وجوّزه. وخرج عبدالله بن حَذَف حتى دخل عسكر المسلمين، فأخبرهم أنّ القوم سُكارى، فخرج المسلمون عليهم حتى اقتحموا عليهم عسكرَهم، فوضعوا السيوف فيهم حيث شاؤوا. واقتحموا الخندق هُرّابا، فمتردٍّ، وناجٍ ودهِش، ومقتول أو مأسور، واستولى المسلمون على ما في العسكر؛ لم يفلت رجلٌ إلاّ بما عليه».

أما الحطم فقد قتل في المعركة.

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٨٨.

ب - إخضاع اليمن وحضرموت:

بعد القضاء على الحطم وجه أبو بكر جيوش المسلمين نحو جنوب وجنوب شرق شبه الجزيرة العربية للقضاء على حركات الردة في عُمان ومَهَرة وحضرموت واليمن. وعين حذيفة بن محصن الغلفاني أميراً على الجيش المتجه نحو عُمان، وعرفجة بن هرثمة أميراً على الجيش الإسلامي المتجه إلى مَهَرة. ثمّ أمر أبو بكر بتوحيد الجيشين في قتال المرتدّين على أن يكون القائد العام حذيفة.(١)

١ - إخضاع عُمان:

ولما علم الخليفة أن عدد جيش المرتدين كبير، قرّر تعزيز المسلمين بجيش ثالث أميره عكرمة بن أبي جهل كان سبق وفشل في محاربة مسيلمة الكذاب فوجهه الخليفة إلى عُمان.

كتب ابن الأثير عن هذه الأحداث ما يلي:(٢)

«قد اختُلف في تاريخ حرب المسلمين هؤلاء المرتدين، فقال ابن إسحاق: كان فتح اليمامة واليمن والبحرين وبعث الجنود إلى الشام سنة اثنتي عشرة. وقال أبو معشر، ويزيد بن عياض وابن جعدبة، وأبو عبيدة بن محمّد بن عمار بن ياسر: إنّ فتوح الردة كلّها [كانت] لخالد وغيره سنة إحدى عشرة إلاّ أمر ربيعة بن بجير فإنه كان سنة ثلاث عشرة.

وأما عُمان فإنه نبغ بها ذو التاج لقيط بن مالك الأزدي، وكان يسمّى(٣) في الجاهلية الجندلي، وادعى بمثل ما ادعى من تنبأ، وغلب على عُمان مرتداً. والتجأ جيفر وعباد إلى الجبال وبعث جيفر إلى أبي بكر يخبره ويستمدّه عليه. وبعث أبو بكر حذيفة بن محصن الغلفاني من حمير، وعرفجة البارقي من الأزد إلى عُمان، وعرفجة إلى مهرة، وكلّ منهما أمير على صاحبه في وجهه فإذا قربا من عُمان يكاتبان جيفراً. فسارا إلى عُمان، وأرسل أبو بكر إلى عكرمة بن أبي جهل وكان بعثه إلى اليمامة فأصيب، فأرسل إليه

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٩١.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

أن يلحق بحذيفة وعرفجة بمن معه يساعدهما على أهل عمان ومهرة، فإذا فرغوا منهم سار إلى اليمن. فلحقهما عكرمة قبل عمان، فلما وصلوا رجاما - وهي قريب من عمان - كاتبوا جيفراً وعباداً، وجمع لقيط جموعه، وعسكر بدَبا، وخرج جيفر وعباد وعسكرا بصُحار،[1] وأرسلا إلى حذيفة وعكرمة وعرفجة [في القدوم عليهما] فقدموا عليهما، وكاتبوا رؤساء مع لقيط [وبدأوا بسيد بني جديد فكاتبهم وكاتبوه حتى] ارفضوا عنه. ثمّ التقوا على دَبا».

أما لقيط بن مالك الأزدي الذي كان يتزعم المرتدين من أهل عُمان منذ وفاة النبي ﷺ والذي ادعى النبؤة وخدع الناس فالتفوا حوله، فإنه لما علم بقدوم المسلمين جمع جيشاً كبيراً يفوق بعدده عدد جيوش المسلمين الثلاثة المذكورة. ثمّ أمر بالخروج لقتال المسلمين بعد أن جعل النساء والأولاد والأموال خلف جيشه لجعل جنوده يقاومون بشدّة.[2]

واجتمع الجيشان في «دبا»،[3] فباشر لقيط بمهاجمة المسلمين حيث جرى قتال شديد. ونظراً لكثرة مقاتليه، تمكّن لقيط من زحزحة المسلمين عن أماكنهم واختراق صفوفهم رغم أنهم كانوا يقاتلون بثبات عجيب.

أخيراً، وصلت النجدات من القبائل العربية إلى المسلمين، فوصل بنو ناجية وفرسان من عبد قيس، فتحوّل مسار المعركة لمصلحة المسلمين الذين تمكّنوا من القضاء على المرتدين الذين قتل عدد كبير منهم بلغ عشرة آلاف بينهم لقيط، وفق ابن كثير والطبري وابن الأثير وغيرهم.[4]

وغنم المسلمون أموالاً كثيرة وسبوا الذراري وقسموا الأموال على بعضهم وأرسلوا الخمس إلى الخليفة. ونقل الطبري أن خمس الغنائم بلغ ثمانمائة رأس.[5]

---

(١) صحار: هضبة عمان ما يلي الجبل - وكان فيها مدينة كثيرة الخيرات.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٩٢.

(٣) دَبا: هي من أكبر مدن عمان.

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٢٦.

(٥) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٩٢.

وبعد المعركة اجتمع أمراء الجيوش الإسلامية ووضعوا الخطة التالية لمتابعة محاربة المرتدين:

- يسير عرفجة بخمس الغنائم إلى المدينةالمنوّرة ويبلّغ الخليفة بالنصر.

- يبقى حذيفة في عُمان لتهدئة الأمور وتنظيم شؤون المسلمين.

- يتجه عكرمة مع رجاله إلى بلاد مهرة لردّ أهلها إلى الإسلام.

٢ - إنهاء الردة في مَهَرَة:

أما الجيش المتوجه إلى مهرة والذي يقوده عكرمة بن أبي جهل، فقد انضمّ إليه محاربون من قبائل ناجية والأزد وعبد قيس وراسب وسعد بن تميم وأهل عُمان فقوي بهم وخرج باتجاه بلاد مهرة حتى وصل إلى مشارفها.

وصف ابن كثير الوضع في مهرة، فكتب:[١]

«وأما مهرة فإنهم لما فرغوا من عُمان كما ذكرنا، سار عكرمة بالناس إلى بلاد مهرة، بمن معه من الجيوش، ومن أضيف إليها، حتى اقتحم على مهرة بلادها، فوجدهم جندين على أحدهما - وهم الأكثر - أمير يقال له: المصبّح، أحد بني محارب. وعلى الجند الآخر أمير يقال له: شخريت، وهما مختلفان، وكان هذا الاختلاف رحمة على المؤمنين. فراسل عكرمة شخريت فأجابه وانضاف إلى عكرمة فقوي بذلك المسلمون، وضعف جأش المصبح، فبعث إليه عكرمة يدعوه إلى الله وإلى السمع والطاعة، فاغترّ بكثرة من معه ومخالفة لشخريت. فتمادى على طغيانه فسار إلى عكرمة بمن معه من الجنود فاقتتلوا مع المصبح أشد من قتال دبا المتقدّم، ثمّ فتح الله بالظفر والنصر، ففرّ المشركون وقتل المصبح، وقتل خلق كثير من قومه، وغنم المسلمون أموالهم، فكان في جملة ما غنموا ألفا نجيبة. فخمّس عكرمة ذلك كلّه وبعث بخمسه إلى الصديق مع شخريت، وأخبره بما فتح الله عليه، والبشارة مع رجل يقال له: السائب، ومن بني عابد ابن مخزوم».

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٢٦.

وهكذا، جمع عكرمة غنائم المعركة فاحتفظ بالخمس للخلافة ووزع الباقي على المحاربين. وأقام في مهرة داعياً الناس للعودة إلى الإسلام، فاستجاب لدعوته أهل النَّجد ورياض الروضة وأهل الساحل وجيروت والشحر وينعب وذات الخيمة وأهل الجزائر والمرّ واللّبان الذين بايعوا على الإسلام.[1]

٣ - القضاء على ردّة اليمن:

بعد القضاء على الأسود العنسي في اليمن على يد قيس المكشوح وفيروز الديلمي وداذويه في آخر ليلة من حياة النبي ﷺ، اتفق الرجال الثلاثة على حكم اليمن، ثمّ انضمّ إليهم رابع اسمه «جشيش».[2]

وبعد وفاة رسول الله ﷺ رأى قيس أن يستأثر وحده بحكم اليمن بعد أن يتآمر لقتل رفاقه الثلاثة، فارتد عن الإسلام فيما ثبت الباقون على إسلامهم. وكانت تقيم في اليمن، إضافة إلى أهلها، جماعة من الفرس كانوا قد أسلموا ويدعون «الأبناء»، وجماعة من النصارى ما زالوا على ديانتهم.

جمع قيس المرتدين في اليمن وتآمر لقتل الثلاثة فتمكّن من قتل داذويه فيما هرب فيروز وجشيش حتى وصلا إلى جبل «خولان»، حيث قبيلة من أخوال فيروز، واحتميا فيها.

أما قيس، فاجتمع إليه جيش عظيم وسيطر على صنعاء بعد أن انضمّ إليه رجال الأسود العنسي وأخذ يناوش فيروزاً.

في هذا الوقت كتب أبو بكر إلى رؤساء العرب الذين ثبتوا على الإسلام يستحثهم على معاونة فيروز والثورة على قيس. ثم وجّه آخر الجيوش الإسلامية بقيادة «المهاجر بن أبي أمية» إلى اليمن للقضاء على حركة قيس، وأمر عكرمة بن أبي جهل بالتوجه إلى اليمن ومؤازرة المهاجر.

والتحق بالمهاجر وهو في طريقه إلى اليمن خالد بن أسيد مع عدد كبير من الفرسان في مكة المكرّمة، ثمّ انضمّ إليه عبد الرحمن بن

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٩٣.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٣١.

العاص ورجاله في الطائف وغيرهم، فكبر جيشه.

أدرك قيس ومعاونه عمرو بن معد يكرب صعوبة قتال جيش المهاجر.

ونكمل الرواية عن ابن الأثير الذي كتب:[1]

«فبينما هم كذلك قدم عكرمة بن أبي جهل أبْيَن،[2] من مهرة - وقد تقدّم ذكر قتال مهرة - ومعه بشر كثير من مهرة وغيرهم، فاستبرأ النخع، وحمير. وقدم أيضاً المهاجر بن أبي أمية في جمع من مكة والطائف وبجيلة مع جرير إلى نجران فانضمّ إليه فروة بن مُسيك المرادي. فأقبل عمرو ابن معد يكرب مستخفياً حتى دخل على المهاجر من غير أمان فأوثقه المهاجر وأخذ قيساً أيضاً فأوثقه، وسيرهما إلى أبي بكر فقال: يا قيس قتلت عباد الله؛ واتخذت المرتدين والمشركين وليجة من دون المؤمنين [وهَمَّ بقتله لو وجد أمراً جلياً]، فانتفى قيس من أن يكون قارف من أمر داذويه شيئاً - وكان قتله سراً - فتجافى له عن دمه، وقال لعمرو: أما تستحي أنك كلّ يوم مهزوم أو مأسور لو نصرت هذا الدين لرفعك الله».

فأعلن قيس وعمرو توبتهما وعودتهما إلى الإسلام، فردهما أبو بكر إلى قبائلهما، وقد أصبحا في ما بعد من كبار أبطال الجيوش الإسلامية في فتوحات بلاد فارس.

٤ - ردة حضرموت:

كان عامل المسلمين على حضرموت زياد ابن لبيد الأنصاري منذ أيام النبي ﷺ. فلما أراد جمع الصدقات في عهد الخليفة أبي بكر أعطاه قسمٌ من الناس طائعين، في حين أعطاه قسم كبير منهم كارهين.

ولما أخذ الصدقة من كندة، أخذ منهم ناقة لفتى اسمه «زيد بن معاوية القشيري» ووسمها ووضعها بين إبل الصدقة تمهيداً لإرسالها إلى المدينة المنوّرة. لكن صاحبها أقبل إلى «حارثة بن سراقة» أحد سادة كندة وطلب استعادة الناقة كونه يجبها على أن

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٣٢.

(٢) أبين: مخلاف باليمن، منه عدن.

يعطي بدلاً عنها لعاهل الخليفة. لكن زياد بن لبيد رفض ذلك وقال له:

- «انها قد دخلت في حق الله، وقد وُضع عليها ميسم الصدقة ولا أحب أن آخذ غيرها».[1]

فغضب حارثة وذهب إلى حظيرة إبل الصدقة فأخرج ناقة الفتى وأعطاها له وقال:[2]

- «نحن إنما أطعنا رسول الله ﷺ إذ كان حياً. ولو قام رجل من أهل بيته لأطعناه. أما ابن أبي قحافة[3] فلا والله ما له في رقابنا طاعة ولا بيعة».

ثمّ جمع الأشعث بن قيس أهل حضرموت من كندة وحرضهم على التمرّد، وقال يخاطبهم:

-«يا معشر كندة... إن كنتم على ما أرى، فلتكن كلمتكم واحدة والزموا بلادكم وحوّطوا حريمكم وامنعوا زكاة أموالكم».

حاول زياد بن لبيد إقناع أهل حضرموت بعدم العصيان، إنما دون نتيجة، فذهب إلى المدينة المنّورة وأخبر الخليفة بردّة كندة.[4]

أشار البعض على الخليفة بتوجيه خالد ابن الوليد من اليمامة إلى حضرموت لقتال المرتدّين، لكن الخليفة قرر إرسال زياد لقتالهم قائلاً لأخصّائه «أن خالد بن الوليد كما وصفتم، لكن أميرهم الذي أخرجوه عن حضرموت هو أحق بحربهم من غيره».

٤١ - إرسال جيش المسلمين:

جهّز الخليفة جيشاً من أربعة آلاف مقاتل وكلف زياداً بن لبيد قيادته وطلب إليه العودة إلى حضرموت وإخضاع كندة. سار الجيش باتجاه حضرموت فعلم أهلها بقدومه فعاد إلى الإسلام قسم منهم، لكن المتحمّسين بقوا على ردّتهم وأرادوا قتال المسلمين.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٣٤.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٠١.

(٣) أي الخليفة أبو بكر.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٣٤.

وصــل الجيش إلى مشـارف حضـرمـوت فوجد أربعة أخوة من ملوك كندة ومعهم أختهم فانقض عليهم المسلمون وقتلوهم[١] وتابعوا سيرهم في اتجاه أحياء كندة. ولما علم أهل السكاسك والسكون، وهما قبيلتان من قبائل كندة، ما فعل المسلمون ببني قومهم، خافوا على أنفسهم وجاؤوا إلى مخيم زياد وأعلـنوا عـودتـهـم إلى الإسـلام ورغـبـتـهـم بالحرب إلى جانبه.[٢]

٤٢ - مهاجمة أحياء بني كندة:

وراح زياد يهاجم أحياء كندة الواحد تلو الآخر ويعمل السيف فيهم، بدءاً بحي بني هند ثمّ بني العاقل حيث فاجأهم وهزمهم وغنم غنائم كثيرة منهم. لكنه لقي مقاومة شـديـدة في حـي بـنـي حِمير حيث دارت معركة عنيفة خسر فيها المسلمون عشرين شهيداً رغم انتصارهم.

أما الأشعث الذي كان قد حرّض بني كندة، فإنه راح يستنفر قبائلهم من بني مرّة وعدي وجبلة، فجمع جيشاً من ألف فارس اتجه به نحو زياد لمحاربته.

كـتـب الـطبري يصـف هـذه المرحـلـة مـن الحرب ضد كندة:[٣]

«وانكفأ زياد بالسَّبْي والأموال، وأخذوا طريقاً يفضي بهم إلى عسكر الأشعث وبني الحارث بـن مـعـاويـة؛ فـلـمّـا مرُّوا بـهـم فـيـه استغاث نسوةُ بني عمرو بن معاوية ببني الحارث ونـاديـنـه: يـا أشـعـث، يـا أشـعـث! خـالاتك، خـالاتك! فـثـار في بـنـي الحارث فتنقّذهم.

وعلم الأشعث أنّ زياداً وجنّده إذا بلغهم ذلك لم يُقلعوا عنه ولا عن بني الحارث بن معاوية وبني عمرو بن معاوية، فجمع إليه بني الحارث بن معاوية وبني عمرو بن معاوية، ومَن أطاعه من السّكاسك والخصائص من

---

(١) هم فحوص ومشرح وحجر وأبضعة وأختهم العمرّدة وكان رسول الله ﷺ قد لعنهم سابقاً - عن الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٠٢.

(٢) الطبري، المرجع نفسه، ص ٣٠٢.

(٣) الطبري، المرجع نفسه.

قبائل ما حولهم، وتباين لهذه الوقعة مَن بحضْرموت من القبائل، فثبت أصحاب زياد على طاعة زياد، ولجّت كنْدة. فلمّا تباينت القبائل كتب زيادٌ إلى المهاجر، وكاتبه النّاس فتلقّاه بالكتاب، وقد قطع صَهيد - مفازةٌ ما بين مأرب وحضرموت - واستخلف على الجيش عِكرمة، وتعجّل في سرعان النّاس. ثمّ سار حتى قدِم على زياد؛ فنهَد إلى كِنْدة وعليهم الأشعث، فالتَقَوا بمحجر الزُّرْقان فاقتتلوا به فهُزمت كندة، وقُتلت وخرجوا هُرّاباً، فالتجأت إلى النُّجَيْر وقد رمّموه وحصنوه.

وسار المهاجر في النّاس من محجر الزُّرقان حتى نزل على النُّجَير، وقد اجتمعت إليه كندة، فتحصّنوا فيه؛ ومعهم من استغووا من السكاسك وشُذّاذ من السَّكون وحضْرموت والنُّجير، على ثلاثة سُبُل. فنزل زياد على أحدها، ونزل المهاجر على الآخر، وكان الثالث لهم يؤتون فيه ويذهبون فيه، إلى أن قدم عِكرمة في الجيش، فأنزله على ذلك الطّريق، فقطع عليهم الموادّ وردّهم، وفرّق في كِنْدة الخيول، وأمرهم أن يُوطِئوهم. وفيمن بعث يزيد بن قَنان من بني مالك بن سعد، فقتل مَن بقرى بني هند إلى بَرَهُوت، وبعث فيمن بعث إلى السّاحل خالد بن فلان المخزوميّ وربيعة الحضرميّ، فقتلوا أهل مَحا وأحياء أخر. وبلغ كِندة وهم في الحِصار ما لقي سائر قومه، فقالوا: الموت خير مما أنتم فيه؛ جزوا نواصيكم حتى كأنكم قوم قد وهبتم الله أنفسكم، لعلّه أن ينصركم على هؤلاء الظلمة».

وهكذا، عندما هاجم الأشعث زياداً بالقرب من مدينة اسمها «تريم»، دارت الدائرة على زياد والمسلمين فدخلوا المدينة بعد أن فقدوا أكثر من ثلاثمائة شهيد، واسترجع الأشعث الغنائم والسبايا من زياد، وحاصر المدينة التي لجأ إليها.

أرسل زياد في طلب النجدة من المهاجر ابن أبي أمية الذي كان قريباً منه، فسار المهاجر إليه في ألف فارس حيث استطاع فك الطوق الذي كان قد فرضه الأشعث على المدينة. ودارت معركة شرسة في محجر الزرقان بين الأشعث والمرتدّين من جهة، وزياد والمهاجر من جهة أخرى انتصر فيها المسلمون وهزمت كندة فالتجأت إلى حصن بها اسمه «النُّجير» فحاصرهم المسلمون.

ثمّ كتب أبو بكر إلى عكرمة بن أبي جهل يأمره بالتوجّه إلى حضرموت والمشاركة في قتال المشركين إلى جانب زياد والمهاجر ففعل. كما كتب إلى المهاجر بما يلي:[١]

«إن ظفرتم بالقوم بالقوم فاقتلوا المقاتلة واسبوا الذرية إن أخذتموهم عنوة أو ينزلوا على حكمي. فإن جرى بينكم صلح قبل ذلك، فعلى أن تخرجوهم من ديارهم فإني أكره أن أُقر أقواماً فعلوا فعلهم في منازلهم ليعلموا أن قد أساؤوا وليذوقوا وبال بعض الذي أتوا».

- انتصار المسلمين:

جاءت نتيجة الحصار فكانت لصالح المسلمين إذ كتب ابن الأثير:[٢]

«وسار المهاجر فنزل عليهم واجتمعت كندة في النجير فتحصّنوا به فحصرهم المسلمون. وقدم إليهم عكرمة فاشتدّ الحصار على كندة، وتفرّقت السرايا في طلبهم، فقتلوا منهم. وخرج من بالنجير من كِندة وغيرهم فقاتلوا المسلمين فكثر فيهم القتل، فرجعوا إلى حصنهم، وخشعت نفوسهم، وخافوا القتل، وخاف الرؤساء على نفوسهم، فخرج الأشعث ومعه تسعة نفر، فطلبوا من زياد أن يؤمنهم وأهليهم على أن يفتحوا له الباب فأجابهم إلى ذلك وقال: اكتبوا ما شئتم، ثمّ هلموا الكتاب حتى أختمه.

ففعلوا، ونسي الأشعث أن يكتب نفسه لأن جحدماً وثب عليه بسكين. فقال: تكتبني أو أقتلك فكتبه، ونسي نفسه ففتحوا الباب فدخل المسلمون فلم يدعوا [فيه] مقاتلاً إلاّ قتلوه وضربوا أعناقهم صبراً وأخذوا الأموال والسبي. فلمّا فرغوا منهم، دعا الأشعث أولئك النفر والكتاب معهم فعرضهم فأجاز مَن في الكتاب فإذا الأشعث ليس منهم، فقال المهاجر: الحمد لله الذي خطأك نوءك:[٣] يا أشعث، يا عدوّ الله، قد كنت أشتهي أن يخزيك الله».

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٠٣.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٣) نؤك: طالعك أو نجمك.

لم يـذكـر ابـن الأثير مـقـدم عـكـرمـة، ومشاركته في حصار حصن «النجير»، لكن الطبري ذكره ونقل أن الأشعث خرج إليه من الحصن واستأمنه وأن عكرمة هو الذي أعطاه الأمان.

كما نقل الطبري أن الناس اقتتلوا بأفنية النجير حتى كثرت القتلى مما جعل الأشعث يخرج من الحصن إلى عكرمة ويستأمنه. أما ابن الأثير فيؤكّد أن المسلمين دخلوا الحصن ولم يتركوا مقاتلاً إلاّ قتلوه وأخذوا الأموال والسبي.

وأما الأشعث فقد أرسل مع السبي إلى أبي بكر الذي عفا عنه بعد أن عاد إلى الإسـلام وحسـن إسـلامـه وكـان مـن خيرة المجاهـديـن وأظـهـر بـطـولات نـادرة في فـتـح العراق.

ج - انتهاء حروب الردة ونتائجها:

بإخضاع حضرموت انتهت حروب الردة فعـادت إلى شـبـه الجزيـرة الـعربية وحدتها الدينية والسياسية في ظل الإسلام.

لقد استطاع أبو بكر وأمراؤه الاحد عشر الانتهاء من حروب الردة خلال سنة واحدة من الزمن رغم خطورة الوضع وكثرة القبائل التي ارتدت عن الإسلام. ويعود الفضل في ذلك إلى إصرار الخليفة على محاربة المرتدين وجعلهم يطبقون وصايا الإسلام كما نزلت، وذلك رغـم نصـائـح بـعض المقـربين مـنـه بالتساهل. فقد أجاب أبو بكر هؤلاء بقوله:

«قد قال رسول الله ﷺ: أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمّداً رسول الله. فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها».(١)

إن هذا التصميم على إعادة الأمور في شبه الجزيرة العربية إلى ما كانت عليه قبل وفاة النبي ﷺ كان من أهم الأسباب التي ساهمت في إخضاع المرتدّين.

عـلاوة عـلـى ذلك فـإن حسـن اخـتـيـار الأمراء الذين أرسلهم الخليفة في مهمات إخضاع المرتدّين كان أيضاً من أسباب نجاح الحملات والسرايا ضـد الـمـرتـدّيـن. فـقـد خاض هؤلاء معارك عنيفة في ظروف صعبة

---

(١) أنظر الفصل الرابع - الفقرة ج.

وفي مناطق تقطنها قبائل معادية رافضة دفع الزكاة والصدقات. إلاّ أن صفات الحماس الديني والاندفاع في سبيل الشهادة والجهاد في سبيل الله التي تمتّع بها جند المسلمين ساهمت أيضاً في خوض معارك ناجحة ضد جيوش تفوقهم عدداً وعدّة وتقاتل في بلادها، فيما المسلمون بعيدون عن منازلهم.

وبانتهاء حروب الردة التي دامت سنة كاملة، بدأ العد العكسي للانطلاق في الفتوحات الكبرى التي بدأها أبو بكر وتابعها وأكملها الخليفة الراشدي الثاني عمر ابن الخطاب.

أما نتائج معارك وحروب الردة فيمكن إيجازها بالأمور التالية:

١ - أظهرت هذه الحروب أن الإسلام ينبغي أن يكمل طريقه في سبيل نشر الدين الحنيف، وأن العقيدة الدينية التي نزلت على النبي ﷺ هي ثابتة ولا يمكن زعزعتها من أي قوة في بلاد العرب، وأن الخلافة الإسلامية قوية جداً ومصمّمة على متابعة الرسالة.

٢ - إعادة توحيد القوى العربية تحت ظلال الإسلام مما سيدفعها بقوة لتنفيذ الفتوحات الكبرى.

٣ - درّبت القادة الذين شاركوا في معاركها التي اعتبرت معارك داخلية، مما أهّلهم لقيادة جيوش أكبر وللقتال ضد امبراطوريات متجذرة في منطقة الشرق الأدنى منذ مئات السنين.

٤ - أبرزت قوة الإيمان التي يتمنع به قادة المسلمين وخلفاء النبيّ ﷺ وإصرارهم على نشر الدين مهما كانت التضحيات جسيمة.

٥ - حضّرت الجبهة الداخلية في شبه الجزيرة العربية ودعّمتها في شكل يسمح بانطلاق الجيوش نحو مناطق أخرى من دون الخوف من الثورات أو الانقلابات أو الارتداد عن الإسلام.

إنما، ورغم هذه الحسنات، فقد كان لحركة الردّة مساوئ أيضاً، أولها أنها أخّرت الفتوحات سنة كاملة وحرمت العالم الإسلامي من مقاتلين وقادة هو بحاجة إليهم. فشبه الجزيرة العربية هي التي كوّنت الخزان البشري الهائل الذي سيغرف منه الخليفة لشن حروب الفتح التي سيأتي الحديث عنها في القسم الثالث من هذا الجزء.

القسم الثالث

بداية الفتوحات الكبرى

وفي أواخر السنة الثانية عشرة للهجرة فرغ أبو بكر من محاربة المرتدّين عن الإسلام وأعاد توحيد شبه الجزيرة العربية تحت راية الإسلام. لكن أبا بكر تذكر رغبة النبيّ ﷺ بالانطلاق بالدين الجديد إلى أرجاء أخرى من الشرق الأدنى لا سيما بلاد الشام وبلاد العراق.

وكانت تسيطر على هذه المناطق دولتان قويتان لهما من التاريخ والحضارة والوجود مئات السنين، وهما دولة الفرس المسيطرة على بلاد ما بين النهرين، ودولة الروم أو الامبراطورية البيزنطية التي تهيمن بقوة على بلاد الشام وصولاً إلى مصر وحتى الحبشة. الدولة الأولى تدين بالزردشتية، والثانية بالنصرانية.

لذلك كان على الخليفة الراشدي الأول إزالة هاتين القوتين ليتمكّن من نشر الدين الإسلامي في المناطق المتنازع عليها.

كتب جرجي زيدان واصفاً الظروف التي ساهمت في تمكّن العرب المسلمين من الانتصار على أكبر قوتين عسكريتين في الشرق الأدنى يومذاك رغم أن كلاً منهما كان يسيطر داخلها مجتمع عسكري متمايز:[1]

«للكتّاب وأهل النقد بحث طويل وجدال عنيف في الأسباب التي ساعدت العرب على فتح بلاد الروم والفرس، وقهر القياصرة والأكاسرة برجال يكاد لا يزيد عددهم على عدد حامية مدينة من مدن أولئك، مع ما كان عليه العرب يومئذ من سذاجة المعيشة وقلّة الدربة في فنون الحرب وضيق ذات اليد وضعف العدّة، والروم والفرس أعظم دول الأرض يومئذ وعندهما العدّة والرجال والحصون والمعاقل. وزد على ذلك أن العرب فضلاً عن قلّتهم وسذاجة أحوالهم جاءوا مهاجمين في بلاد لا يعرفونها ولا نصير لهم فيها، وأغرب من ذلك كلّه أنهم فتحوا تينك المملكتين في مدّة لا تتجاوز بضع عشرة سنة. فكيف تأتّى لهم ذلك؟

أشهر أقوال أهل النقد في هذا الشأن أنّ العرب لم يستطيعوا فتح تينك المملكتين إلاّ لما كان فيه الروم والفرس من التضعضع

(١) جرجي زيدان، مرجع سابق، جزء ٣١، ص ٦٨ – ٦٩.

والضعف، على أثر ما كان من الحروب بينهما قبيل الإسلام مما بيناه في فصل سابق. وعندنا أنّ ذلك التضعضع لم يكن وحده علّة ذلك النصر، وإلاّ لكانت إحدى الدولتين أولى باستيلاء على جارتها وعدّتها من أمّة صغيرة قليلة العدد ضعيفة العدد غلبت الدولتين جميعاً. على أننا لا ننكر ما كان لتضعضع الروم والفرس من التأثير في تسهيل الفتح ولكنه لم يكن هو علّته، وهناك أسباب أخرى».

الفصل الثامن

الظروف التي ساعدت العرب المسلمين في الفتوحات

لقد سبق وأجبنا على تساؤلات طرحها المراقبون والمؤرّخون عن كيفية استطاعة جموع من الصحراء لا تتقن إلاّ قواعد بدائية في القتال ولا تملك سوى أسلحة خفيفة، قهر الجيوش النظامية لأكبر امبرطوريتين في الشرق الأدنى.

وكيف استطاعت هذه الجموع تحويل الفتح العسكري إلى إقامة دائمة...

فما هو المحرّك للمسلمين الذي دفعهم في هذه الطريق؟[١]

قلنا أن المؤرّخ المتحمّس للدين يردّ ذلك لأسباب دينية، فيما المؤرّخ الغربي يردّها لأسباب اقتصادية بحتة، وأن المؤرّخ الموضوعي يردها إلى ظروف وأسباب متعدّدة أهمها وضع دولتي الفرس والروم يومذاك.

ويرى المؤرّخون الموضوعيون أن العرب تحرّكوا لفتح العالم المعروف يومذاك تدفعهم عوامل عدّة ويتبعون غايات مختلفة بعضها أرفع من بعض. محرّكهم الأول كان العقيدة الدينية وغايتهم الكبرى هي نشر الديانة الجديدة، تضاف إليها أسباب اقتصادية، أهمها جدب شبه الجزيرة العربية وضعف الزراعة فيها المترافق مع التكاثر السكاني الهائل. تضاف إلى ذلك رغبة القبائل العربية في الانضمام إلى مسيرة الإسلام القوية التي تمكّنت خلال سنة من إعادة إخضاع القبائل التي ارتدّت عن الدين الحنيف.

---

(١) أنظر الجزء الثاني من هذه الموسوعة.

ويجب أن لا ننسى أيضاً رغبة المقاتلين في الغنائم والسبايا التي يوزع أربع أخماسها عليهم. كما أن ضعف الدولتين اللتين كان على العرب المسلمين مقارعة جيوشهما، وصراعهما المتواصل الواحدة ضد الأخرى، ساهماً في دفع الجيوش الإسلامية نحو النصر.

- الأسباب التي ساعدت على الفتوحات

كما سبق القول وجه المؤرّخون أسئلة عديدة حول الأسباب والظروف التي جعلت العرب ينتصرون على جيوش امبراطوريتي الفرس والروم، وعن الأسباب التي منعتهم عن القيام بهذا الإنجاز العظيم في زمن الجاهلية.

أجاب بعضهم على هذه الأسئلة بأن العرب في الجاهلية كانوا قبائل تفرّقهم العصبية القبلية فيتصارعون مع بعضهم البعض مما سهّل السيطرة عليهم من قبل القوى الخارجية. إنما ظهور الإسلام جمعهم ووحدهم الحماس الديني والرغبة في نشر الدين واعتبار من يموت منهم شهيداً يتوجّه إلى الجنة. لذلك فإن العرب توحّدوا في الإسلام فيما تفرقت قوى فارس وبيزنطية بسبب الحروب الداخلية والصراع بينهما، فغلبهم العرب المسلمون على أمرهم.

أ - اجتماع كلمة العرب:

ويرد جرجي زيدان سبب اجتماع كلمة العرب إلى أمر المعاهدة والمؤاخاة في أول سنة للهجرة وفي عمل زعماء المسلمين على إنهاء العصبية القبلية، وفي اجتماع المسلمين خمس مرات في اليوم للصلاة خلف الإمام، مما وطّد عرى الاتحاد في نفوسهم. وهذا ما جعلهم يتغلّبون في معظم معاركهم على جيوش تفوقهم عدداً وعدّة. فالاقتناع بصدق الدعوة وبأن من يستشهد يعيش حياة ثانية في الجنة، دفعا المقاتلين المسلمين إلى إنجاز بطولات فردية وجماعية لم تكن ممكنة في الجاهلية.

ب - خصب البلاد المجاورة:

والسبب الثاني الذي ساعد في تحقيق الفتوحات خصب البلاد المجاورة لشبه

الجزيرة العربية شمالاً وشرقاً، فيما بلاد العرب قاحلة ومجدبة. لقد كانت بعض القبائل العربية تحارب للكسب من الأسلاب والغنائم.

ج - قيمة المقاتل العربي:

ومن الأسباب أيضاً ما يتميّز به المقاتل العربي من نشاط البادية والتعوّد على شطف العيش وخشونته، فأصبح لا يبالي بالجوع والعطش. كذلك خفّة أحمال المقاتلين المتوجّهين للجهاد إذ أنهم يحملون السلاح الخفيف، وقد لا يحملون الزاد لتعودهم التعيّش من المناطق المفتتحة؛ ساعدتهم في ذلك خيولهم السريعة وجمالهم الصبورة والتي دعيت «سفن الصحراء» والتي تأكل من عشب الأرض حتى ولو كان يابساً. هذا، فيما المقاتل المقابل مثقل بسلامه الثقيل وخوذته ودرعه وعدة طعامه.

وساعد العرب المسلمين أيضاً اعتقادهم بالقضاء والقدر منذ الجاهلية، وأن الإنسان متى أتت ساعته يموت ولو كان على فراشه. كذلك مهارتهم في ركوب الخيول وفي رمي النبال من على صهواتها، وفي القتال بالسيف والرمح من فوق الخيول. وكانت أكثر وقائع العرب منذ الجاهلية مبارزات بين المقاتلين والأبطال. وقد تُختصر المعركة بنتيجة مبارزة بطل من كلّ فريق. كما قدّس الجاهلي الشجاعة ونسج حول الشجعان روايات لا يصدقها العقل أحياناً. ولنا أمثلة عديدة عن ذلك في روايات عنترة بن شداد وسيرة بني هلال والزناتي خليفة وسيف بن ذي يزن وآخرين.

د - تمايز القادة:

وإذا خرجنا من الجاهلية إلى صدر الإسلام، أمكننا القول أن من أسباب نجاح الفتوحات تميز عصر النبي ﷺ بالقادة الكبار والذين تدرّبوا على أيدي رسول الله ﷺ فنبغوا في فن الحروب وإدارة المعارك. لقد انتصر العرب في أكثر معاركهم بقيادة أمراء كخالد بن الوليد وخالد بن سعيد وأبي عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وعلي ابن أبي طالب وعمرو بن العاص وحمزة بن عبد المطلب ويزيد بن أبي سفيان وغيرهم.

علاوة على ذلك عرف الإسلام، منذ بدايته، رجالاً برعوا في فن السياسة والحكم

واصطناع الموالين وعقد العهود أمثال عمرو ابن العاص ومعاوية بن أبي سفيان والمغيرة ابن شعبه وزياد بن أبيه، وخاصة أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب من أهل الحزم والتقوى وصدق الطوية.

هـ - التكيف مع الظروف العسكرية الجديدة:

وتميزت فتوحات العرب المسلمين منذ بدايتها باللیونة والمناورة والتكيف مع الظروف. فهم، بعد أن لمسوا في واقعة مؤتة أن قتال الروم يختلف عن قتال القبائل مع بعضها البعض، بدّلوا في استراتيجية قتالهم وحتى في التكتية التي كانوا يستعملونها. ففيما كانت الغزوات في زمن الرسول ﷺ إغارات وسرايا، أي أشبه بالغزو منها بالاجتياح، وفيما استعمل أبو بكر اللين والشدّة في آن خلال حروب الردّة، تميّزت الحروب ضد الروم والفرس بالحروب التقليدية حيث خاضت الجيوش العربية المجتمعة معارك مجابهة مع أعداء يفوقونهم عدداً وعدّة مستعملة التكتية التي كانت معتمدة في الحروب آنذاك.

هذه التكتية كانت تقضي باعتماد الطليعة والساقة والمجنبة عند التقدّم في بلاد العدو تأميناً لحيطة عظيم الجيش. كما كانت تقضي بالتقدّم نحو العدو بجيوش منفصلة تجتمع لخوض المعركة معه. وخلال المعركة كانت تعتمد خطة وضع الخيالة على الجوانب، فيما الرجالة في الوسط في صفوف عدّة.

هذا التأقلم مع الأوضاع العسكرية الجديدة تمكّنت الجيوش العربية في عهد الخلفاء الراشدين من القيام به بنجاح كلّي، ما أهّلها لخوض المعارك وربحها والانتصار على جيوش عريقة وكبيرة.

كتب جرجي زيدان عن هذا التأقلم مع الأحوال القتالية الجديدة ما يلي:(١)

أصبح العرب بعد فشلهم في واقعة مؤتة قد عرفوا قوّة الروم وخبروا كثرتهم، وعلموا أنّ قتالهم غير قتال أهل البادية الذين كانوا

---

(١) جرجي زيدان، مرجع سابق، جزء ٣١، ص ٧٥.

يغزونهم ببلاد العرب. فلما تحققوا ذلك جعلوا عمدتهم في حروبهم الصبر والمطاولة. والصبر هيّن عليهم لاكتفائهم بالشيء اليسير من الطعام واللباس كما تقدّم، وإذا قلّ زادهم عمدوا إلى الغزو واقتاتوا بما تصل إليه أيديهم من الماشية أو الحنطة أو غيرهما.

وكانت حروبهم في أوّل خروجهم إلى الشام والعراق أشبه بالغزو منها بالفتح، بل تلك كانت قاعدتهم في أكثر فتوحهم. كانوا يرسلون جماعة منهم لغزو البلد الذي يريدون فتحه - وقد لا يكون قصدهم الفتح في بادىء الرأي - فيحومون حول البلد يغزون وينهبون حتى تتاح لهم فرصة الفتح فيغتنمونها. كذلك فعلوا في كثير من فتوحهم في صدر الإسلام وبعده، فإنّ موسى ابن نصير إنّما أرسل طارقاً إلى سواحل إسبانيا سنة ٩٢هـ. غازياً لا فاتحاً، فاتفقت له أسباب ساعدته على الفتح تشبه الأسباب التي ساعدت العرب على فتح الشام فدخل طارق الأندلس. فلما بلغ موسى ذلك استغربه وشق عليه أن لا يكون هو الفاتح فبعث يستوثق منه، إلى آخر ما كان بينهما.

هكذا كان في شأنهم قبل ذلك في فتح أفريقيا وما يليها.

و - خلافات الفرس والروم مع الشعوب المحكومة:

ومن الأسباب التي ساعدت على الفتوحات خلافات الفرس مع دولة لخم التي كانت موالية لهم، وخلافات الروم مع شعوب بلاد الشام ومصر، علاوة على حروبهما بين بعضهما. فالمناذرة الذين كانوا يتولون مصالح فارس في الحيرة والعراق، كانوا في بداية الدعوة، يكرهون الفرس ويخضعون لهم قسراً، خاصة بعد مقتل النعمان بن المنذر الملقّب أبا قابوس من قبل كسرى إبرويز. وبسبب هذا حصلت وقعة «ذي قار» التي انتصر فيها العرب على الفرس.

أما شعوب بلاد الشام ومصر فكانت على خلاف في حكامها من الروم. فأهل الشام الذين كانوا أخلاطاً من الأراميين والسريان والانباط واليهود والفينيقيين وغيرهم، كانت غالبيتهم قد اعتنقت النصرانية على مذهب نسطوريوس ويعقوب البرادعي. وكانت هذه الشعوب، كما شعب مصر من الأقباط، من

أصحاب الطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة، فيما كانت الامبراطورية البيزنطية ترى في المسيح الطبيعتين والمشيئتين. لذلك نكّل الأباطرة بشعوب بلاد الشام ومصر الذين أصبحوا يفضّلون العرب على الروم لأسباب دينية وعرقية، ونظراً لما سمعوا من تسامحهم مع الرعايا من أهل الكتاب الذين يدخلون مناطقهم.

والمثال على تسامح المسلمين يأتي من العهد الذي أعطاه أبو عبيدة لأهل بعلبك التي فتحت صلحاً.(١)

وسنرى لاحقاً عند الحديث عن الفتوحات العربية الإسلامية للشام والعراق ومصر أنَّ شعوب هذه المناطق كانت تفضل العرب على حكامها، لا بل أن بعضها ساعدهم على الفتح كأقباط مصر ويهود فلسطين.

ز - حسن معاملة المسلمين للشعوب المغلوبة:

سبق وذكرنا في هذا الجزء وصية الخليفة أبي بكر إلى أمرائه قبل توجههم لقتال المرتدين عن الدين، ولاحظنا درجة التسامح والتساهل التي تميّزت بها تلك الوصية التي أوصاها أبو بكر أيضاً لقادته المتجهين لفتح العراق وبلاد الشام. كما أن التساهل مع أهل الكتاب وإبقاءهم على دينهم لقاء دفع الجزية وإبقاء أموالهم وأملاكهم بحوذتهم والعدل بين الرعايا وعدم السماح بالتعدّي على الأملاك والأشخاص خاصة في المدن التي تفتتح صلحاً، كلّ ذلك ساعد في بقاء شعوب المناطق المفتتحة على الحياد؛ وأحياناً في مساعدتها المسلمين في حروبهم.

والأمثلة على ذلك كثيرة وجاءتنا من بلاد الشام ومصر وفلسطين والأندلس والعراق وغيرها من المناطق المفتتحة. فعلى سبيل المثال، وفي الأندلس، إنحاز جوليان حاكم مدينة سبتة القوطي إلى المسلمين وقام بنفسه بأول غزوة على شواطىء اسبانيا تمهيداً لفتحها. أما أبناء الملك غيطشة الذي خلعه الملك رودريك، فقد انفصلوا عن

(١) سيأتي الحديث عن هذا العهد لاحقاً في هذا الجزء.

الجيش القوطي في معركة وادي لكّة وانضموا إلى جيش طارق بن زياد الذي انتصر في تلك المعركة.

وخلال فتح مصر، اتفق حاكمها المقوقس، وهو قبطي، مع عمرو بن العاص سراً لتسليمه حصون بلاده منفصلاً بذلك عن الروم الذين كانوا يعاملون شعب مصر من الأقباط معاملة السيد للعبد.

أما معاملة المسلمين للرعايا من العبيد والموالي، بعد تحرير بلادهم، فكانت معاملة الند للند لا سيما عندما كان هؤلاء يعتنقون الإسلام ديناً فيصبحون بذلك متساوين مع أسيادهم تمشياً مع مبدأ المساواة بين المسلمين إذ «لا فضل لمسلم على مسلم إلا بالتقوى».

ومن أوضح الأدلّة على المساواة بين الناس ما كان من أمر ملك غسان جبلة بن الأيهم لما أسلم في خلافة عمر بن الخطاب وقدم المدينة بخيله فخرج أهل المدينة للنظر إلى موكبه. لكن أحد بني فزارة وطيئ إزاره وهو يطوف بالكعبة فرفع جبلة يده وهشّم أنف الفزاري الذي اشتكاه إلى عمر. أرسل عمر إلى جبلة فأتاه فأمر عمر الفزاري أن يفعل بالملك جبلة كما فعل الملك به، فقال جبلة: «وكيف ذلك يا أمير المؤمنين، وهو سوقة وأنا ملك!» - فقال الخليفة: «الإسلام جمعك وإياه، فلست تفضله إلا بالتقى والعافية». عند ذلك فرّ جبلة إلى القسطنطينية ولم يرجع إلى بلاد العرب.

كما ان كلام عمر إلى عمرو بن العاص بعد فتحه مصر أصبح مثالاً يحتذى في الإسلام إذ قال له: «يا عمرو، منذ كم تعبّدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟».

ح - استبقاء الناس على أحوالهم:

كتب جرجي زيدان عن هذا الموضوع:[١]

كان العرب إذا فتحوا بلداً أقرّوا أهله على ما كانوا عليه من قبل لا يتعرّضون لهم في شيء من دينهم أو معاملاتهم أو أحكامهم المدنية أو القضائية أو سائر أحوالهم. كذلك فعلوا بمصر لما فتحها عمرو بن العاص، فإنه

(١) زيدان، مرجع سابق، جزء ٣١، ص ٨٣ - ٨٤.

جعل أمور الأقباط لأنفسهم يحكم في مصالحهم قضاة منهم. وفعلوا مثل ذلك في معظم ما فتحوه من البلاد.

وكان المسلمون يفرضون على من يقبل البقاء على دينه من أهل البلاد المفتوحة ضريبة تسمّى الجزية في مقابل حمايتهم وتأمينهم. وكان الروم قد تعوّدوا أداء مثل هذا المال للعرب المقيمين في حدود الشام من الغساسنة وغيرهم، يبتاعون به نصرتهم على الفرس، كما كان الفرس يؤدّون المال إلى عرب العراق لينصروهم على الروم.

وأما العرب فقد اشترطوا مع دفع المال الخضوع لهم عملاً بنصّ الآية: «حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»، وكانوا مع ذلك يتعهّدون بحماية الذين يدفعون الجزية أي يعتبرونهم في ذمّتهم، ولهذا فقد سمّوا أهل الذمّة. والغالب أن يراد بها حماية أهل البلاد الأصليين من حكامهم الروم لأنهم كانوا يريدون الخروج من طاعتهم وهم يخافون سطوتهم. لذلك لم يكن استيلاء المسلمين ثقيلاً على الناس، بل كان الأهالي كثيراً ما يفضّلونهم على حكّامهم الأصليين، والجزية التي يتكلّفون دفعها إلى المسلمين أقلّ كثيراً من مجموع الضرائب التي كانوا يؤدّونها إلى الفرس».

لكلّ ما تقدّم يمكننا القول أن العرب كانوا مؤهّلين في بداية عهد أبي بكر الصديق للقيام بالفتوحات الكبرى والنجاح فيها، خاصة بعد انتهاء حرب الردّة.

وهذا ما حصل بالفعل.

الفصل التاسع

بدء الفتح على جبهة العراق

في أواخر السنة الثانية عشرة للهجرة، وبعد أن فرغ أبو بكر من حروب الردّة، رأى أن الواجب يدعوه لمتابعة نشر الدعوة الإسلامية التي شملت رسالة سماوية موجهة إلى كلّ الناس: «وما أرسلناك إلا رأفةً للنّاس بشيراً ونذيراً، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. قل لكم ميعادُ يومٍ لا تستأخِرُون عنه ساعةً ولا تستقدمون».(١)

وقد رأى أبو بكر أأن هذه الساعة جاءت وعليه أن لا يستأخرها كما أمر النبي ﷺ. لذلك قرّر البدء بالفتوحات الكبرى وأولها نحو العراق.

أولاً – وضع دولة الفرس في بداية التاريخ الهجري

كانت منطقة العراق، أو بلاد ما بين النهرين، خاضعة للامبراطورية الساسانية الفارسية التي كانت تتواجه في الشرق الأدنى مع الامبراطورية البيزنطية في حروب شبه متواصلة أنهكتهما معاً. وكانت دولة الفرس خاصة تكاد تنهار بسبب النزاعات الداخلية بين قادتها وأمرائها، لا سيما مع تراجع الحماس الديني بعد أن مضى على ظهور الزعيم الديني المجوسي زرادشت مدّة أربعة عشر قرناً من الزمن.

(١) سبأ: ٢٨ – ٣٠.

ومع تراجع الحماس الديني في أواخر عهد الساسانيين، إنهارت العصبية التي كانت تجمع فئات المجتمع الفارسي وتوحّده، فأصبح الدين مكرّساً لخدمة الطبقة العليا من الارستقراطية من الكهنة والنبلاء.(١) وهذا ما دفع بالقادة إلى التطاول على أولاد الملوك الضعفاء المنشغلين بالصراع مع بعضهم البعض.

وعانت الامبراطورية الساسانية، عند قيام الفتوحات، من مشكلات داخلية سياسية واجتماعية واقتصادية خطيرة دفعتها أيضاً في طريق الضياع.

وكانت فارس قد ساهمت في عصور سابقة في قيام دولة عربية في منطقة الحيرة، هي دولة لخم أو دولة المناذرة. لكن هذه الدولة لم تكن موجودة فعلاً عند قيام الفتوحات. وكانت منطقة بلاد ما بين النهرين ميداناً لتحرّكات القبائل العربية منذ حقب طويلة سبقت القرن السابع ميلادي.

كما أن قسماً من سكان العراق كان من أصل عربي وهم على استعداد للتعاون مع أي قوّة عربية محاربة. وكانت القبائل العربية في صراع دائم مع الفرس وقد حققت، في بداية الإسلام، نصراً على جيوشهم في يوم ذي قار.(٢)

ومع بداية خلافة أبي بكر الصديق، كان أحد زعماء قبيلة شيبان، من بكر بن وائل التي اعتنق الاسلام قسم منها، وهو المثنى ابن حارثة قد أخذ المبادرة بالعمل العسكري ضد مملكة فارس على عاتقه. وسيلعب المثنى دوراً مهماً في المعارك التي ستؤدّي إلى فتح العراق أمام الجيوش العربية الإسلامية.

وكان النبي ﷺ قد اتجه بأنظاره إلى شمال وشرق شبه الجزيرة العربية لمتابعة نشر الدعوة، فوجه سرية بقيادة عمرو بن العاص إلى تخوم الشام، كما صمّم ونفذ غزوة مؤتة إلى تخوم بلاد الشام بقيادة زيد بن حارثة. وأرسل الخليفة أبو بكر سرية أسامة بن زيد.

---

(١) أحمد لواساني، نظرات جديدة في تاريخ الاداب، ص ٢٥٦ - ٢٥٨.

(٢) أنظر الجزء الأول من هذه الموسوعة. - وعن «ذي قار» قال رسول الله ﷺ «هذا اليوم انتصر فيه العرب من العجم، وبي نُصِروا».

وكلّ هذه السرايا والغزوات ما هي إلاّ مؤشّر واضح على اهتمام النبيّ ﷺ وخليفته بما جاور شبه الجزيرة العربية من بلاد.

أما الجيش الفارسي، فرغم أن عديده كان كبيراً، إلا أن عدم تجانسه كان أهم نقاط ضعفه. جاء في كتابنا «المجتمعات العسكرية عبر التاريخ» وصف دقيق لهذا الجيش إذ كتبنا:(١)

«يقول كسرى انو شروان، وفق رواية ابن خلدون أنه «لولا الجيش لما كان الملك، ولولا موارد الدولة ما كان الجيش، ولولا الضرائب ما كانت الموارد، ولولا الزراعة ما كانت الضرائب، ولولا الحكومة العادلة ما كانت الزراعة».

ففي رأس القائمة يأتي الجيش بسبب أهميته القصوى في دولة قامت على التوسع والعنف والمفاهيم العسكرية.

والجيش هو العماد الحقيقي لسلطة الملك التي كانت تدوم طالما احتفظت بقدرتها العسكرية. وكان يفرض على كلّ رجل صحيح الجسم بين الخامسة عشرة والخمسين من عمره أن ينضم إلى القوات العسكرية كلّما أعلنت الحرب. وصدف في إحدى المرات أن طلب والد لثلاثة أبناء إعفاء أحدهم من الخدمة، فما كان من الملك إلاّ أن أمر بقتلهم جميعهم أمام والدهم. كما أحرق الإبن الخامس لوالد طلب إعفاءه بعد أن أرسل للخدمة أبناءه الأربعة الآخرين.

كان الجنود يسيرون إلى الحرب وسط دوي الموسيقى العسكرية وهتاف جماهير الشعب ممن تجاوزوا سن التجنيد.

أهم فرق الجيش هو الحرس الملكي ويتألّف من ألفي فارس وألفين من المشاة، وجميعهم من الأشراف المكلفين بحراسة الملك.

وتتألّف القوات الحربية من فرق تجند من جميع الأمم التي كانت خاضعة لسلطان الفرس. وكانت كلّ فرقة تتكلّم لغتها وتقاتل بأسلحتها وتتبع أساليبها الحربية الخاصة. لذلك اختلفت الأسلحة من وحدة إلى أخرى. كما أن هذه الجحافل الجرارة التي بلغ تعدادها في إحدى الحملات مليون وثمانماية ألف مقاتل لم تشكل قط وحدة

(١) العميد سامي ريحانا، دكتور، المجتمعات العسكرية عبر التاريخ، دار الحداثة، بيروت، ص ١٠١ - ١٠٢.

متجانسة. وهنا تكمن نقطة الضعف في الجيش الفارسي، لأن أول بادرة ضعف خلال المعركة قد تتحوّل إلى هزيمة من قبل الجموع الغوغائية التي لا يجمعها سوى السلطة.

هذه الجيوش قادها الملوك الفرس من نصر إلى نصر خلال تاريخهم الطويل الذي امتدّ حتى منتصف القرن السابع ميلادي حين اصطدمت الإمبراطورية الفارسية بقوات الفتح العربية المظفرة التي أنهت سيطرتها في الشرق الأدنى. ولا مجال في دراستنا هذه لتعداد الحملات الكبرى التي قادها هؤلاء الملوك بهدف إخضاع الأقاليم والأمم في آسيا وأفريقيا وشرق أوروبا».

ثانياً – بدء الفتوحات

مع نجاح المثنى في غاراته أراد أن يضفي عليها الشرعية الإسلامية وأن يجعل تحرير العراق ونشر الإسلام فيه أحد أهداف الخليفة. لذلك زار المدينة المنوّرة واجتمع بالخليفة أبي بكر الذي كلّفه بمتابعة الهجمات فعاد المثنى إلى بلاده وأبلغ قبيلة شيبان أن الغزوات ستزداد حدّة كونه مكلفاً بها من أمير المؤمنين الذي أدرك الوضع المتردّي الذي تتخبّط فيه المملكة الساسانية.

وراح المثنى يغير مع رجاله على جنوب العراق ويتوغلون أحياناً إلى مسافات داخل السواد حتى يبلغون المدن الداخلية حيث لمس المثنى ضعف مقاومة الجنود الفرس. لذلك قرّر طلب قوى عسكرية جديدة من الخليفة كي يقوم بفتح تلك البلاد فأرسل شقيقه مسعود إلى الخليفة لطلب النجدة.

قَبِل الخليفة وقرّر خطة تقضي بإرسال جيشين منفصلين إلى العراق ينضم إليهما المثنى.

أ – خطة غزو العراق:

قضت خطة أبي بكر لغزو العراق بتسيير جيشين يكون هدفهما الحيرة قصبة المناذرة. الجيش الأول بقيادة خالد بن الوليد، يتجه من اليمامة حيث كان موجوداً ويبدأ فتوحاته من الجنوب ويحتل المدن والموانىء والقرى، وصولاً إلى الحيرة حيث يلتقي بالجيش الثاني لمحاصرتها.

خارطة خالد في العراق



الجيش الثاني بقيادة عيّاض بن نجم يسير شمالاً على الحدود السورية - العراقية إلى المُصيخ»، ثمّ ينحدر جنوباً نحو الحيرة حيث يلتقي بجيش خالد. ومن وصل إلى الحيرة أولاً يصبح قائد الجيشين.

كتب الطبري عن بداية غزو العراق ما يلي:(١)

«قال هشام: قال أبو مخنف: فحدّثني أبو الخطّاب حمزة بن عليّ، عن رجل من بكْر ابن وائل، أنّ المثنى بن حارثة الشَّيبانيّ، سار حتى قدم على أبي بكر رحمه الله، فقال: أمِّرني على مَن قِبَلي من قومي؛ أقاتل من يليني من أهل فارس، وأكفيك ناحيتي، ففعل ذلك. فأقبل فجمع قومه وأخذ يُغير بناحية كَسْكَر مرّة، وفي أسفل الفرات مرّة. ونزل خالد بن الوليد النِّباج والمثَنَّى بن حارثة بخفّان معسكر، فكتب إليه خالد بن الوليد ليأتيه، وبعث إليه بكتاب من أبي بكر يأمره فيه بطاعته؛ فانقضّ إليه جواداً حتى لحق به. وقد زعمت بنو عجْل أنّه كان خرج مع المثنّى بن حارثة رجلٌ منهم يقال له مذعور بن عديّ، نازع المثنَّى بن حارثة، فتكاتبا إلى أبي بكر؛ فكتب أبو بكر إلى العجْليّ يأمره بالمسير مع خالد إلى الشام، وأقرّ المثنّى على حاله».

كتب الخليفة إلى خالد كتاباً طويلاً، مما جاء فيه:

«ومتى وصلك كتابي هذا أسرع بالتوجه نحو العراق واتفق مع المثنى بن حارثة، وكن معه يداً واحدة وعلى رأي واحد. وعلى جميع المسلمين الطاعة والانتقال معك، وسيجزيهم الله تعالى في الدارين خير جزاء».

كما أمره ان يبدأ بفرج الهند أي «الأبُلة»، وأن لا يكره أحداً على المسير معه، ولا يستعين بمن ارتد عن الإسلام وإن كان عاد إليه.(٢)

وكتب أيضاً إلى عياض بن غنم أن «سر حتى تأتي المُصيخ، فابدأ بها، ثمّ ادخل العراق من أعلاها حتى تلقى خالداً. وأذنّا

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٠٨.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٣٨.

لمن شاء بالرجوع ولا تستفتحا بمتكاره. ثمّ استبقا إلى الحيرة، فأيكما سبق إلى الحيرة فهو أمير على صاحبه...».

كما كتب إلى المثنى يقول:

«إني قد كتبت إلى خالد بن الوليد بأن يسرع لإعانتك، فأحسن استقباله واعرف له حقه، وقوله تعالى «أشداء على الكفّار، رحماء بينهم»[1] كما أمره أن يلتحق بخالد بالأُبُلّة.[2]

إنسحب من جيش خالد عدد كبير، لذلك طلب مدداً من الخليفة فأمدّه بالقعقاع ابن عمرو التميمي،[3] وأمدّ عياض بعبد بن غوث الحميري.

كتب ابن الأثير عن تقدّم خالد بن الوليد نحو الأُبلة:[4]

«وكتب أبو بكر إلى المثنى، وحرملة، ومعذور، وسلمى أن يلحقوا بخالد بالأُبُلّة فقدم خالد ومعه عشرة آلاف مقاتل، وكان مع المثنى وأصحابه ثمانية آلاف، ولما قدم خالد فرّق جنده ثلاث فرق ولم يحملهم على طريق واحد: على مقدمته المثنى، وبعده عديّ بن حاتم، وجاء خالد بعدهما، ووعدهما الحفير ليجتموا به، وليصادموا عدوّهم. وكان ذلك الفرج أعظم فروج فارس شأناً وأشدّها شوكة. فكان صاحبه أسوار اسمه هرمز، فكان يحارب العرب في البر، والهند في البحر. فلما سمع هرمز بهم كتب إلى أردشير الملك بالخبر [وجمع جموعه] ثم تعجل هو إلى الكواظم في سرعان أصحابه [ليتلقى خالداً] فسمع أنهم تواعدوا الحفير فسبقهم إليه، ونزل به، وجعل على مقدمته قباذ وأنوشجان وكانا من أولاد أردشير الأكبر. واقترنوا في السلاسل لئلا يفروا فسمع بهم خالد فمال بالناس إلى كاظمة

---

(١) الفتح: من الآية ٢٩.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٣٨.

(٣) هو من قريش شهد بدراً وأحد والخندق. قيل ان الخليفة سُئل كيف يمدّ قائداً برجل واحد، فقال: «لا يُهز جيش فيه مثل هذا الرجل». عن ابن الأثير، جزء ٢، ص ٢٣٨. وقد لعب القعقاع دوراً مهماً في معارك العراق لا سيما في معركة القادسية. وهذا ما سنفصله لاحقاً.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٣٩.

فسبقه هرمز إليها، وكان سيىء المجاورة للعرب، فكلّهم عليه حَنِق، وكانوا يضربونه مثلاً [في الخبث] فيقولون: أكفر من هرمز».

وأخذ خالد يستنفر المسلمين من قبائل طيئ وتميم وقضاعة وحمير وربيعة ومُضر من الذين ينزلون في تلك النواحي، ولم يكن معه عندما تلقى أمر الخليفة بالتوجه إلى العراق سوى عشرة آلاف مقاتل من قبيلتي ربيعة ومضر.

أما المثنى فقد أسرع من مكان إقامته في سواد الكوفة إلى مكان تجمّع جيش خالد من النباج فأمدّه بثمانية آلاف مقاتل،[1] فبلغ عدد جيشه ثمانية عشر ألف مقاتل.

ب - غزوة ذات السلاسل ودخول الابُلّة:

مع اكتمال عديد جيش خالد وتجهيزه، سار نحو جنوب العراق ودخل السواد منه[2] في طريقة نحو الابلة. ومع وصوله إلى السواد علم بقدومه «ابن صلوبا» رئيس قريتي «بانقيا» و«باروسما»، فخاف على أهله فقابل خالداً وصالحه على الجزية فكتب له خالد كتاباً جاء فيه:

«إنك آمن بأمان الله. وقد أُعطيت عن نفسك وعن أهل خرجك وجزيرتك ومن كان في قريتيك بانقيا وباروسما ألف درهم... فلك ذمة الله وذمة محمّد ﷺ وذمة المسلمين على ذلك».

وكان هذا الصلح بداية في فتوح المسلمين للعراق، أمدهم بمعنويات وثقة بالنفس.

كتب ابن كثير عن مصالحة ابن صلوبا:[3]

«وقال محمّد بن إسحاق عن صالح بن كيسان: إن أبا بكر كتب إلى خالد أن يسير إلى العرق فمضى خالد يريد العراق حتى نزل بقريات من السواد يقال لها بانقيا

---

(١) المقدّم ياسين سويد، معارك خالد بن الوليد، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٣، ص ١٧١.

(٢) كان سواد العراق قرى عدة سكانها من العرب النصارى ويقع على الطريق نحو الابلة وهي أكبر موانئ العراق يومذاك.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٣٨.

وباروسما، وصاحبها جابان، فصالحه أهلها. قلت: وقد قتل منهم المسلمون قبل الصلح خلقاً كثيراً. وكان الصلح على ألف ألف درهم، وقيل دينار، في رجب. وكان الذي صالحه بُصبهُرَى بن صلوبا، ويقال صلوبا بن بُصْبُهْرَى، فقبل منهم خالد وكتب لهم كتاباً».

وتابع خالد سيره إلى أن اقترب من مشارف الابلة، وكان عليها رجل فارسي اسمه «هرمز»، فكتب إليه خالد يدعوه إلى الإسلام أو الجزية وإلا «فلا تلومن إلا نفسك، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة».(١)

ثمّ قسم خالد جيشه ثلاث فرق:

الأولى: بقيادة المثنى بن حارثة ودليله «ظفر».

الثانية: بقيادة عدي بن حاتم وعاصم بن عمرو ودليلاهما مالك بن عباد وسالم ابن نصر.

الثالثة: بقيادته ودليله رافع بن عمير.

وحدّد لكلّ فرقة طريقاً، على أن تلتقي في «الحفير» في مكان قريب من الابلة، وبجانبه خندق اسمه «خندق سابور».

ولما قرأ هرمز كتاب خالد غضب وقرّر المواجهة وأخذ يجمع الفرس وبعض العرب للقتال، فجهز جيشاً على عجل وخرج من الابلة واتجه نحو بلدة يقال لها «كاظمة» حيث يوجد ماء وفير صالح للشرب. ثمّ أرسل إلى ملك الفرس شيرويه بن كسرى وإلى ابنه أردشير يطلب منهما مدداً.

ولجأ هرمز إلى طريقة فريدة في تثبيت الجنود في ميدان المعركة فأمر بربط أقدامهم بالسلاسل بعد أن استشار كبار قاده. ثمّ وضع على ميمنة جيشه القائد «قُباذ» وعلى الميسرة «أنو شجان».

وفي كاظمة التقى الجيشان حيث نقل ابن الأثير رواية عن بداية القتال فكتب:(٢)

«وقدم خالد فنزل على غير ماء فقال له أصحابه في ذلك: ما تفعل؟ فقال لهم: لعمري ليصيرن الماء لأصبر الفريقين [وأكرم الجندين]. فحطوا أثقالهم [والخيل وقوف]

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٣٨.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٣٩.

وتقدّم خالد إلى الفرس. فلاقاهم [واقتتلوا] وأرسل الله سحابة فأغدرت وراء صف المسلمين فقويت قلوبهم. وخرج هرمز ودعا خالداً إلى البراز وواطأ أصحابه على الغَدْر بخالد. فبرز إليه خالد ومشى نحوه راجلاً ونزل هرمز أيضاً وتضاربا، فاحتضنه خالد، وحمل أصحاب هرمز فما شغله ذلك عن قتله. وحمل القعقاع بن عمرو فأزاحهم، وانهزم أهل فارس، وركبهم المسلمون [إلى الليل]. وسميت الوقعة «ذات السلاسل»، ونجا قباذ وأنو شجان».

وهكذا كان على المسلمين الاستبسال في القتال للوصول إلى الماء، وهذا ما حصل فعلاً إذ نشب قتال ضارٍ بين الفريقين بعد أن قتل خالد هرمز. لكن الفرس سرعان ما أخذوا بالفرار أمام المسلمين خاصة بعد مقتل قائدهم، غير أن المسلمين لاحقوهم وقتلوا منهم العدد الأكبر، لا سيما أنهم كانوا مقيدين بالسلاسل. لذلك سميت هذه الوقعة «ذات السلاسل».

وقسّم خالد الغنائم فأعطى المقاتلين أربعة أخماسها وأرسل الخمس إلى الخليفة مع البشارة بأول نصر على جبهة العراق. وذكر ابن الأثير أن بين الغنائم كانت قلنسوة هرمز التي تساوي مائة ألف درهم لكثرة ما وضع فيها من الجواهر واللآلىء.[1]

ثمّ تقدّم خالد نحو البصرة في طريقه إلى الابلة فنزل بموضع الجسر الأعظم فيها قبل أن يتغلّب على جيش الفرس الذي كان يدافع عن الابلة. ثمّ أرسل معقل بن مقرن إلى الابلة ففتحها وجمع الأموال بها والسبي بانتظار قدوم خالد إليه.

وبوصول خالد إلى الابلة جمع السبي والأموال والغنائم وترك الفلاحين في أرضهم دون أن يسبي أحداً منهم لقاء دفع الخراج عن أملاكهم.[2]

وهكذا سقطت الابلة أكبر ميناء في ذلك العصر على شط العرب وأغنى مدينة في المنطقة، مما أدخل إلى الخزينة في المدينة أموالاً طائلة لم يسبق للعرب ان غنموا مثلها.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٣٩.

(٢) وكانت خطة القادة المسلمين تقضي بترك المزارعين في أرضهم لقاء دفع الخراج لأن العرب اعتبروا أنفسهم طبقة عسكرية مميّزة لا تمارس الأعمال الزراعية.

ج - الدروس المستقاة:

١ - وضع الخليفة أبو بكر خطة غزو العراق دون أن يهمل أي تفصيل، فوجّه خالداً بن الوليد إلى الحيرة من الجنوب على أن يقصدها جيش عيّاض بن غنم من الشمال فيتم تطويقها كهدف أولي للغزو.

وبغية توحيد قيادة المسلمين، حدّد أبو بكر أن الذي يصل الحيرة أولاً يكون القائد العام. فوحدة القيادة شرط أساسي لخوض معركة ناجحة. ولنا في التاريخ العسكري أمثلة عدّة عن خسارة معارك بسبب تعدّد القادة للجيش الواحد. خير مثال هو معركة «كان» التي كان يقود الجيش القرطاجي خلالها القائد هنيبعل، فيما أن جيش الرومان يتبادل على قيادته القنصلان بول إميل وڤارون فيقود كلّ منهما هذا الجيش ٢٤ ساعة يتبعه بعدها الثاني. وقد خسر الرومان المعركة رغم تفوّق جيشهم العددي على جيش هنيبعل.

٢ - أحسن الخليفة أبو بكر بعدم إجبار أي من المقاتلين في جيشي خالد وعياض بالسير معهما إلى الحيرة، وهكذا عاد قسم من الجند، الأمر الذي دفعه إلى إرسال مدد لهما. فالمقاتل الذي يذهب إلى القتال ملزماً لا يمكنه أن يعطي نتيجة فعّالة. لذلك يعمد القادة إلى تحفيز الجند لخوض القتال برغبة صادقة وتصميم واندفاع. وهكذا يكونون قد أحسنوا تطبيق مبدأ الحرب الثالث أي «الحصيل الأقصى للوسائل».

٣ - قام خالد بالتعبئة العامة للمسلمين من قبائل طيئ وتميم وقضاعة وحمير وربيعة ومضر وذلك بهدف جمع أكبر قدر ممكن من المقاتلين تطبيقاً لمبدأ الحرب الأول أي «نسبية الأهداف للوسائل». وبالفعل، وبعد أن انضمّت إليه قوات المثنى بن حارثة، أصبح لديه جيش قوي خاف منه ابن صلوبا فصالح المسلمين دون قتال. وهكذا أعطت خطة خالد نتيجتها. وكان هذا الصلح بداية الفتوحات في العراق وحافزاً للمسلمين لمتابعة حملتهم بمعنويات مرتفعة.

٤ - نقل خالد جيشه نحو الابلة بطرق ثلاث محدداً لكلّ فرقة طريقاً ومعها دليل كي لا تضيع في الصحراء، على أن يلتقي الجميع في الحفير. ثمّ انزل قواته بعيداً عن الماء قائلاً لهم: «ليصيرن الماء لأصبر

الفريقين». لقد أحكم خالد خطته وحدّد تفاصيلها فجاءت واضحة وآمنة.

أما هرمز فإنه، وبسبب عدم ثقته بجنوده، أمر بربط أقدامهم إلى بعضهم بالسلاسل، فكوّن ذلك أول الوهن. فبدلاً من تحفيزهم للقتال، أظهر عدم ثقته بهم. وبالفعل، وبعد أن قاتله خالد وقتله، راح عناصره يفرون أمام المسلمين الذين تمكّنوا من قتل عدد كبير منهم بسبب ربطهم بالسلاسل.

بالمقابل، رفع خالد من معنويات جنوده من خلال مقاتلته لقائد الفرس وقتله، وحفّزهم للقتال بأن أنزلهم بعيداً عن الماء كي يقاتلوا بشراسة للوصول إليه لا سيما وأن للماء أهمية كبرى في قتال الصحراء. فالثقة المتبادلة بين الرئيس والمرؤوسين وإعطائه المثل الصالح لهم يساهمان في ربح المعركة.

٥ - وبعد سقوط الابلة، ثبّت خالد الفلاحين في أرضهم دون أن يسبي أحداً منهم لقاء أتاوة يدفعونها. وفي هذا التدبير سياسة حكيمة إذ أن الشعوب التي كانت تسيطر عليه المملكة الساسانية لم تكن جميعها من الفرس، ولا يربطها بقيادتها السياسية ولاء ثابت ودائم. لذلك كانت معاملة المسلمين الحسنة لها سبباً كافياً لقبولها انتقال السيادة عليها إلى العرب بسهولة.

من جهة أخرى، اقتصد خالد بجنده فلم يخصص بعضاً منهم لحماية المناطق المفتتحة مؤمناً بذلك جهوزية جيشه الكاملة والدائمة ومحققاً مبدأي الحرب الثاني (حرية العمل) والثالث (الحصيل الأقصى للوسائل).

د - وقعة الثني أو المذار:

كان لسقوط الابلة وقع عظيم على الجانبين المتحاربين، ففيما هلّل المسلمون لهذا الانتصار وقويت معنوياتهم لا سيما بعدما تأكّدوا من ضعف الجيش المقابل، صدمت الهزيمة الفرس الذين راحوا يخشون مقابلة العرب في معارك مقبلة.

وكان هرمز قد سبق وأرسل كتاباً إلى شيرويه وأردشير يعلمهما فيه عن تقدّم الجيوش العربية في داخل العراق. لذلك راحا يجندان الجموع من مختلف الولايات حتى جهزا جيشاً كبيراً وعيّنا «قارن بن قريانس» قائداً له على أن يتوجّه إلى الولجة لنجدة هرمز.

في هذا الوقت كان جيش هرمز قد هُزم وانسحبت فلوله باتجاه بلدة المذار حيث التقت بجيش قارن المتقدّم نحو الابلة فأعلمته عناصرها بالهزيمة. والتحقت فلول المنسحبين بجيش قارن الذي غضب لسماعه خبر الهزيمة.

أما خالد بن الوليد فقد أمر المثنى بن حارثة الشيباني بملاحقة الفرس المنسحبين والإبقاء على التماس معهم. فعبر المثنى الفرات بجيشه لتعقب المنهزمين الذين تمكّنوا من الانضمام إلى جيش قارن الذي كان يعاونه أميران من بيت أردشير، والذي عسكر بجيشه في «المذار» على ضفة نهر الثني بانتظار الجيش العربي بعد أن جعل على ميمنته وميسرته ما تبقى من جيش هرمز.[1]

١ - مجرى المعركة:

كتب ابن الأثير عن مجرى المعركة ما يلي:[2]

«لمّا وصل كتاب هرمز إلى أردشير بخبر خالد أمدّه بقارن بن قريانس [فخرج قارن من المدائن ممد لهرمز]؛ فلمّا انتهى إلى المذار لقيته المنهزمون، فاجتمعوا، ورجعوا ومعهم قباذ وانوشجان. ونزلوا الثني - وهو النهر - وسار إليهم خالد فلقيهم، واقتتلوا، فبرز قارن فقتله معقل بن الأعشى بن النباش، وقتل عاصم أنو شجان، وقتل عدي بن حاتم قباذ، وكان شرف قارن قد انتهى، ولم يقاتل المسلمون بعده أحداً انتهى شرفه [في الأعاجم]. وقتل من الفرس مقتلة عظيمة يبلغون ثلاثين ألفاً سوى مَن غَرِق، ومنعت المياه المسلمين من طلبهم. وقسم الفيء وأنفذ الأخماس إلى المدينة وأعطى الأسلاب من سلبها، وكانت الغنيمة عظيمة وسبى عيالات المقاتلة. وأخذ الجزية من الفلاحين وصاروا ذمة. وكان في السبي أبو الحسن البصري، وكان نصرانياً. وأمّر على الجند سعيد بن النعمان، وعلى الحرز سويد من مقرّن المزني، وأمره بنزول الحفير [وأمره

(١) سويد، مرجع سابق، ص ١٧٥.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٤٠.

ببث عماله، ووضع يده في الجباية]، وأقام يتجسس الأخبار».

أما ابن كثير فقد كتب عن المعركة نفسها:(١)

«ثمّ كانت وقعة المذار في صفر من هذه السنة. ويقال لها: وقعة الثني، وهو النهر. قال ابن جرير ويومئذٍ قال الناس، صفرُ الأصفار، فيه يقتل كلّ جبار، على مجمع الأنهار. وكان سببها أن هرمزاً كان قد كتب إلى أردشير وشيري، بقدوم خالد نحوه من اليمامة، فبعث إليه كسرى بمدد مع أمير يقال له: قارن بن قريانس، فلم يصل إلى هرمز حتى كان من أمره مع خالد ما تقدّم وفر من فر من الفرس، فتلقاهم قارن، فالتفوا عليه فتذامروا واتفقوا على العود إلى خالد. فساروا إلى موضع يقال له: المذار، وعلى مجنبتي قارن قباذ وأنو شجان. فلما انتهى الخبر إلى خالد، قسم ما كان معه من أربعة أخماس غنيمة يوم ذات السلاسل وأرسل إلى الصدّيق بخبره مع الوليد بن عقبة، وسار بمن معه من الجيوش حتى نزل على المذار، وهو على تعبئته، فاقتتلوا قتال حنق وحفيظة. وخرج قارن يدعو إلى البراز فبرز إليه خالد وابتدره الشجعان من الأمراء فقتل معقل بن الأعشى بن النباش قارناً، وقتل عدي بن حاتم قباذ، وقتل عاصم أنوشجان، وفرت الفرس وركبهم المسلمون في ظهورهم فقتلوا منهم يومئذٍ ثلاثين ألفاً وغرق كثير منهم في الأنهار والمياه. وأقام خالد بالمْذار وسلم الأسلاب إلى من قتل، وكان قارن قد انتهى شرفه في أبناء فارس. وجمع بقية الغنيمة وخمّسها، وبعث بالخمس والفتح والبشارة إلى الصديق، مع سعيد بن النعمان، أخي بني عدي بن كعب. وأقام خالد هناك حتى قسم أربعة الأخماس وسبى ذراري من حصره من المقاتلة، دون الفلاحين فإنه أقرهم بالجزية. وكان في هذا السبي حبيب أبو الحسن البصري وكان نصرانياً ومافنّة مولى عثمان وأبو زياد مولى المغيرة بن شعبة. ثمّ أمر على الجند سعيد بن النعمان وعلى الجزية سويد ابن مقرّن، وأمره أن ينزل الحفير ليجبي إليه

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٣٩ - ٣٤٠.

الأموال. وأقام خالد يتجسّس الأخبار عن الأعداء».

وهكذا، وبعد أن توغّل المثنى في العراق، علم من جواسيسه أن قارن قد نزل المذار[1] وحشد جيشاً كبيراً، فأبلغ خالداً وطلب منه المدد، فكان خالد المدد نفسه.

وصل خالد إلى المزار وجيشه كامل التعبئة.[2] وأثناء تقدّمه مرّ بقرية «زندورد» التي قاتله أهلها برمي النبال من داخلها، فافتتحهما عنوة كما افتتح قرية أخرى اسمها «دُونَى» صلحاً ودخل أهلها في ذمة المسلمين لقاء الجزية. ثمّ افتتح «هزجرد» صلحاً أيضاً، إلى أن وصل إلى المذار حيث جيش الفرس.

اصطف الجيشان مقابل بعضهما، جيش المسلمين وخلفه الفرات وأمامه الفرس والثنى؛ وجيش الفرس، وخلفه الثنى، وأمامه المسلمون والفرات. ونزل قارن قائد جيش الفرس للمبارزة فهرع إليه خالد ومقاتل مسلم اسمه معقل بن الأعشى بن النّباش أدركه قبل خالد حيث دارت معركة بينهما بالسيوف قتل في نهايتها قارن.

بعد ذلك جرت معركة طاحنة بين الجيشين، فقتل قائدا ميمنة الفرس وميسرتهم فأصبح الجيش الفارسي وقد خسر قادته الثلاثة في بداية المعركة مما ضعضع صفوفه فأخذ مقاتلوه يحاربون من دون تنظيم ولا توجيه، فاخترق المسلمون صفوفهم وأخذت معالم النصر العربي تظهر.

راح جند الفرس يلقون أنفسهم في الماء للوصول إلى سفنهم الراسية في النهر والهرب بها والمسلمون يلاحقونهم قتلاً وطعناً إلى أن انجلت المعركة عن نصر كبير للمسلمين ذهب بنتيجته ثلاثون ألفاً من الفرس بين قتيل وغريق.

جمع المسلمون الغنائم فأخرج منها خالد الخمس وأرسله إلى الخليفة وقسّم الأخماس الأربعة على المقاتلين.

---

(١) المذار مدينة صغيرة من مدن شط دجلة على الشاطىء الشرقي منه. وعند شاطئها تلتقي الروافد لنهر دجلة المنحدرة من جهة الشرق. ومنها تتشعّب الطرق إلى الأهواز وفارس والسواد.

(٢) كان خالد يسير دائماً وجيشه كامل التعبئة بشكل يسمح له بمباشرة القتال في كلّ لحظة.

٢ - تدابير خالد بعد معركة المذار:

بعد انتهاء المعركة قام خالد بترتيبات مهمّة أبرزها:

١ - سبي أسر المقاتلين ومن أعانهم في الحرب ضد المسلمين.

٢ - إبقاء الفلاحين على أرضهم وفرض الجزية عليهم.

٣ - إيجاد نظام الحاميات لحماية المدن المفتتحة بتعيين قائدٍ مع عدد من الجند لكلٍّ منها.

كتب الطبري عن أحداث المذار الآتي:(١)

«رجع الحديث إلى حديث سيف، عن محمّد بن نويرة، عن حنظلة بن زياد، قال: وخرج المثنّى حتّى انتهى إلى نهر المرأة، فانتهى إلى الحصن الذي فيه المرأة، فخلَف المُثنّى بن حارثة عليه، فحاصرها في قَصرها. ومضى المثنى إلى الرّجل فحاصره ثمّ استنزلهم عَنْوةً؛ فقتلهم واستفاء أموالهم. ولمّا بلغ ذلك المرأة صالحت المثنّى وأسلمت، فتزوّجها المثنّى، ولم يحرّك خالد وأمراؤه الفلاّحين في شيء من فتوحهم لتقدُّم أبي بكر إليه فيهم. وسَبى أولاد المقاتلة الّذين كانوا يقومون بأمور الأعاجم، وأقرّ من لم ينهض من الفلاحين، وجعل لهم الذّمّة؛ وبلغ سهمُ الفارس في يوم ذات السلاسل والثّنْي ألف درهم، والراجل على الثلث من ذلك.

قال: وكانت وقعة المذار في صفر سنة اثنتي عشرة، ويومئذ قال الناس: صفر الأصفار، فيه يقتَل كلّ جبّار، على مجمع الأنهار».

٣ - الدروس المستقاة:

أ - في طريقه نحو بلدة المذار، التقى جيش الفرس بفلول المنهزمين في وقعة ذات السلاسل، الأمر الذي أثّر سلباً على معنويات جنوده قبل مواجهتهم للمسلمين.

أما جيش المسلمين المقابل، فكان يتمتع بمعنويات مرتفعة لأسباب شتى نذكر منها:

- انتصاره على الفرس.
- ملاحقته لفلول المنهزمين.

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣١١.

- فتح قرى عدّة أثناء تقدّمه باتجاه مكان المعركة الجديد.

وهكذا كان جنود جيش خالد بن الوليد يتحرّقون شوقاً لمواجهة الفرس مجدداً في معركة مفتوحة.

ب - جعل قارن قائد جيش الفرس وحدات المنهزمين من وقعة ذات السلاسل على ميمنة وميسرة جيشه فارتكب بذلك خطأً استراتيجياً بسبب ضعف معنويات هؤلاء إثر الهزيمة المنكرة التي تعرضوا لها، وبذلك أضعف ميمنته وميسرته.

وللميمنة والميسرة نفس الأهمية التي تعطى عامة للقلب خلال المعركة. فانهزامهما يجعل قلب الجيش معرضاً للتطويق والإبادة. وهذا ما حصل بالفعل في معارك عدّة من التاريخ العسكري، نذكر منها الآتي:

- خلال معركة كانت سنة ٢١٦ق.م، قامت خيالة هنيبعل بمهاجمة ميمنة وميسرة الجيش الروماني فوضعتها خارج القتال خلال مدّة ساعة فقط. وهكذا أصبحت جوانب هذا الجيش مكشوفة، الأمر الذي سمح للقائد القرطاجي بتطويقه وإبادته.

- خلال معركة ستالنغراد سنة ١٩٤١، كلف القائد العام الألماني الجنرال فان باوليس وحدات رومانية وتشكيكية متوسّطة القيمة بالمشاركة بالهجوم العام على مدينة ستالنغراد على ميمنة وميسرة فرق جيشه الالمانية. دمرت هذه الوحدات فأصبحت ميمنة وميسرة جيشه مكشوفة فطوّقه الروس تطويقاً كاملاً مما اضطره إلى الاستسلام.

ج - بالمقابل، كان خالد بن الوليد يسير دائماً وجيشه على تعبئة تامة، الأمر الذي كان يمكّنه من خوض القتال فور بلوغ ساحة المعركة مما يفاجىء خصمه.

د - في بداية القتال، بارز القادة المسلمون قادة قلب وميمنة وميسرة جيش الفرس فقتلوهم، فأصبح المقاتلون الفرس دون قادة فتضعضعت صفوفهم وأخذوا يقاتلون دون تنظيم ولا توجيه، فخسروا المعركة.

لم يحتَط الفرس لقضية مقتل قادة جيشهم كما كان يفعل المسلمون إذ سبق وأوردنا حالات عدّة كان النبيّ ﷺ أو الخليفة يسمي البديل عن القائد الذي يقتل، وذلك لعدم خلق فراغ في القيادة

يؤدي إلى البلبلة والفوضى. فالجيش لا يمكنه القتال دون قائد لأن الحرب هي عملية تنفيذية بحتة يتتابع خلالها الفعل وردّة الفعل، وتحصل خلالها تغييرات في الخطط وتحرّكات للوحدات من قطاع إلى قطاع آخر لا يمكن أن تنفّذ دون قيادة واعية تصدر الأمر المناسب في الوقت المناسب.

هـ - أحسن خالد بن الوليد اختيار مكان المعركة إذ ارتكز بمؤخّرة جيشه إلى نهر الفرات فأمّن بذلك حمايتها محققاً مبدأ الحرب الثاني أي حرية العمل.

هـ - وقعة الولجة:[1]

وصلت أنباء هزيمة الفرس إلى المدائن عاصمة الدولة الفارسية. وكان الملك أردشير غلاماً صغيراً يدير المملكة ومعه مجلس وصاية. لذلك قرّر الجميع إرسال جيش جديد بقيادة «الأندزغر»[2] لملاقاة خالد الذي حيّر المراجع الفارسية كونه كان ينتصر في كلّ معركة رغم قلّة عدد جنده بالقياس مع أعداد الجيوش الفارسية التي كانت تقابله.

وقرّر الفرس تنفيذ خطة جديدة تقضي بمقاتلة خالد بجند من العرب الموالين لهم،[3] فأرسل أردشير إلى القبائل العربية الموالية يستنفرها للقتال، خاصة قبيلة بكر ابن وائل. ثمّ سيّر جيشاً ثانياً بقيادة «بهمن جاذويه» لمساعدة الجيش الأول، فالتقى الجميع في «الولجة» حيث جرت المعركة.

١ - خالد ينظم قواته:

نظم خالد جيشه واتخذ الترتيبات التالية:[4]

- وضع في القلب عظيم الجيش بقيادته شخصياً وكان عليه الصمود في أرض المعركة تمهيداً لتدخّل الجنبتين.

- كلّف يسراً بن أبي رهم بقيادة الميمنة وأمره بالاختفاء خلف الجيش في كمين جاهز للتدخل عند تلقيه الأمر منه.

(١) الولجة: بأرض كسكر مما يلي البر بالعراق.

(٢) كان فارسياً يعيش في أوساط العرب.

(٣) سويد، مرجع سابق، صفحة ١٧٧.

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٤٠.

- كلف سعيداً بن مرّة العجلي بقيادة الميسرة على أن يختفي أيضاً خلف القلب ويتدخّل عندما يتلقى الأمر بذلك.

وكلف الميمنة والميسرة بالالتفاف على الفرس ومباغتتهم عند إعطائهم الأمر بالتدخل.

كتب الطبري عن مقدّمات معركة الولجة ما يلي:[١]

«حدّثنا عبيد الله، قال: حدثني عمي، قال: حدثني سيف، عن زياد بن سَرْجِس، عن عبد الرحمن بن سياه، قال - وفيما كتب به إليّ السريّ، قال: حدّثنا شُعيب، قال: حدثنا سَيْف، عن المهلّب بن عُقبة وزياد بن سرجس وعبد الرحمن بن سياه - قالوا: لمّا وقع الخبر بأردَشير بمصاب قارن وأهل المَذار، أرسل الأندرزَغَر؛ - وكان فارسياً من مولّدي السواد وتُنّائهم، ولم يكن ممّن وُلد في المدائن ولا نشأ بها - وأرسل بهَمن جاذَوَيْه في أثره في جيش، وأمره أن يعبُر طريق الأندرْزَغَر. وكان الأندرْزَغَر قبل ذلك على فَرج خُراسان، فخرج الأندرْزَغَر سائراً من المَدائن حتى أتى كَسْكَر، ثمّ جازَها إلى الوَلَجة. وخرج بَهْمَن جاذويه في أثره، وأخذ غير طريقه، فسلك وسط السَّواد، وقد حشر إلى الأندرزَغَر من بين الحيرة وكَسْكَر من عرب الضّاحية والدّهاقين فعسكروا إلى جَنْب عسكره بالوَلَجة. فلمّا اجتمع له ما أراد واستتمّ أعجبه ما هو فيه، وأجمع السَّير إلى خالد؛ ولما بلغ خالداً وهو بالثّني خبرُ الأندرْزَغر ونزوله الولَجة، نادى بالرَّحيل، وخلَّف سُوَيد بن مقرّن، وأمره بلزوم الحفير، وتقدّم إلى مَن خلّف في أسفل دِجْلة؛ وأمرهم بالحذر وقلّة الغَفْلة، وترك الاغترار، وخرج سائراً في الجنود نحو الوَلَجة، حتى ينزل على أندرزغَر وجنوده ومَن تأشّب إليه، فاقتتلوا قتالاً شديداً؛ هو أعظم من قتال الثني.

واستبطأ خالد كمينه وكان قد وضع لهم كميناً في ناحيتين، عليهم بسُر بن أبي رُهم وسعيد بن مُرّة العِجليّ، فخرج الكمين في وجهين، فانهزمت صفوف الأعاجم وولّوا، فأخذهم خالد من بين أيديهم والكمين من

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣١٢.

خلفهم، فلم يرَ رجلٌ منهم مقتل صاحبه. ومضى الأندرزَغَر في هزيمته، فمات عطشاً. وقام خالد في الناس خطيباً يرغّبهم في بلاد العَجَم، ويزهّدهم في بلاد العرب، وقال: ألا ترْون إلى الطَّعام كرفغ التراب. وبالله لو لم يلزمنا الجهادُ في الله والدعاء إلى الله عزّ وجلّ ولم يكن إلاّ المعاش، لكان الرأي أن نقارع على هذا الرّيف حتّى نكون أولى به، ونولّي الجوع والإقلال مَن تولاّه ممّن أثّاقل عمّا أنتم عليه. وسار خالد في الفلاحين بسيرته فلم يقتلهم، وسبّى ذراريّ المقاتلة ومن أعانهم، ودعا أهل الأرض إلى الجزاء والذمّة، فتراجعوا».

٢ - المعركة:

بلغ جيش المسلمين ثلث عدد الجيش الفارسي، إلاّ أنه كان يتمتع بمعنويات عالية وحماس كبير لا سيما بعد معركتيه اللتين انتصر فيهما. رغم ذلك جرت معركة عنيفة بين الجيشين تبادل فيها المسلمون والفرس النصر والهزيمة. وطال وقت المعركة وأجهد الفريقان اللذان كان كلٌ منهما ينتظر تحقيق أمر، فخالد يناور بانتظار انقضاض كمائنه على العدو؛ وأندرزغر يناور منتظراً استسلام خصمه بسبب قلّة عدد جيشه.

وفي الوقت المناسب، أمر خالد فرقتي الميسرة والميمنة بالاطباق على مؤخّرة الجيش الفارسي منفذاً مناورة التطويق من اليمن واليسار، وصولاً إلى مؤخّرة الجيش الفارسي الذي فوجىء بهذه القرى الجديدة. وكرّ خالد مجدداً في مواجهة مع جيش العدو الذي فقد توازنه وتضعضعت وحداته وصفوفه.

وكان أول الفارين قائد الجيش الفارسي الذي اتجه هارباً نحو الصحراء حيث توفي عطشاً.

وانتهت المعركة بنصر كبير للمسلمين العرب.

كتب ابن كثير عن معركة الولجة ما يلي:[1]

«ثمّ كان أمر الولجة في صفر أيضاً من هذه السنة، فيما ذكره ابن جرير وذلك لأنه انتهى

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٤٠.

الخبر بما كان بالمذار من قبل قارن وأصحابه إلى أردشير وهو ملك الفرس يومئذٍ، بعث أميراً شجاعاً يقال له الأنْدَرْ زَغَرَ. وكان من أبناء السواد ولد بالمدائن ونشأ بها وأمدّه بجيش آخر أمير يقال له بهمن جاذويه، فساروا حتى بلغوا مكاناً يقال له: الولجة، فسمع بهم خالد فسار بمن معه من الجنود ووصى من استخلفه هناك بالحذر وقلّة الغفلة. فنازل أندر زغر ومن ناشب معه، واجتمع عنده بالولجة، فاقتتلوا قتالاً شديداً هو أشد مما قبله، حتى ظنّ الفريقان أن الصبر قد فرغ. واستبطأ كمينه الذي كان قد أرصدهم وراءه في موضعين، فما كان إلاّ يسيراً حتى خرج الكمينان من هاهنا ومن هاهنا، ففرت صفوف الأعاجم فأخذهم خالد من أمامهم والكمينان من ورائهم، فلم يعرف رجل منهم مقتل صاحبه. وهرب الأندرزغر من الوقعة فمات عطشاً. وقام خالد في الناس خطيباً فرغبهم في بلاد الأعاجم وزهدهم في بلاد العرب وقال: ألا ترون ما هاهنا من الأطعمات؟ وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في سبيل الله والدعاء إلى الإسلام ولم يكن إلاّ المعاش لكان الرأي أن نقاتل على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولي الجوع والإقلال من تولاه ممن أثّاقل عما أنتم عليه. ثمّ خمّس الغنيمة، وقسّم أربعة أخماسها بين الغانمين، وبعث الخمس إلى الصدّيق، وأسر من أسر من ذراري المقاتلة، وأقرّ الفلاحين بالجزية. وقال سيف ابن عمر عن عمرو عن الشعبي، قال: بارز خالد يوم الولجة رجلاً من الأعاجم يعدل بألف رجل فقتله، ثمّ اتكأ عليه وأتى بغدائه فأكله وهو متكىء عليه بين الصفين».

ابن الأثير أيضاً، وصف معركة الولجة: فكتب:(١)

«ولمّا فرغ خالد من الثني وأتى الخبر أردشير بعث الأندرزغر وكان فارساً من مولدي السواد، وأرسل بهمن جاذويه في أثره في جيش وحشر إلى الأندرزغر من بين الحيرة وكسكر، ومن عرب الضاحية، والدهاقين، وعسكروا بالولجة. وسمع بهم خالد فسار إليهم من الثني فلقيهم بالولجة،

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٤٠ - ٢٤١.

وكمن له، فقاتلهم قتالاً شديداً أشدّ من الأول حتى ظن الفريقان أنّ الصبر قد فرغ واستبطأ خالد كمينه [وكان قد وضع لهم كميناً في ناحيتين عليهم بسر بن أبي رهم؛ وسعيد بن مرة العجلي] فخرجوا من ناحيتين فانهزمت صفوف الأعاجم وأخذ خالد من بين أيديهم، والكمين من خلفهم، فقتل منهم خلقاً كثيراً، ومضى الأندرزغر منهزماً فمات عطشاً. وأصاب خالد ابناً لجابر ابن بجير وابناً لعبد الأسود من بكر بن وائل. وكانت وقعة الولجة في صفر وبذل الأمان للفلاحين فعادوا وصاروا ذمة، وسبي ذراريّ المقاتلة ومن أعانهم».

٣ - نتائج المعركة:

أبرزت هذه المعركة، كما غيرها، عبقرية خالد بن الوليد الذي اعتبر من أهم القادة العسكريين الذين شاركوا في الفتوحات الكبرى. لقد اعتمد خالد في هذه المعركة على مبادىء قتالية أهمها حماية مؤخرة جيشه، وإخفاء النوايا عن العدو واستعمال عنصر المفاجأة التكتكية بظهور الكمائن التي كان قد أخفاها على اليمين واليسار.

وانتهت هذه المعركة أيضاً بهزيمة قاسية للفرس الذين جمع المسلمون أسلابهم وأخذوا الكثير منهم أسرى، كما قتل قائد الجيش الفارسي عند هربه في الصحراء.

وأبقى خالد المزارعين في أرضهم مقابل دفع الجزية فدخلوا في ذمة المسلمين.

ومن نتائج هذه المعركة ازدياد إيمان العرب المسلمين بقوتهم ومقدرتهم على إدارة المعارك وفتح البلدان وعدم اعتبار المقاتل الفارسي غير قابل للهزيمة. كما أن السيطرة الفارسية على القبائل العربية وتبعية بعض هذه القبائل للعاهل الفارسي أمست من عالم الماضي.

أما الأوساط الفارسية فقد وقعت في حيرة وارتباك إذ أنها لم تكن قد عرفت الهزائم المتتالية على يد العرب قبل ظهور الإسلام. إلاّ أنها، وبعد توحّد القبائل العربية بقيادة الإسلام، أوقعت الجيوش العربية بجيوشها خسائر فادحة.

لقد اعتبر الكثير من المؤرّخين أن معركة الولجة كانت حاسمة في الصراع العربي - الفارسي خلال مرحلة الفتوحات الكبرى، خاصة أنها كانت مقدّمة لفصل العرب

الـواقـعين تحت الـتـأثير الـفـارسـي عـن هـذا التأثير وإخضاعهـم للنظام العربي الجديد وذلك بعد خسارتهم في معركة «ألّيس» التي سنتكلّم عنها.

و - وقعة أُلَيس:

خسر العرب النصارى الموالون للفرس في وقعة الولجة الكثير من رجالهم، منهم ابنا أكبر زعيـمين مـن زعمائهـم همـا: جابر بن بـجير وعـبـد الأسـود. لـذلك غضب هؤلاء وكاتبوا الفرس وأعلنوا استعدادهم لحشد جمع كبير لمقاتلة المسلمين والانتقام منهم، وجـعـلـوا مـن بـلـدة ألّـيس مـكـانـاً لإقامـة معسكرهم.[1]

تزعّم حركة العرب في ألّيس عبد الأسود وهو من بني عجل فراح يجمع الناس حوله من قبائل تيم اللات وضُبيعة وبكر بن وائل وعرب الضاحية من أهل الحيرة.[2]

كتب الطبري عن هذه الوقعة ما يلي:[3]

«قال أبو جعفر، حدّثنا عُبيد الله، قال: حـدّثـنـي عـمّـي، قـال: حـدّثـنـا سيف، عن محمد بن طلحة، عن أبي عثمان وطلحة بن الأعلم عن المغيرة بن عتيبة. وأمّا السَّريّ فإنه قـال فـيـمـا كـتـب إليّ: حـدّثنا شُعيب، عن سـيـف، عـن محمّـد بـن عـبـد الله عـن أبـي عثـمـان، وطـلـحـة بـن الأعـلـم في المغيرة بن عُتيبة، قالا: ولمّا أصاب خالد يوم الوَلَجة من أصاب من بكر بن وائل من نصاراهم الّذين أعانوا أهل فارس غضب لهم نصارى قومهم، فـكـاتـبـوا الأعـاجـم وكـاتـبـتـهـم الأعـاجـم. فاجتمعوا إلى ألّيس، وعليهم عبد الأسود الـعِجْلي، وكان أشدّ الـنـاس على أولئك الـنّصـارى مسـلـمو بنـي عِجْل: عُتيبة بن الـنَّهـاس وسـعـيد بن مُرّة وفرات بن حيّان والمثنّى بن لاحق ومذعور بن عديّ. وكتب أردشير إلى بَهمن جاذَويه، وهو بقُسْيانا -

(١) تقع بلدة أُلّيس غرب نهر الفرات وسهلها منبسط وفيها طواحين كثيرة تدار بماء النهر، وسكانها من العرب النصارى.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٤١.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣١٣ - ٣١٤.

وكان رافدَ فارس في يوم من أيام شهْرهم وبنوا شهورهم كلَّ شهر على ثلاثين يوماً؛ وكان لأهل فارس في كلّ يوم رافد قد نُصِب لذلك يرفدُهم عند الملك؛ فكان رافدهم بهمَن روز - أن سِر حتى تقدم إلّيس بجيشك إلى مَن اجتمع بها من فارس ونصارى العرب. فقدّم بَهْمن جاذويه جابان وأمره بالحثّ، وقال: كفكِف نفسَك وجندَك من قتال القوم حتى ألحق بك إلاّ أن يُعجِلوك. فسار جابان نحو أُلّيس؛ وانطلق بَهْمن جاذويه إلى أردشير ليُحدِث به عهداً، وليستأمره فيما يريد أن يشير به، فوجده مريضاً؛ فعرَّج عليه. وأخلى جابان بذلك الوجه، ومضى حتى أتى ألّيس، فنزل بها في صفر، واجتمعت إليه المسالح التي كانت بإزاء العرب؛ وعبد الأسود في نصارى العرب من بني عِجْل وتيم اللاّت وضُبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة؛ وكان جابر ابن بجير نصرانياً، فساند عبد الأسود. وقد كان خالد بلغه تجمُّع عبد الأسود وجابر وزهير فيمن تأشَّب إليهم، فنهد لهم ولا يشعر بدنوّ جابان، وليست لخالد همة إلاّ من تجمّع له من عَرب الضاحية ونصاراهم. فأقبل

فلمّا طلع على جابان بألّيس، قالت الأعاجم لجابان: أنعاجلهم أم نغدي الناس ولا نريهم أنا نحفل بهم، ثمّ نقاتلهم بعد الفراغ؟ فقال جابان: إن تركوكم والتّهاون بكم فتهاونوا، ولكن ظنّي بهم أن سيعجلونكم ويعجّلونكم عن الطعام. فعصموه وبسطوا البُسُط ووضعوا الأطعمة، وتداعوا إليها، وتوافوا عليها. فلمّا انتهى خالد إليهم، وقف وأمر بحطّ الأثقال، فلمّا وُضِعت توجّه إليهم، ووكّل خالد بنفسه حوامِيَ يحمُون ظهره، ثمّ بَدَر أمام الصفّ، فنادى: أين أبجر؟ أين عبد الأسود؟ أين مالك بن قيس؟ رجلٌ من جَذْرة؛ فنكَلوا عنه جميعاً إلاّ مالكاً، فبرز له، فقال له خالد: يا ابن الخبيثة، ما جرّأك عليّ من بينهم، وليس فيك وفاء! فضربه فقتله. وأجهض الأعاجم عن طعامهم قبل أن يأكلوا؛ فقال جابان: ألم أقل لكم يا قومُ! أما والله ما دخلَتني من رئيس وحشة قطُّ حتى كان اليوم. فقالوا حيث لم يقدروا على الأكل تجلّداً: ندعها حتى نفرغ منهم؛ ونعود إليها. فقال جابان: وأيضاً أظنّكم والله لهم وضعتموها وأنتم لا تشعرون؛ فالآن فأطيعوني؛ سُمّوها؛ فإن كانت لكم فأهونُ

هالك، وإن كانت عليكم كنتم قد صنعتم شيئاً؛ وأبليتم عذراً. فقالوا: لا، اقتداراً عليهم. فجعل جابان على مجنَّبتَيْه عبد الأسود وأبجر؛ وخالد على تعبئته في الأيام التي قبلها، فاقتتلوا قتالاً شديداً، والمشركون يزيدهم كَلَباً وشدّةً ما يتوقّعون من قدوم بَهْمن جادويه، فصابروا المسلمين للّذي كان في علم الله أن يصيّرهم إليه. وحرب المسلمون عليهم، وقال خالد: اللهمّ إنّ لك عليّ إن منحتنا أكتافهم ألاّ أستبقِيَ منهم أحداً قدْرنا عليه حتى أجرِيَ نهرَهم بدمائهم!

ثمّ إنّ الله عزّ وجلّ كشفهم للمسلمين، ومنحهم أكتافهم، فأمر خالد مناديَه، فنادى في الناس: الأسرَ الأسر! لا تقتلوا إلاّ من امتنع؛ فأقبلت الخيول بهم أفواجاً مستأسرين يساقون سَوْقاً، وقد وكّل بهم رجالاً يضربون أعناقهم في النهر. ففعل ذلك بهم يوماً وليلة، وطلبوهم الغد وبعد الغد؛ حتى انتهوا إلى النّهرين، ومقدار ذلك من كلّ جوانب ألّيس. فضرب أعناقهم وقال له القعقاع وأشباهٌ له: لو أنّك قتلت أهلَ الأرض لم تجر دماؤهم؛ إنّ الدماء لا تزيد على أن ترقرق منذ نُهيت عن السَّيلان، ونُهيت الأرض عن نَشْف الدماء؛ فأرسل عليها الماء تبرّ يمينك. وقد كان صدّ الماء عن النّهر فأعاده، فجرى دماً عبيطاً فسمّي نهر الدم لذلك الشأن إلى اليوم».

كما تطرّق ابن الأثير إلى هذه الوقعة، فكتب:[1]

«لما أصاب خالد يوم الولجة ما أصاب من نصارى بكر بن وائل، الذين أعانوا الفرس غضب لهم نصارى قومهم فكاتبوا الفرس، واجتمعوا على ألّيس، وعليهم عبد الأسود العجلي. وكان مسلمو بني عجل منهم عتيبة ابن النهاس، وسعيد بن مرة، وفرات بن حيان، ومذعور بن عديّ، والمثنى بن لاحق أشدّ الناس على أولئك النصارى. وكتب أردشير إلى بهمن جاذويه، وهو بقُسيانا يأمره بالقدوم على نصارى العرب بأُلّيس، فقدّم بهمن جاذويه جابان إليهم، وأمره بالتوقف عن المحاربة إلى أن يقدم عليه، ورجع بهمن

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٤١.

جاذويه إلى أردشير ليشاوره فيما يفعل، فوجده مريضاً. فتوقف عليه، فاجتمع على جابان نصارى عجل، وتيم اللات، وضبيعة، وجابر بن بجير، وعرب الضاحية من أهل الحيرة. وكان خالد لما بلغه تجمع نصارى بكر، وغيرهم سار إليهم ولا يشعر بدنو جابان، [وليست لخالد همة إلاّ من تجمع له من عرب الضاحية ونصاراهم فأقبل] فلمّا طلع جابان بألّيس قالت العجم له: أنعالجهم أم نغدي الناس، ولا نريهم أنا نحفل بهم. ثمّ نقاتلهم؟ [بعد الفراغ]. فقال جابان: إن تركوكم فتهاونوا بهم».

وكان أكثر المسلمين شدة في القتال مسلمو بكر بن وائل بقيادة المثنى بن حارثة الذي اخترق صفوف العرب في ميمنة جيش الفرس ففروا أمامه مما أدّى إلى تضعضع الجيش الفارسي. واستطاع خالد ورجال القلب في الجيش الإسلامي اختراق مقدّمة الجيش الفارسي وتفريق جنوده بين هارب وقتيل.

وهكذا تمّ النصر أيضاً للمسلمين.

ووصلت أخبار خالد إلى الخليفة أبي بكر فقال وهو يبلّغ المسلمين في الجزيرة العربية هذه الأخبار: «يا معشر قريش، عدا أسدكم على أسد الفرس فغلبه على خراذيله».(١)

بلغ عدد قتلى الجيوش الفارسية في هذه المعركة سبعين ألفاً.(٢)

قسم خالد أربعة أخماس الغنائم بين المقاتلين.

ز - الدروس المستقاة:

١ - كانت تحرك القبائل العربية الموالية للفرس روح الانتقام من المسلمين، لذلك خاضوا قتالاً غير مأمون النتائج مبتعدين عن الواقعية في القتال. فعندما تحرّك العاطفة القائد بدلاً من العقل، يصبح أسيراً لأهوائه، لأن التخطيط للمعركة يتطلّب خطة مدروسة وتفكيراً عميقاً وتحليلاً للأوضاع بشكل موضوعي، وليس كما حصل مع العرب الموالين للفرس.

---

(١) الخراذيل: قطع اللحم كثيرة.
- ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٤١.

(٢) ابن كثير، المرجع نفسه.

٢ - رغم تطبيق العرب والفرس قاعدة تجميع القوى من قبائل تيم اللات وضبيعة وبكر بن وائل وعرب ضاحية الحيرة، فإنهم انصرفوا إلى تناول الطعام قبل المعركة. وهكذا فاجأهم خالد بن الوليد، وجيشه على تعبئة تامة، مبادراً إلى القتال ومستفيداً من عنصر المفاجئة ومن روح المبادرة إلى الصدام فحقق بذلك تطبيق مبدأي «حرية العمل» و«الحصيل الأقصى للوسائل» وربح المعركة.

٣ - مما لا شك فيه أن حماس المسلمين للقتال والهجومين الناجحين اللذين قادهما المثنى بن حارثة وخالد بن الوليد مخترقين ميمنة ومقدمة الجيش الفارسي، ساهموا في تأمين النصر للجيش الإسلامي رغم تفوّق أعدائه عليه عدداً وعدّة. لقد استعاض خالد عن عدم تنفيذ مبدأ الحرب الأول (نسبية الأهداف للوسائل) بعوامل أخرى أهمها:

- قيادته الباهرة للجيش الإسلامي.
- إرتفاع معنويات المقاتلين المسلمين اثر المعارك المتتابعة الناجحة.
- شدّة الحوافز التي كانت تحرّكهم، ليس فقط للحصول على الغنائم، إنما أيضاً للجهاد في سبيل الله ونشر الدين الإسلامي الحنيف.

الفصل العاشر
فتح الحيرة

كانت المعارك التي ربحتها الجيوش العربية بقيادة خالد بن الوليد مقدّمة لمعركة الحيرة حاضرة المناذرة التي ستحدد نهائياً، ليس فقط مصير دولة لخم، إنما أيضاً دولة الفرس. فقد غنم خالد بعد وقعة أُلّيس عدداً كبيراً من السفن، فأعدّها ليعبر بها الفرات نحو الحيرة.

إنما، وقبل التوجّه نحو الحيرة، كان عليه خوض بعض المعارك الجانبية التمهيدية للفتح الأكبر.

أولاً – وقعة امغيشيا

كانت امغيشيا[١] من أكبر المدن العراقية، وهي مبنية على الشاطىء الشرقي لنهر الفرات على بقعة أرض خصبة. لذلك قامت فيها قصور وجنائن وتكدّست ثروات تجارها فأصبحت أغنى مدينة في الخليج.

وكانت تستقبل السفن في مرفئها الواسع مما أنعش فيها الحركة التجارية وجعلها مقصداً وسوقاً للبيع والشراء.

أهلها، الذين كانوا يقاربون الأربعين ألفاً، شاركوا في القتال في ألّيس. لذلك، وعندما ربح المسلمون في تلك المعركة، خاف سكانها مهاجمة خالد لها، فراحوا يفرّون منها ويتفرّقون في سواد العراق بعد أن تركوا ورائهم كلّ ما يملكون. فلما

---

(١) كان يطلق على الفرات بين امغيشيا وألّيس إسم «فرات بادقلي». لذلك تسمى هذه الوقعة أيضاً وقعة «فرات بادقلي».

وصلها خالد مع جيشه وجدها خالية من السكان.

كتب الطبري عن وضع امغيشيا، واصفاً ما وقع بين أيدي المسلمين من خيراتها:(١)

«حدّثنا عبيد الله، قال: حدّثني عمّي، عن سيف، عن محمد، عن أبي عثمان وطلحة، عن المغيرة، قال: لمّا فرَغ خالد من وقعة ألّيس، نهض فأتى أمغيشا، وقد أعجلهم عمّا فيها، وقد جلا أهلُها؛ وتفرّقوا في السَّواد، ومن يومئذ صارت السّكرات في السَّواد. فأمر خالد بهدم أمْغيشيا وكلّ شيء كان في حيِّزها، وكانت مِصراً كالحيرة، وكان فرات بادقْلَى ينتهي إليها، وكانت ألّيس من مسالحها، فأصابوا فيها ما لم يصيبوا مثله قطّ.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن بحر بن الفُرات العجليّ، عن أبيه، قال: لم يصِب المسلمون فيما بين ذات السَّلاسل وأمغيشيا مثل شيء أصابوه في أمغيشيا، بلغ سهم الفارس ألفاً وخمسمائة، سوى النَّفل الذي نُفِّلَه أهل البلاء».

لقد أراد خالد أن يلقي الرعب في قلوب الفرس وأنصارهم من العرب، ولا سيما أهل الحيرة، فأمر بهدم المدينة كلّها بعد الاستيلاء على غنائمها الكثيرة، فهدمها المسلمون.

وهذه الأحداث ذكرها أيضاً ابن كثير إذ كتب:(٢)

«وكان كلّ من قتل بهذه الوقعة يوم ألّيس من بلدة يقال لها امغيشيا، فعدل إليها خالد وأمر بخرابها واستولى على ما بها، فوجدوا بها مغنماً عظيماً، فقسم بين الغانمين فأصاب الفارس بعد النفل ألفاً وخمسمائة غير ما تهيأ له مما قبله. وبعث خالد إلى الصديق بالبشارة والفتح والخمس من الأموال والسبي مع رجل يقال له جندل من بني عجل».

ثانياً – التوجه نحو الحيرة

بعد هدم امغيشيا أمر خالد بجمع عدد كبير من السفن ووضعها في خليج أمغيشيا تمهيداً لنقل مشاة جيشه إلى الحيرة. وكان مرزبانها يومئذٍ يدعى «الازاذبة».

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣١٥.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٤١.

وكانت الطريق البرية إلى الحيرة قد امتلأت بالوحول والبرك بسبب هطول الأمطار الغزيرة، لذلك رأى خالد ضرورة استعمال السفن لنقل جنده من المشاة، فيما انطلق هو وفرسانه مع الرواحل براً نحو الحيرة.

لكن مرزبان الحيرة الذي كان يتسقّط أخبار خالد بن الوليد متخوّفاً من مهاجمته للحيرة، علم بركوب السفن من قبل قسم من جيش المسلمين. لذلك أرسل ابنه إلى أعلى نهر الفرات حيث حول ماء النهر إلى مجرى جانبي مما أوقف السفن التي ركبها المسلمون عن التقدّم.

كتب الطبري عن موضوع تحويل الماء من النهر ما يلي:[1]

«قال أبو جعفر: كتب إليّ السَّريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن محمّد، عن أبي عثمان وطلحة، عن المغيرة: أن الآزاذبة كان مرزُبان الحيرة أزمان كسرى إلى ذلك اليوم؛ فكانوا لا يمدُّ بعضهم بعضاً إلاّ بإذن الملك، وكان قد بلغ نصف الشَّرَف، وكان قيمة قلنسُوته خمسين ألفاً. فلمّا أخرب خالد أمغيشيا، وعاد أهلها سَكرات لدهاقين القرى علم الآزاذبة أنّه غير متروك، فأخذ في أمره وتهيأ لحرب خالد، وقدّم ابنه ثمّ خرج في أثره حتى عسكر خارجاً من الحيرة؛ وأمر ابنه بسدّ الفرات. ولمّا استقلّ خالد من أمغيشيا وحُمل الرّجل في السفن مع الأنفال والأثقال، لم يفجأ خالدٌ إلاّ والسفنُ جوانح، فارتاعوا لذلك، فقال الملاّحون: إن أهل فارس فجّروا الأنهار، فسلك الماء غير طريقه؛ فلا يأتينا الماء إلاّ بسدّ الأنهار».

وهكذا، وفيما السفن تسير في مجرى النهر حاملة جند المسلمين، إذ بها تجنح وتلتصق بقاعه بعد أن جفّ ماؤه، فهلع المسلمون. لكن خالداً تصرّف بسرعة إذ أنه اختار بضع مئات من فرسانه وسار على رأسهم ليزيل السد ويعيد المياه إلى مجراها. وحين وصل إلى «المقر» حيث أقفل المجرى شاهد خيولاً للفرقة التي أرسلها ابن المرزبان إلى هناك، والجنود نائمون. فاجأهم خالد

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٤١.

وأبادهم كلّهم كي لا ينقل أحد منهم خبر الواقعة إلى ابن المرزبان.(١)

وتابع المسلمون سيرهم حتى بلغوا معسكر ابن المرزبان في فم العتيق، فاقتحموا عليه معسكره ودارت معركة عنيفة، لم تدم طويلاً، انتهت بهرب الفرس وانتصار المسلمين ومقتل ابن المرزبان. ثمّ أعاد خالد فتح مجرى النهر فتابعت سفن المسلمين سيرها فيه من جديد.(٢)

وتابع المسلمون سيرهم، الفرسان براً والمشاة في السفن، فنزلوا في مكان بين قصر الخورنق والنجف حيث نزل خالد في قصر الخورنق بانتظار قدوم باقي الجيش العربي في حين نزل القائد الفارسي في مكان بين «القصر الأبيض» و«الغريين».(٣)

ولقصر الخورنق قصة روتها كتب التاريخ عن ظروف بنائه.(٤)

ولمّا علم المرزبان بوصول جيش المسلمين وبمقتل ابنه وهزيمة جنده، وكان قد وصله في تلك الساعة خبر وفاة الملك أردشير، فضل الهرب على المجابهة، ففرّ من دون قتال.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣١٥.

(٣) الغريان: بناء كالصومعة خارج مدينة الكوفة ومعناهما «الحسنان».

(٤) فقد أراد النعمان بن المنذر ملك الحيرة بناء قصر كبير فاستقدم معلّماً رومياً اسمه «سِنّمار» اشتهر بتلك الصنعة. وبقي سنمار يبني القصر لمدّة عشرين سنة بعد أن أدخل في بنائه القرميد والحصى والنحاس والرصاص والحجارة المحرّقة. ولما فرغ من بنائه بدا قصراً عجيباً لم يكن لأحد من الملوك مثله.

وفرح النعمان بن المنذر بذلك القصر وقال له سِنّمار:

- إني لأعلم موضع آجرة لو زالت لسقط القصر كلّه.

فقال له النعمان:

- هل يعرفها أحد غيرك.

قال: «لا».

فأمر النعمان بقذف سِنّمار من أعلى القصر حيث سقط أرضاً ومات. ولذا اشتهر المثل بين العرب بقولهم: «جزاء سِنّمار» فقال الشاعر:

جزاني جزاه الله شرّ جزائه　　　جزاء سنّمار وما كان ذا ذنب

قرّر خالد نقل جيشه إلى المكان الذي كان وجده خالياً فعسكر هناك في انتظار محاصرة الحيرة تمهيداً لسقوطها.

ثالثاً – سقوط الحيرة

أما أهل الحيرة، فكانوا قد تحصّنوا في قصورهم وقرّروا الدفاع عن أنفسهم وأملاكهم، فأمر خالد جنده بأن يدخلوا إلى بساتين تلك القصور ويتجوّلوا فيها. ثمّ كلّف كلّ قائد من قادته بمحاصرة قصر من القصور وإخضاع المقاتلين فيه.

كتب الطبري واصفاً تدابير خالد في محاصرة القصور:[١]

«كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمّد، عن أبي عثمان وطلحة عن المغيرة، وبحر عن أبيه، قالوا: وحدّثنا عبيد الله، قال: حدّثني عمّي، قال: حدّثنا سيفٌ، عن محمّد عن أبي عثمان، وطلحة عن المغيرة، قالا: لمّا أصاب خالد ابن الأزاذبه على فم فرات بادقْلى، قصد للحيرة، واستلحق أصحابه، وسار حتى ينزل بين الخَوَرْنق، والنَّجَف، فقدِم خالد الخورنق، وقد قطع الآزاذبه الفُرات هارباً من غير قتال؛ وإنّما حداه على الهَرَب أنّ الخبر وقع إليه بموت أردشير ومصاب ابنه، وكان عسكره بين الغَريَّين والقصر الأبيض. ولمّا تتام أصحاب خالد إليه بالخورنق خرج من العسكر حتى يعسكر بموضع عسكر الآزاذبه بين الغريين والقصر الأبيض، وأهل الحيرة متحصّنون. فأدخل خالد الحيرة الخَيل من عسكره، وأمر بكلّ قصر رجلاً من قواده يحاصر أهله ويقاتلهم، فكان ضرار بن الأزور محاصِراً القصر الأبيض، وفيه إيّاس بن قَبيصة الطائي. وكان ضرار بن الخطاب محاصِراً قصر العدسيّين وفيه عديّ بن عديّ المقتول. وكان ضرار بن مقرّن المزني عاشر عشرة إخوة له محاصِراً قصر بني مازن، وفيه ابن أكّال. وكان المثنّى محاصِراً قصر ابن بُقَيلة وفيه عمرو بن عبد المسيح؛ فدعوهم جميعاً، وأجّلوهم يوماً، فأبى أهلُ الحيرة ولجُّوا، فناوشهم المسلمون».

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣١٥.

وأمر خالد قادته بأن لا يباشروا القتال قبل أن يدعوا المحاصرين للاستسلام، فإن أبوا يمهلونهم يوماً كاملاً قبل أن يقاتلوهم. وهذا الذي حصل، وكان ضرار بن الأزور أول من باشر القتال بعد انقضاء المهلة.

وصف الطبري تفاصيل هذه المرحلة من محاصرة الحيرة، فكتب:[١]

«حدّثني عبيد الله بن سعد، قال: حدّثني عمّي، عن سيف، عن الغصن بن القاسم، رجل من بني كنانة – قال أبو جعفر: هكذا قال عُبيد الله. وقال السَّريّ فيما كتب به إليّ: حدّثنا شُعيب، عن سيف، عن الغصن بن القاسم، عن رجل من بني كنانة – قال: عهد خالد إلى أمرائه أن يبدأوا بالدّعاء، فإن قَبلوا قبلوا منهم وإن أبو أن يؤجّلوهم يوماً. وقال: لا تمكّنوا عدوّكم من آذانكم، فيتربّصوا بكم الدوائر؛ ولكن ناجزوهم ولا تردّدوا المسلمين عن قتال عدوّهم. فكان أوّل القوّاد أنشب القتال بعد يوم أجلَوهم فيه ضرار بن الأزور، وكان على قتال أهل القصر الأبيض. فأصبحوا وهم مشرفون؛ فدعاهم إلى إحدى ثلاث: الإسلام، أو الجزاء، أو المنابذة. وتنادوا: عليكم الخزازيف، فقال ضرار: تنحّوا لا ينالكم الرّمي؛ حتى ننظر في الذي هتفوا به. فلم يلبث أن امتلأ رأس القصر من رجال متعلّقي المخالي، يرمون المسلمين بالخزازيف – وهي المداحي من الخَزَف – فقال ضرار: ارشقوهم، فدنوا منهم فرشقوهم بالنّبل، فأعروا رؤوس الحيطان، ثمّ بثّوا غارتهم فيمن يليهم. وصبّح أمير كلّ قوم أصحابه بمثل ذلك، فافتتحوا الدّور والديرات، وأكثروا القتل، فنادى القسيسون والرّهبان: يا أهل القصور، ما يقلقنا غيركم. فنادى أهل القصور: يا معشر العرب، قد قبلنا واحدة من ثلاث؛ فادعوا بنا وكُفّوا عنّا حتّى تبلغونا خالداً. فخرج إياس بن قبيصة وأخوه إلى ضرار بن الأزور، وخرج عديّ بن عديّ وزيد ابن عديّ إلى ضرار بن الخطاب – وعديّ الأوسط الذي رثته أمّه وقتل يوم ذي قار – وخرج عمرو بن عبد المسيح وابن أكّال، هذا إلى ضرار مقرّن، وهذا إلى المثنّى بن حارثة، فأرسلوهم إلى خالد وهم على مواقفهم».

---

(١) الطبري، المرجع نفسه، ص ٣١٦.

وهكذا فعل كلّ قائد من القادة الباقين، فدعا خصمه إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب، فاختار الخصم الحرب فهزم فيها إذ راح المسلمون يرمون مقاتلي الأعداء، الذين رشقوهم بالحجارة من على الأسوار، بالنبال، فيتراجع هؤلاء عن الأسوار.

وأمر ضرار بن الأزور رجاله باقتحام القصر بعد أن اختفى رماة الخزف، فاقتحموا البوابة الرئيسية فخلعوها ودخلوا القصر واعملوا السيف في رقاب مقاتليه. واستطاع الثلاثة الباقون أيضاً اقتحام القصور الأخرى حيث دارت معارك طاحنة كثر فيها القتل في سكانها.

أخيراً تدخل القساوسة والرهبان فنودي في القصور:

«يا معشر العرب، قبلنا واحدة من ثلاث، فكفوا عنا وخذونا إلى خالد»[1] وكان أول المنادين عمرو بن عبد المسيح صاحب قصر ابن بُقيلة.

أحضرهم المسلمون أمام خالد بن الوليد، ونقل ابن الأثير ما جرى بين أصحاب القصور وخالد، فكتب:[2]

«فأرسلوهم إلى خالد فكان الذي يتكلّم عنهم عمرو بن عبد المسيح، فقال له خالد: كم أتى عليك؟ قال: مئو سنين. قال: فما أعجب ما رأيت؟ قال: رأيت القرى منظومة ما بين دمشق والحيرة تخرج المرأة [من الحيرة] فلا تتزود إلاّ رغيفاً. فتبسّم خالد وقال: هل لك من شيخك إلاّ عقلة خرفت. والله يا عمرو؟ وقال لأهل الحيرة. ألم يبلغني أنكم خبثة خدعة [مكرة]؟ فما بالكم تتناولون حوائجكم بخرف لا يدري من أين جاء؟

فأحبّ عمرو أن يريه من نفسه ما يعرف به عقله و[يستدل به على] صحة ما حدّثه به قال: وحقك إني لأعرف من أين جئت؟ قال: فمن أين خرجت؟ [قال: أقرب أم بعد؟ قال: ما شئت] قال: من بطن أمي. قال: فأين تريد؟ قال: أمامي. قال: وما هو؟ قال: الآخرة. قال: فمن أين أقصى أثرك؟

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٤٣.

(٢) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

قال: من صلب أبي. قال: ففيم أنت؟ قال: في ثيابي. قال: أتعقل؟ قال: أي والله وأقيد. قال خالد: إنما أسألك. قال: فأنا أجيبك. قال: أسِلم أنت أم حرب؟ قال: بل سِلْم. قال: فما هذه الحصون؟ قال: بنيناها للسفيه نحبسه حتى ينهاه الحليم. قال: خالد: قتلت أرض جاهلها وقتل أرضا عالمها القوم أعلم بما فيهم. [فقال عمرو: أيها الأمير: النملة أعلم بما في بيتها من الجمل بما في بيت النملة]. وكان مع ابن بقيلة خادم معه كيس فيه سم فأخذه خالد ونثره في يده وقال: لم تستصحب هذا؟ قال: خشيتُ أن تكونوا على غير ما رأيت [وقد أتيت على أجلي] فكان الموت أحبّ إليّ من مكروه أدخله على قومي [وعلى أهل قريتي] فقال خالد: أنها لن تموت نفسي حتى تأتي على أجلها، وقال: «باسم الله خير الأسماء، رب الأرض والسماء، الذي لا يضر مع اسمه داء، الرحمن الرحيم» [فأهووا إليه ليمنعوه وبادرهم] وابتلع السم، فقال ابن بقيلة: والله لتبلغن ما أردتم ما دام أحد منكم هكذا. وأبى خالد أن يصالحهم إلاّ على تسليم كرامة بنت عبد المسيح إلى شويل فأبوا فقالت لهم: هوّنوا وأسلموني فإني سأفتدي، ففعلوا فأخذها شويل، فافتدت منه بألف درهم فلامه الناس. فقال: ما كنت أظن أن عدداً أكثر من هذا.

وكان سبب تسليمها إليه أن النبي ﷺ لما ذكر استيلاء أمته على ملك فارس والحيرة سأله شويل أن يعطي كرامة ابنة عبد المسيح وكان رآها شابة فمال إليها فوعده النبي ﷺ ذلك. فلما فتحت الحيرة طلبها، وشهد له شهود بوعد النبيّ ﷺ أن يسلمها فسلمها إليه خالد، وصالحهم على مائة ألف وتسعين ألفاً. وقيل: على مائتي ألف وتسعين ألفاً، وأهدوا له هدايا، فبعث بالفتح والهدايا إلى أبي بكر فقبلها أبو بكر من الجزية. وكتب إلى خالد أن يأخذ منهم بقية الجزية. ويحسب لهم الهدية.

وكان فتح الحيرة في شهر ربيع الأول سنة اثنتي عشرة، وكتب لهم خالد كتاباً. فلما كفر أهل السواد [بعد موت أبي بكر] ضيعوا الكتاب، فلما افتتحها المثنى ثانية عاد بشرط آخر. فلمّا عادوا كفروا، وافتتحها سعد بن أبي وقاص ووضع عليهم أربعمائة ألف [سوى الحرزة]، قال خالد: ما لقيت قوماً

كأهل فارس وما لقيت من أهل فارس كأهل أُلّيس».

أ - معاهدة الصلح مع أهل الحيرة:

فتحت الحيرة على يد خالد الذي صالح أهلها وكتب معاهدة صلح معهم أجازها الخليفة وذلك بعد أن قرر أصحاب القصور البقاء على النصرانية ودفع الجزية.

أمر خالد بإحضار ما يكتب عليه وكتب بخط يده كتاب الصلح الذي جاء فيه:(1)

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمراً ابني عديّ، وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيريّ بن أكّال، وهم نقباء أهل الحيرة؛ ورضي بذلك أهل الحيرة، وأمروهم به - عاهدهم على تسعين ومائة ألف درهم، تُقبَل في كلّ سنة جِزاءً عن أيديهم في الدنيا، رهبانهم وقسّيسهم؛ إلاّ مَن كان منهم على غير ذي يد، حبيساً عن الدنيا، تاركاً لها أو سائحاً تاركاً للدنيا، وعلى المنعة، فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم، وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمّة منهم بريئة. وكُتِب في شهر ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة».

ب - الدروس المستقاة:

١ - أحسن خالد استعمال الأرض. فعندما واجهته الوحول والبرك بسبب هطول الأمطار الغزيرة، قرّر إرسال مشاة جيشه بالسفن إلى الحيرة. كما أحسن مرزبان الحيرة بتحويل مجرى ماء النهر إلى وادٍ جانبي فأوقف تقدّم سفن المسلمين. وهكذا كان كلّ من القائدين يحاول تطبيق مبدأ الحرب الثاني، أي حرية العمل، أفضل تطبيق.

٢ - جاءت ردّة فعل خالد على تحويل مياه النهر سريعة وحازمة إذ توجّه بنفسه على رأس فرسانه إلى مكان السد وأزاله وقضى على الجنود الذين كانوا يحرسونه كي لا ينقل أحدهم خبر إعادة المياة إلى مجراها للمرزبان.

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣١٧ - ٣١٨.

إن من يدرس قرارات خالد بن الوليد العملانية يعجب من درجة معرفته العميقة بفنون القتال ومدى حسن تطبيقه لاستراتيجيات الحرب وتكتيكاتها. فهو، بعمله على إزالة السدّ عن نهر الفرات، أحسن تطبيق مبدأ الحرب الثاني (حرية العمل) والثالث (الحصيل الأقصى للوسائل) وقواعد المفاجأة وحسن استعمال الأرض وإخفاء النوايا عن العدو وتحفيز جنده وتحضيرهم للقتال.

أما قيادته بنفسه لهذه العملية فتبرّرها أهميتها في مجرى العمليات اللاحقة، إذ أن توقّف المشاة وعدم بلوغهم الحيرة كان سيجعل المسلمين يحاصرون المدينة بفرسانهم فقط، الأمر الذي قد يعرّض مهمّتهم إلى الفشل. كما أن فصل المشاة عن الخيالة خلال المعركة هو أمرٌ ينبغي تجنّبه. وسنلمس ذلك عند معالجة موضوع معركة اليرموك التي عمل خالد على إبعاد فرسان الروم عن مشاتهم، فتمكّن من سحقهم وإبادتهم.

وبالفعل أعطت تدابير خالد نتيجتها، ففرّ المرزبان بجيش الفرس دون قتال، وحقّق خالد الجزء الأول من مهمّته دون أي خسارة للمسلمين.

٣ - وزع خالد المهمّات على قادته عند محاصرة الحيرة فحدّد لكلّ منهم هدفاً واضحاً يقضي بمحاصرة واحتلال أحد القصور. وأوصى قادته أن يدعوا المحاصرين للاستسلام ويمهلوهم يوماً كاملاً قبل أن يقاتلوهم. لقد كان خالد واثقاً من خطته ونقل ثقته هذه إلى قادته الذين آمنوا بتدابيره العسكرية فارتفعت معنوياتهم وحوافزهم للقتال. فالثقة بالقائد تعتبر من أهم عوامل النصر في المعركة، لأن هذه الثقة تؤدي إلى التلاحم بين القائد ومعاونيه وجنودهم الذين يبذلون أقصى جهودهم لإرضائه مؤمنين بحسن تدبيره وإدارته للقتال.

وبالفعل اقتحم جميع القادة القصور، الأمر الذي دفع بأهل الحيرة إلى طلب الصلح لقاء دفع الجزية. وهكذا حقن خالد دماء المسلمين ونجح في تنفيذ مهمّة فتح الحيرة بأقل خسائر ممكنة.

٤ - أحسن خالد معاملة أهل المناطق المفتتحة فأقرّهم على مناطقهم لقاء دفع

الجزية. هذه المعاملة الحسنة دفعت أهل المدن والقرى القريبة من الحيرة إلى التوافد إلى مركزه ومصالحته.

فهل قصد خالد من حسن معاملة أهل الحيرة إقناع الباقين من النصارى بالمصالحة؟

إن دراسة سيرة خالد تدفعنا إلى الاعتقاد أنه خطّط لذلك كما سبق وخطّط، بعد فتح امغيشيا، لإلقاء الرعب في قلوب أعدائه لا سيما أهل الحيرة فهدم مدينة امغيشيا بكاملها. ففي الحالة الأولى قصد تطمين السكان، وفي الحالة الثانية إخافتهم وإرهابهم، وقد نجح فيهما.

رابعاً – ما بعد الحيرة

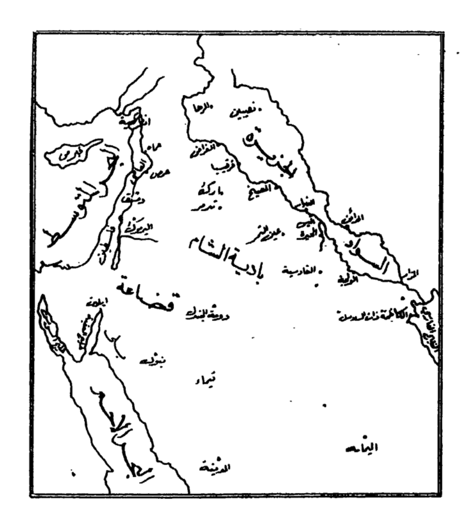
كانت الحيرة الهدف الأول للخليفة أبي بكر، في انتظار نشر الدين الإسلامي في كامل أرض العراق وبلاد فارس. والحيرة تقع على طريق الجيوش الإسلامية إلى المدائن عاصمة الفرس الممتدة على ضفتي نهر دجلة.

وترك فتح الحيرة آثاراً بعيدة بالنسبة للدولتين الإسلامية والفارسية. فبالنسبة للمسلمين، اعتبرت الحيرة أول عاصمة دولة خارجية تقع في قبضتهم، لذلك كان وقع سقوطها إيجابياً جداً في التاريخ الإسلامي، لا سيما أنها شكّلت موقعاً متقدّماً للمسلمين في أرض العراق. أما بالنسبة إلى الدولة الساسانية، فإن التقدّم الإسلامي داخل حدودها لم يعد مقتصراً على غزوات متفرقة، بل أصبح يمسّ جوهر كيانها كدولة. ففارس، التي تعوّدت عبر تاريخها الطويل إخضاع القبائل العربية بواسطة دولة المناذرة، رأت أن قاعدة التعامل مع العرب قد انقلبت رأساً على عقب، فغزا هؤلاء أرضها واحتلّوا ثاني أهم مدنها، وذلك بفضل الدين الإسلامي الذي جمعهم ووحدهم وأطلقهم نحو العراق.

لقد أمست الحيرة قاعدة تموين مهمّة للجيوش الإسلامية في حربها ضد فارس، وموقعاً استراتيجياً للهجوم. لذلك كان على خالد بن الوليد أن يضع الأسس والأنظمة لإدارة المناطق التي افتتحت في العراق، لاسيما أن غالبية سكان هذه المناطق ما زالوا على دينهم أي النصرانية، وأنها أول مناطق تفتتح خارج شبه الجزيرة العربية.

خارطة

بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام



وبعد سقوط الحيرة سارع أهالي المدن والقرى القريبة منها إلى التوافد إلى مركز قيادة خالد بن الوليد طالبين الصلح. أولهم صلوبا بن نسطونا صاحب «قُسّ النّاطف» الذي خرج حتى دخل على خالد «فصالحه على «بانقيا وباروسما»، وضمن له ما عليهما وعلى أرضيهما من شاطىء الفرات، واعتقد لنفسه وأهله وقومه على عشرة آلاف دينار سوى الخرزة، خرزة كسرى، وكانت على رأس أربعة دراهم، وكتب له كتاباً فتمّوا وتمّ».(١) وكتب له خالد كتاباً بذلك نذكره كما هو:(١)

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتابٌ من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه؛ إنّي عاهدتكم على الجِزْية والمَنعة؛ على كلّ ذي يد؛ بانقيا وباروسما جميعاً، على عشرة آلاف دينار سوى الخرزة، القويّ على قدر قوّته، والمقلّ على قدر إقلاله، في كلّ سنة. وإنك قد نُقِّبت على قومك، وأنّ قومك قد رضوا بك، وقد قبلتُ ومن معي من المسلمين، ورضيت ورضي قومك؛ فلك الذمّة والمنعة؛ فإن منعناكم فلنا الجزية؛ وإلاّ فلا حتى نمنعكم. شهد هشام بن الوليد، والقعقاع بن عمرو، وجرير بن عبدالله الحميريّ، وحنظلة بن الربيع. وكتب سنة اثنتي عشرة في صفر».

ثمّ جاء بعده دهاقين(٢) البلاد من فارس فصالحوه أيضاً على ما بين الفلاليج وهرمزجرد مقابل جزية قدّرها ابن الأثير بـ«ألفي ألف، وقيل: ألف ألف سوى ما كان لآل كسرى».(٣)

خامساً – تنظيم المناطق المفتتحة

أمام اتساع المناطق المفتتحة وكبر المسؤولية، لجأ خالد إلى خطّة جديدة في إدارة المناطق وحكمها بطريقة عادلة. فقد حدّد الأماكن التي يكمن فيها الخطر والأماكن التي تحتاج إلى إدارة عسكرية، فعيّن أمراء الثغور والحاميات. وجعل خالد

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣١٩.
(٢) دهاقين أي زعماء المناطق الريفية حيث الفلاحين.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٤٤.

مقر قيادته في الحيرة وأعطى أوامره بالتوغّل داخل الأراضي العراقية شرق نهر الفرات.

كتب الطبري عن تعيين الأمراء:[1]

«وبعث خالد بن الوليد عمّاله ومسالحه، فبعث في العمالة عبدالله بن وثيمة النّصريّ، فنزل في أعلى العمل بالفلاليج على المَنعة وقبض الجزية. وجرير بن عبدالله على بانقيا وباروسما، وبشير بن الخصاصية على النّهرين فنزل الكُويفة ببانبورا، وسُويد بن مقرّن المزنيّ إلى نِستر، فنزل العَقْر - فهي تسمّى عَقر سُويد إلى اليوم، وليست بسويد المِنقريّ سمّيت - وأط بن أبي أطّ إلى روذمستان، فنزل منزلاً على نهر سُمّي ذلك النهر به - ويقال له: نهر أط إلى اليوم؛ وهو رجل من بني سعد بن زيد مناة. فهؤلاء كانوا عمال الخَراج زمن خالد بن الوليد.

وكانت الثّغور في زمن خالد بالسِّيب، بعث ضرار بن الأزور وضرار بن الخطاب والمثنّى بن حارثة وضرار بن مقرّن والقعقاع ابن عمرو وبُسر بن أبي رُهْم وعُتيبة بن النّهاس، فنزلوا على السِّيب في عرض سلطانه. فهؤلاء أمراء ثغور خالد. وأمرهم خالد بالغارة والإلحاح، فمخروا ما وراء ذلك إلى شاطىء دِجلة».

وهكذا قسم خالد الأراضي العراقية المفتتحة إلى أحد عشر قسماً عيّن على كلّ قسم أميراً، فقسم الحيرة وما جاورها إلى سبعة أقسام، والابلة وما جاورها إلى أربعة.

ثمّ أجرى خالد تعديلات أساسية في تنظيم قواته، فاختار القعقاع ليكون القائد العام في غيابه، والمثنى ليكون أميراً على أكثر الثغور تقدّماً نحو الشمال باتجاه المدائن، والأقرع بن حابس لمقدمة جيشه.

ووجه خالد كتابين، الأول إلى الخاصة من الفرس أي الملوك، والثاني إلى العامة أي المرازبة يدعوهم فيهما إلى الله وإلى الدخول في دين الإسلام ليثبت حكمهم، وإلا فليدفعوا الجزية أو ليستعدوا لقدومه عليهم «بقوم يحبون الموت كما يحب الفرس الحياة».[2]

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٢٠.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٤٣.

نقل الطبري نص الكتابين التالي:[1]

«بسم الله الرحمن الرحيم. من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس؛ أمّا بعد، فالحمد لله الذي حلّ نظامكم، ووهّن كيدكم، وفرّق كلمتكم، ولو لم يفعل ذلك بكم كان شرّاً لكم؛ فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم، ونجوزكم إلى غيركم، وإلاّ كان ذلك وأنتم كارهون على غلَبٍ، على أيدي قومٍ يحبّون الموت كما تحبّون الحياة.

بسم الله الرحمن الرحيم. من خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس؛ أمّا بعد فأسلِموا تسلَموا؛ وإلاّ فاعتقدوا مني الذّمّة، وأدّوا الجزية، وإلاّ فقد جئتكم بقوم يحبّون الموت، كما تحبّون شرب الخمر».

تلقى ملوك ومرازبة الفرس الكتابين، وهما إنذار من خالد لهم جميعاً. إلاّ أنهم كانوا لا يزالون متفرّقي الآراء بسبب مقتل الملك أردشير وعدم الاتفاق مع بعضهم أمام الخطر الداهم. وأجمعوا على رجل يتولى الملك عليهم مؤقتاً وهو «الفرخزاد بن البندوان» رغم أنه ليس من الأسرة المالكة، «وذلك إلى أن يجتمع آل كسرى على رجل إذا وجدوه».[2]

وبعد الاتفاق على الحاكم الجديد لفارس، راح الفرس يستعدون لمحاربة المسلمين.

---

(1) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٢١.

(2) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٤٥.

الفصل الحادي عشر

العمليات الأخرى على الجبهة العراقية

رغم إنجاز الهدف الأول من خطة الخليفة أبي بكر لفتح العراق، فإن الهدف الثاني لم يتحقق. فمن المعروف أن الخليفة أمر خالد ابن الوليد بالمسير إلى الحيرة وملاقاة عياض ابن غنم الذي كان يتقدّم على المسلك الشمالي. ومن المعروف أيضاً أن خالداً فتح الحيرة وأعاد تنظيم قواته وكاتب ملوك ومرازبة فارس، وكان يرغب بمتابعة التقدّم نحو عاصمة الدولة الساسانية «المدائن».

في ذلك الوقت كان عياض بن غنم واقعاً في أزمة حادة. فعندما انطلق شمالاً لبلوغ الحيرة، رأى أن يبدأ بفتح دومة الجندل قبل وصوله إلى المصيخ نظراً لموقعها الاستراتيجي المهم. لكن أهل دومة الجندل قرروا الدفاع عنها بعد أن تجمّع فيها عدد كبير من المقاتلين.

وصل عياض إلى دومة الجندل وحاصرها ودعا أهلها إلى إحدى ثلاث: الإسلام أو دفع الجزية أو القتال، فاختاروا القتال. حاول المسلمون اقتحامها من دون نتيجة، واستطاع قسم من أهلها الخروج منها ودعوة العرب المجاورين لها لمساعدتهم، فقام هؤلاء بمحاصرة قسم من جيش عياض. وهكذا أصبح عياض يحاصر المدينة وهو محاصر.

استمرّ الحصار أربعة أشهر، وكان خالد خلال هذه المدّة ينتظر عياض لمتابعة تقدّمه نحو المدائن. إلاّ أنه بات عليه أن ينقذ جيش عياض قبل توجهه إلى عاصمة الدولة الساسانية. لذلك وضع خطة جديدة لمتابعة تقدّمه على الصورة التالية:[١]

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٢٢.

- يتقدّم شمالاً على طريق «الفلّوجة» لينزل في كربلاء، ويقوم بعدها بفتح المدن والحصون التي قد تشكّل مصدر خطر على جيشه.

- يتجه إلى دومة الجندل لفك الحصار عن جيش عيّاض.

- يحاصر دومة الجندل بقصد فتحها.

كتب الطبري عن هذه المرحلة من خطة خالد:[1]

«فأتى خالد على ما كان أمِر به، ونزل الحيرة، واستقام له ما بين الفلاليج إلى أسفل السَّواد، وفرّق سواد الحيرة يومئذ على جرير ابن عبدالله الحميريّ، وبشير بن الخصاصيّة، وخالد بن الواشمة، وابن ذي العنق، وأطّ، وسويد وضرار؛ وفرّق سواد الأُبلّة على سويد ابن مقرّن، وحسَكة الحبطيّ، والحصين بن أبي الحُر، وربيعة بن عسل، وأقرّ المسالح على ثغورهم، واستخلف على الحيرة القعقاع بن عمرو. وخرج خالد في عمل عياض ليقضِي ما بينه وبينه، ولإغاثته، فسلك الفَلّوجة حتى نزل بكَربَلاء وعلى مَسْلَحتِها عاصم بن عمرو، وعلى مقدّمة خالد الأقرع بن حابس؛ لأنّ المثنّى كان على ثَغْر من الثّغور التي تلي المدائن؛ فكانوا يغاورون أهل فارس، وينتهون إلى شاطىء دجلة قبل خروج خالد من الحيرة وبعد خروجه في إغاثة عياض.

كتب إليّ السريّ، عن شُعَيب، عن سيف، عن أبي رَوْق، عمّن شهدهم بمثله، إلى أن قال: وأقام خالد على كربلاء أيّاماً، وشكا إليه عبدالله بن وثيمة الذُّباب، فقال له خالد: اصبِر فإنّي إنّما أريد ان أستفرغ المسالح التي أمِر بها عياضٌ فنسكنها العرب، فتأمن جنود المسلمين أن يؤتَوا من خَلفهم، وتجيئنا العرب آمنةً وغير مُتَعْتَعَة؛ وبذلك أمرَنا الخليفة، ورأيه يعدل نَجدة الأمّة».

أولاً – فتح الأنبار أو وقعة ذات العيون

كان خالد يفضل التوجه نحو القادسية بعد أن حمى الثغور وعيّن أمراء عليها

---

(1) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٢٢.

وضمن الخراج على يد عمّاله. لكن الخليفة أبو بكر رأى خطراً في توغّل خالد في البادية إذ أنه يصبح بين عدوين: الفرس عن يمينه والروم عن يساره، كما يصبح غير محمي من الوراء إذ أن السواد لم يكن قد تجذّر الإسلام فيه. لذلك أمره الخليفة أن ينتظر قدوم عياض إلى الحيرة.

لكن انتظار خالد طال سنة كاملة، سماها «سنة نساء»، قبل أن يأتيه أمر الخليفة بملاقاة غياض، فترك الحيرة بقيادة القعقاع بن عمرو وخرج باتجاه الأنبار[1] التي يقطنها عرب وفيها جالية فارسية يقودها قائد اسمه «شيرزاد».

كتب ابن كثير عن وقعة ذات العيون وفتح الأنبار:[2]

«ركب خالد في جيوشه فسار حتى انتهى إلى الأنبار وعليها رجل من أعقل الفرس وأسودهم في أنفسهم، يقال له شيرزاد، فأحاط بها خالد وعليها خندق وحوله أعراب من قومهم على دينهم، واجتمع معهم أهل أرضهم، فمانعوا خالداً أن يصل إلى الخندق فضرب معهم رأساً. ولما تواجه الفريقان أمر خالد أصحابه فرشقوهم بالنبال حتى فقأوا منهم ألف عين، فتصايح الناس: ذهبت عيون أهل الأنبار، وسميت هذه الغزوة ذات العيون. فراسل شيرزاد خالداً في الصلح، فاشترط خالداً أموراً امتنع شيرزاد من قبولها، فتقدّم خالد إلى الخندق فاستدعى برذايا الأموال من الإبل فذبحها حتى ردم الخندق بها وجاز هو وأصحابه فوقها، فلمّا رأى شيرزاد ذلك أجاب إلى الصلح على الشروط التي اشترطها خالد، وسأله أن يرده إلى مأمنه فوفى له خالد بذلك. وخرج شيرزاد من الأنبار وتسلّمها خالد. فنزلها واطمأنّ بها، وتعلّم الصحابة ممن بها من العرب الكتابة العربية، وكان أولئك العرب قد تعلّموها من عرب قبلهم وهم بنو إياد، كانوا بها في زمان بختنصر حين أباح العراق للعرب».

وبالفعل، وصل خالد على رأس الجيش وأخذ يدرس طبيعة الحصن فشاهد على

(١) هي بلدة تقع على مسافة مائة كيلومتر شمال كربلاء.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٤٣ - ٣٤٤.

سطحه مئات الرجال من العرب من غير المقاتلين، فاختار فرقة من أمهر رماة جيشه وطلب منهم التصويب بالنبال على عيون أهل الأنبار من دون سواها. وعندما أعطى أوامره بالرمي، انطلقت مئات السهام برشق واحد أصابت عيون رجال الأنبار. وتتابع الرمي حتى اختفى الرجال عن السطح، لذلك سميت تلك الوقعة «ذات العيون».

كتب ابن الأثير عن خطة خالد بن الوليد هذه:(١)

«ثمّ سار خالد على تعبيته [التي خرج فيها من الحيرة] إلى الأنبار - وأنما سمي الأنبار لأن أهراء الطعام كانت بها أنابير - وعلى مقدّمته الأقرع بن حابس. فلما بلغها أطاف بها، وأنشب القتال، وكان قليل الصبر عنه [إذا رآه أو سمع به] وتقدّم إلى رماته [فأوصاهم] أن يقصدوا عيونهم فرموا رشقاً واحداً، ثمّ تابعوا فأصابوا ألف عين، فسميت تلك الوقعة «ذات العيون»، وكان على من بها من الجند شيرزاد صاحب ساباط [وكان أعقل أعجمي يومئذ]، فلمّا رأى ذلك أرسل يطلب الصلح على أمر لم يرضه خالد، فردّ رسله ونحر من إبل العسكر كلّ ضعيف وألقاه في خندقهم ثمّ عبره، فاجتمع المسلمون والكفار في الخندق. فأرسل شيرزاد إلى خالد وبذل له ما أراد. فصالحه على أن يلحقه بمأمنه في جريدة ليس معهم من متاع شيء وخرج شيرزاد إلى بهمن جاذويه، ثمّ صالح خالد من حول الأنبار وأهل كِلْواذى».(٢)

وهكذا فتح خالد الأنبار بعد أن دار قتال شديد انتهى بانكفاء الفرس إلى الحصن وتجمعهم فيه مما دفع قائده للنزول عند رغبة خالد ليستأمنه على نفسه، فأمّنه خالد وأمر بإطلاق سراحه وإلحاقه بأصحابه من الفرس مع مفرزة من الخيل بلا مال أو متاع.

أكمل الطبري الرواية، فكتب:(٣)

«وأرَزَ القوم إلى حصنهم، وراسل شيرزاد خالداً في الصلح على ما أراد، فقبل منه على

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء، ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

(٢) كلواذى: موضع قرب بغداد.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٢٣.

أن يخلّيَه ويُلحِقَه بمأمنه في جريدة خيل، ليس معهم من المتاع والأموال شيء؛ فخرج شيرزاد، فلمّا قدِم على بهمن جاذويه، فأخبره الخبر لامه، فقال: إني كنت في قوم ليست لهم عقول، وأصلهم من العرب، فسمعتهم مَقدَمهم علينا يقضون على أنفسهم، وقلّما قضى قوم على أنفسهم قضاء إلاّ وجب عليهم. ثمّ قاتلهم الجند، ففقؤوا فيهم وفي أهل الأرض ألف عين؛ فعرفت أن المسالمة أسلم».

أعطى خالد أهل الأنبار الأمان وصالحهم على الجزية، ومكث مدّة قصيرة فيها فسارع سكان القرى المجاورة إلى مصالحته. وكان هؤلاء من قرى «البوازيج[1] وكلواذى» الذين بقوا على عهد خالد ولم ينقضوا ما بينهم وبينه أبداً.

الدروس المستقاة:

١ – أخطأ القائد عياض بن غنم عندما قرر ونفذ محاصرة دومة الجندل بدلاً من بلوغ الهدف الذي حدده له الخليفة بسرعة ولقاء خالد بن الوليد لمحاصرة الحيرة. وهكذا خرق عيّاض مبدأين من مبادىء الحرب الثلاثة:

أ – المبدأ الثاني أي حرية العمل إذ أنه فَقَد حرية عمله لأنه خالف مهمته القاضية ببلوغ الحيرة لملاقاة خالد بن الوليد ومحاصرتها. فبدلاً من تنفيذ هذه المهمّة وجّه جيشه إلى دومة الجندل لفتحها. كان عليه أن يرفع الحصار بسرعة عنها وقبل أن يتمكّن الفرس والعرب الموالون لهم من محاصرته، وينطلق بسرعة لتنفيذ مهمّته الأساسية أي فتح الحيرة ومتابعة التقدّم إلى المدائن. فبدلاً من أن يكون عوناً لخالد أصبح عبئاً عليه إذ رأى هذا الأخير ضرورة فك الحصار عن جيشه قبل الانطلاق إلى المدائن، الأمر الذي أخّر الفتوحات على جبهة العراق أكثر من أربعة أشهر.

ب – المبدأ الثالث أي «الحصيل الأقصى للوسائل». فبدلاً من توحيد جهد الجيشين الإسلاميين في الفتوحات العراقية، أُقصي جيش عياض عن المهمة

(١) البوازيج هي بلدة قرب تكريت، على الزاب الأسفل.

ورأى خالد نفسه مضطراً لإهمال مهمّته الأساسية بهدف فك الحصار عنه.

٢ - وضع خالد خطة لفك الحصار عن عياض ومتابعة تنفيذ مهمتهما، فلم يهمل أي تفصيل. لقد حمى الثغور وعيّن أمراء عليها وضمن الخراج واستخلف على الحيرة القعقاع، وأرسل مفرزة أمامية كي لا يتعرّض لمفاجآت عسكرية. ثمّ سار على تعبئة تامة.

٣ - درس خالد الصعوبات التي تعترض تنفيذ مهمته وعمل على تذليلها الواحدة تلو الأخرى، نذكر منها أنه:

أ - أسكن العرب في المسالح التي أمر بها عياض وذلك لحماية مؤخّرة جيشه المتقدّم نحو المدائن.

ب - بعد دراسة طبيعة حصن الأنبار ومشاهدة المئات على سطحه، وجه رماة نباله إلى عيونهم ففقأها فاختفى هؤلاء عن السطح.

ج - ولمّا اعترض المسلمين خندق يحيط بالأنبار، ذبح الإبل وردمه وجاز وأصحابه فوقها مؤمناً بذلك حرية وصوله إلى الأسوار. وهذا ما دفع صاحب الحصن إلى القبول بشروطه للصلح.

د - بقي خالد مدّة قصيرة في الأنبار بعد فتحها ثمّ انطلق مسرعاً لإكمال تنفيذ مهمته الأساسية.

فالحرب، كما يراها الاستراتيجيون، هي تنفيذ كلّي. لقد كتب أحدهم عن ذلك أنه «لا مجال للدرس أثناء القتال، وجُلّ ما يمكن صنعه هناك هو تطبيق ما تعرف، ويجب أن تعرف الكثير لتستطيع القليل».

ثانياً - وقعة عين التمر[١]

كانت بلدة عين التمر عامرة ومقسّمة إلى ست نواحٍ: بابل - خطرفية - الفلوجة العليا - الفلوجة السفلى - النهرين وعين التمر. وهي تقع على طريق تصل إلى بُصرى الشام.

وكان قد اجتمع في عين التمر جموع من العرب والفرس. وكان رئيس العرب «عقة بن أبي عقة»، ورئيس الفرس «مهران بن بهرام».

(١) عين التمر بلدة قريبة من الانبار، غربي الكوفة.

وكان العرب من قبائل النمر وتغلب وإياد.[1]

أما خالد بن الوليد، فبعد أن استتب وضع قواته في الأنبار ومكث فيها بضعة أيام، كلف «الزبرقان بن بدر» بقيادة حاميتها، وأمر قواته بالسير نحو عين التمر، وسار بنفسه على رأس جيشه. ولما وصل قريباً منها طلب عقة من مهران أن يسمح له ولرجاله بقتال خالد على أن يساعدهم الفرس إذا لزم الأمر. وقد قال لمهران:[2]

- «إن العرب أعلم بقتال العرب. فدعنا وخالد».

قبل مهران ذلك محافظة على رجاله.

كتب الطبري عن وقعة عين التمر ما يلي:[3]

«كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلّب وزياد، قالوا: ولما فرغ خالد من الأنبار، واستحكمت له، استخلف على الأنبار الزِّبْرِقان بن بدر، وقصد لعين التّمر؛ وبها يومئذ مهران بن بهرام جوبين في جمع عظيم من العجم، وعقّة بن أبي عقّة في جمع عظيم من العرب من النَّمِر وتغلب وإياد ومن لافَهم. فلما سمعوا بخالد قال عقّة لمهران: إنّ العرب أعلم بقتال العرب، فدعنا وخالداً، قال: صدقت، لعمري لأنتم أعلم بقتال العرب، وإنّكم لمثلنا في قتال العجم. فخدعه واتّقى به، وقال: دونكموهم وإن احتجتم إلينا أعنّاكم. فلما مضى نحو خالد قالت له الأعاجم: ما حملك على أن تقول هذا القول لهذا الكلب! فقال: دعوني فإني لم أرد إلاّ ما هو خير لكم وشرّ لهم؛ إنّه قد جاءكم مَن قتل ملوككم، وفلّ حدّكم، فاتّقيته بهم؛ فإن كانت لهم على خالد فهي لكم؛ وإن كانت الأخرى لم تبلغوا منهم حتى يَهِنوا، فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعفون. فاعترفوا له بفضل الرّأي، فلزم مِهران العين، ونزل عَقّة لخالد على الطريق،

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٤٤.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٢٤.

وعلى ميمنته بُجَير بن فلان أحد بني عتبة ابن سعد بن زهير، وعلى ميسرته الهذيل بن عمران، وبين عقّة وبين مهران رَوْحَة أو غدوة، ومِهران في الحصن في رابطة فارس، وعقّة على طريق الكَرْخ كالخفير. فقدم عليه خالد وهو في تعبئة جنده، فعبّى خالد جنده وقال لمجنّبتيه: اكفونا ما عنده، فإني حامل؛ ووكّل بنفسه حوامي، ثمّ حمل وعقّة يقيم صفوفه؛ فاحتضنه فأخذه أسيراً، وانهزم صفّه من غير قتال، فأكثروا فيهم الأسر، وهرب بُجَير والهذيل، واتّبعهم المسلمون. ولمّا جاء الخبرُ مِهران هرب في جُنده، وتركوا الحِصن. ولمّا انتهت فُلاّل عَقّة من العرب والعجم إلى الحصن اقتحموه واعتصموا به؛ وأقبل خالد في النّاس حتّى ينزل على الحِصن ومعه عَقّة أسير وعمرو بن الصَّعِق، وهم يرجون أن يكون خالد كمن كان يُغير من العرب، فلما رأوه يحاولهم سألوه الأمان. فأبى إلاّ على حُكمه فسلسوا له به. فلما فتحوا دفعهم إلى المسلمين فصاروا مِساكاً. وأمر خالد بعقّة وكان خفير القوم فضُربت عُنقه ليوئس الأسراءَ من الحياة. ولما رآه الأسراءُ مطروحاً على الجسر يئسوا من الحياة. ثمّ دعا بعمرو ابن الصَّعِق فضرب عنقه، وضرب أعناق أهل الحصْن أجمعين. وسَبى كلّ من حوى حصنهم».

التقييم:

من إنجازات خالد بن الوليد في هذه الوقعة انه سار بجيشه من الأنبار إلى عين التمر بجهوزية كاملة، لذلك كان جاهزاً لخوض المعركة فور وصوله، فيما خصمه غير جاهز. والإنجاز الثاني الذي نفذه مرات عدّة انه احتضن خصمه فأخذه أسيراً فأوقع بيد جنده وأصبحت المعركة بحكم المنتهية لصالح المسلمين. كما أنه قضى على مقاتلي حامية عين التمر كي لا يضطر إلى وضع قسم كبير من جيشه لحمايتها.

وبعد فتح عين التمر أصبح خالد جاهزاً لنجدة عيّاض بن غنم المحاصر في دومة الجندل.

ثالثاً – وقعة دومة الجندل

وهكذا أصبح على خالد التوجّه لفك الطوق عن جيش عياض الذي يحاصر

بدوره دومة الجندل. لذلك لم يمكث في عين التمر سوى أيام معدودة ريثما نظّم شؤون المسلمين فيها، ثمّ انطلق باتجاه دومة الجندل.

روى الطبري خبر توجه خالد نحو دومة الجندل وتصرف المقاتلين فيها، فكتب:[١]

«قالوا: ولما فرغ خالد من عَين التّمر خلّف فيها عُوَيْم بن الكاهل الأسلميّ، وخرج في تعبيته الّتي دخل فيها العين. ولّما بلغ أهل دُومة مسيرُ خالد إليهم بعثوا إلى أحزابهم من بَهْراء وكلب وغسّان وتَنُوخ والضَّجاعم، وقبلُ ما قد أتاهم وديعة في كلْب وبهراء، ومساندُه ابن وَبَرة بن رُومانِس، وأتاهم ابن الحِدرجان في الضَّجاعم، وابن الأيْهم في طوائف من غسّان وتَنُوخ، فأشجَوا عياضاً وشجُوا به.

فلمّا بلغوا دنوّ خالد؛ وهم على رئيسين: أكَيْدر بن عبد الملك والجُوديّ بن ربيعة، اختلفوا، فقال أكيدر: أنا أعلمُ النّاس بخالد؛ لا أحد أيمنُ طائراً منه، ولا أحدّ في حرب، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قَلّوا أو كثَروا إلاّ انهزموا عنه؛ فأطيعوني وصالحوا القوم. فأبَوْا عليه. فقال: لن أمالئكم على حرب خالد، فشأنكم».

ثمّ انصرف اكيدر فيما اختار الباقون القتال.

وتوافدت وفود العرب الموالين للفرس إلى دومة الجندل فضاق الحصن بالوافدين فتجمّع قسم منهم خارجه وقد حملوا أسلحتهم للقتال.

قسم خالد جنده إلى قسمين: قسم بقيادته ويبلغ أربعماية وخمسين فارساً، وآخر بقيادة عياض بن غنم. ثمّ جعل دومة الجندل وحصنها بينه وبين عياض آخذاً المبادرة في اختيار ساحة القتال.[٢]

أما أهل دومة الجندل فقسموا أنفسهم أربع فرق قتالية كما يلي:

- فرقة بقيادة الجودي بن ربيعة، القائد العام.
- فرقة بقيادة وديعة الكلبي ومعه مقاتلو كلب وبهران.

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٢٥.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٤٥.

- فرقة بقيادة ابن الايهم ومعه مقاتلو غسان وتنوخ.
- فرقة بقيادة ابن الحدرجان ومعه مقاتلو الضجاعم.

وكلفت الفرقتان الأولى والثانية التصدي لخالد والثالثة والرابعة مقاتلة عياض.

بدأ القتال بهجوم خالد بن الوليد على رأس المسلمين حيث دارت معركة شرسة وسريعة تساقط خلالها عدد من الأعداء قتلى وجرحى. ثمّ قام خالد بأسر الجودي وأوثقه بالقيود، واستطاع الاقرع بن حابس أسر وديعة الكلبي.

وأطبق خالد وعياض على أعدائهما الذين، ما إن شاهدوا أسر قائديهما، حتى تضعضعت صفوفهم وانهزموا نحو الحصن والمسلمون في أثرهم يُعملون السيوف في رقابهم.

كتب ابن الأثير يصف المعركة:(١)

«ولمّا فرغ خالد من عين التمر أتاه كتاب عياض بن غنم يستمدّه على من بإزائه من المشركين فسار خالد إليه فكان بإزائه بهراء، وكلب وغسان، وتنّوخ، والضجاعم، وكانت دومة على رئيسين، أكيدر بن عبد الملك، والجودي بن ربيعة. فأما أكيدر فلم ير قتال خالد وأشار بصلحه خوفاً فلم يقبلوا منه [فقال: لن أمالئكم على حرب خالد فشأنكم]، فخرج عنهم وسمع خالد بمسيره فأرسل إلى طريقه [عاصم بن عمرو معارضاً له] فأخذه أسيراً فقتله وأخذ ما كان معه. وسار حتى نزل على أهل دومة الجندل فجعلها بينه وبين عياض [وكان النصارى الذين أمدوا أهل دومة من العرب محيطين بحصن دومة لم يحملهم الحصن]، فلمّا اطمئنّ خالد خرج إليه الجودي في جمع ممن عنده من العرب لقتاله، وأخرج طائفة أخرى إلى عياض فقاتلهم عياض فهزمهم فهزم خالد من يليه. وأخذ الجودي أسيراً وانهزموا إلى الحصن [فلم يحملهم]، فلما امتلأ أغلقوا الباب دون أصحابهم فبقوا حوله [حرداء]، فأخذهم خالد فقتلهم حتى سد باب الحصن، وقتل الجودي، وقتل الأسرى إلاّ أسرى كلب فإن بني تميم قالوا لخالد: قد

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٤٧.

أمناهم وكانوا حلفاءهم فتركهم، [وقال: ما لي ولكم أتحفظون أمر الجاهلية وتضيّعون أمر الإسلام؟. فقال له عاصم: لا تحسدهم العافية ولا يحوذهم الشيطان]».

بقي قسم من المقاتلين خارج الحصن، فهاجمهم خالد وقضى عليهم، ثمّ هاجم الحصن فاقتحم بابه بجنده وقتل من بداخله من المقاتلين،[1] باستثناء أسرى كلب الذين حماهم عاصم والأقرع وبنو تميم لأنهم كانوا حلفاء لهم في ما سبق.[2]

من جهته انتصر جيش عياض في قتاله ضد فريقي ابن الايهم وابن الحدرجان والجأهم إلى الحصن فاجتمع جيشه بجيش خالد وأكملا المهمّة بنجاح.

جمع المسلمون السبايا والغنائم حيث بيعت السبايا في المزاد العلني فاشترى خالد ابنة الجودي.

بلغ عدد شهداء المسلمين في قتال دومة الجندل بضع عشرات.

وأقام خالد بضعة أيام في دومة الجندل.

رابعاً – الحُصيد والخنافس

الحصيد هو وادٍ بين الكوفة والشام، والخنافس هي أرض قرب الأنبار.

وكان خالد قد قرّر العودة إلى الحيرة مع عياض بن غنم على أن يعود الأقرع بن حابس إلى الأنبار مع جنده.

في هذا الوقت لاحظ الفرس وأحلافهم غياب خالد عن الحيرة فقروا استعادة ما فقدوه في حربهم معه. وكان العرب من جماعة عقّة الذي قتل في معركة التمر قد أرسلوا إلى أهل فارس كتباً يظهرون فيها استعدادهم لقتال المسلمين إلى جانبهم، فاقتنع الفرس بعرضهم وقرروا تشكيل جيش موحد لهذه الغاية.

وكان في بغداد قائدان فارسيان هما زرمهر وروزبة، فخرجا منها باتجاه الأنبار التي كان الزبرقان بن بدر قائدها. وتواعد القائدان الفارسيان على التلاقي في الحصيد والخنافس.

(١) سبب قتل المقاتلين انهم كان قد سبق وعاهدوا المسلمين على عدم قتالهم، لكنهم نكثوا العهد.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٤٧.

كتب الطبري عن إقدام زرمهر وروزبة ما يلي:(١)

«كتب إليّ السريّ، عن شعيب عن سيف، عن محمّد وطلحة والمهلّب، قالوا: وقد كان خالد أقام بدُومة، فظنّ الأعاجم به؛ وكاتبهم عرب الجزيرة غضباً لعَقّة؛ فخرج، زرمهر من بغداد ومعه رُوزبه يريدان الأنبار؛ واتّعدا حُصيداً والخنافس، فكتب الزّبرقان وهو على الأنبار إلى القعقاع بن عمرو وهو يومئذ خليفة خالد على الحيرة؛ فبعث القعقاع أعْبَدَ بن فَدَكِيّ السعديّ وأمره بالحُصيد، وبعث عُرْوة ابن الجعد البارقيّ وأمره بالخنافس، وقال لهما: إن رأيتما مَقْدَماً فأقدما. فخرجا فحالا بينهما وبين الريف، وأغلقاهما. وانتظر روزبه وزرمهر بالمسلمين اجتماع مَن كاتبهما من ربيعة؛ وقد كانوا تكاتبوا واتّعَدوا؛ فلمّا رجع خالد من دومة إلى الحيرة على الظّهر وبلغه ذلك وقد عزم على مصادمة أهل المدائن، كره خلاف أبي بكر، وأن يتعلّق عليه بشيء، فعجّل القعقاع بن عمرو وأبو ليلى بن فَدكِيّ إلى روزبه وزرمهر، فسبقاه إلى عين التمر.

وقدم على خالد كتاب امرىء القيس الكلبيّ، أنّ الهذيل بن عمران قد عسْكر بالمُصَيَّخ، ونزل ربيعة بن بُجير بالثّني وبالبِشْر في عسكر غضباً لعقّة، يريدان زرمهر ورُوزبه. فخرج خالد وعلى مقدّمته الأقرع بن حابس، واستخلَفَ على الحيرة عياض بن غَنْم، وأخذ طريق القعقاع وأبي ليلى إلى الخنافس حتى قدم عليهما بالعين، فبعث القعقاع إلى حُصيد، وأمَّره على الناس، وبعث أبا ليلى إلى الخنافس، وقال: زجّياهم ليجتمعوا ومن استثأرهم. فأبيا إلاّ المُقام.

خبر حُصيد

فلمّا رأى القعقاع أنّ زرمهر وروزبه لا يتحرّكان سار نحو حُصيد، وعلى من مرّ به من العرب والعجم روزْبه. ولمّا رأى روزبه أنّ القعقاع قد قصد له استمدّ زرمهر، فأمدّه بنفسه، واستخلف على عسكره المَهْبُوذان، فالتقوا بحُصيد، فاقتتلوا، فقتل الله العجَم مقتلةً عظيمة، وقَتَل القعقاعُ زرمهر. وقُتِل

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٢٥ – ٣٢٦.

روزبه؛ قتله عِصْمة بن عبدالله أحد بني الحارث بن طريف، من بني ضَبّة، وكان عصمة من البَرَرَة - وكلّ فَخِذٍ هاجرت بأسرها تُدعى البررة، وكلّ قوم هاجروا من بطن يُدعون الخِيَرة - فكان المسلمون خِيرَة وبرَرة. وغنم المسلمون يوم حُصيد غنائم كثيرة وأرز فُلاّل حُصيد إلى الخنافس فاجتمعوا بها.

الخَنافِس

وسار أبو ليلى بن فَدَكيّ بمن معه ومَن قدم عليه نحو الخنافس؛ وقد أرزت فُلاّل حُصيد إلى المَهْبوذان، فلمّا أحسّ المهبوذان [بقدومهم] هرب ومن معه وأرَزُوا إلى المُصَيَّخ، وبه الهُذيل بن عمران، ولم يلق بالخنافس كيداً، وبعثوا إلى خالد بالخبر جميعاً.

التقييم:

الظاهر أن القائدين الفارسيين توقفا من دون أن يجروا على قتال العرب المسلمين، وهذا يعكس خوفهما من المجابهة بعد المعارك الناجحة التي قادها خالد بن الوليد.

لكن القتال الذي جرى في الحصيد والخنافس أقنع خالد بتأجيل حملته على المدائن لحين استتباب الأمور في المناطق التي افتتحت حديثاً، لا سيما أن تعليمات الخليفة أبي بكر لم تكن حينذاك تشمل احتلال المدائن.

وكانت نتيجة معركة حصيد أن فرّ الفرس والموالون لهم من العرب في كلّ اتجاه بعد أن قتل منهم المسلمون أعداداً كبيرة، فانتهت المعركة بانتصار المسلمين.

أما الخنافس، فقد دخلها القائد المسلم أبو ليلى بن فدكي من دون قتال بعد أن استسلم أهلها، فأرسل إلى خالد بن الوليد في عين التمر نبأ الانتصار الجديد.

خامساً - وقعة مُصَيّخ[1]

التجأت فلول العدو المنهزمة من الخنافس والحصيد إلى المُصَيّخ بقيادة الهذيل بن

(١) تقع المصيخ بين حوران والقلت.

عمران. وأراد خالد أن يقضي عليهم وعلى أهل المصيخ الذين استقبلوهم. لذلك صمم على مطاردة هؤلاء، فأرسل إلى قادته يشرح لهم خطته القائمة على الهجوم الليلي على المصيخ لتأمين المفاجأة الكاملة.(١)

وكانت للمصيخ أهمية استراتيجية كونها تربط مناطق شمال شبه الجزيرة، ما بين دجلة والفرات، ببلاد الشام.

وقدّر خالد المسافة بين مكان تمركز قواته في عين التمر والمصيخ بمسيرة أربعة أيام، فأبلغ القادة الأربعة: القعقاع وأعبد بن فدكي وأبا ليلي بن فدكي وعروة بن الجعد البارقي بساعة المسير، فانطلق الأربعة كلّ من مكان تمركزه، كما انطلق خالد على رأس قواته من عين التمر.

ولجأ خالد إلى طريقة فريدة في ترك الخيول من دون ركوب فيما ركب المقاتلون الإبل والحمير، وذلك كي تكون الخيول التي تستعمل في القتال نشيطة وجاهزة.

وبعد نزول الليل، التقى خالد بقادته الذين أحاطوا بالمصيخ من كلّ جانب من دون أن يلفتوا نظر أهلها. ونظم خالد جهازية جيشه كما يلي:

أ - فرقة خالد تهاجم من جهة.

ب - كلّ من الفرق الثلاث تهاجم من إحدى الجهات الثلاث الأخرى.

نقل الطبري رواية القتال، فكتب:(٢)

«قالو: ولمّا انتهى الخبرُ إلى خالد بمصاب أهل الحُصيد وهرب أهل الخنافس كتب إليهم، ووعد القعقاع وأبا ليلى وأعبد وعُروة ليلة وساعة يجتمعون فيها إلى المصيّخ - وهو بين حوران والقَلْت - وخرج خالد من العين قاصداً للمصَيَّخ على الإبل يجنّب الخيل، فنزل الجَناب فالبَردان فالحني واستقلّ من الحني؛ فلمّا كان تلك الساعة من ليلة الموعد اتفقوا جميعاً بالمصَيّخ، فأغاروا على الهُذيل ومَن معه ومن أوى إليه؛ وهم نائمون من ثلاثة أوجه، فقتلوهم. وأفلت الهُذيل في أناس قليل؛ وامتلأ الفضاء قَتْلى، فما شبّهوا

(١) المعارك الليلية كانت نادرة في ذلك العصر.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٢٦.

بهم إلاّ غنماً مصرّعة؛ وقد كان حُرْقوص بن النّعمان قد محضهم النّصح، وأجاد الرأي، فلم ينتفعوا بتحذيره، وقال حرقوص بن النّعمان قبل الغارة:

«ألا اسَقياني قبل خيل أبي بكر
لعل منايانا قريب وما ندري»

وقد قتل حرقوص وسبيت بناته وقتل بنوه. كما قتل أقوى أبطال بني هلال. لكن الهذيل بن عمران نجا بنفسه مع بعض رجاله وأهله.

سادساً – وقعة الثّني والزُميل[1]

أقام ربيعة بن بجير التغلبي معسكره في الثني على نهر الفرات وراح يجمع المقاتلين من قبائل النمر وتغلب وإياد تمهيداً لشن هجوم على المسلمين في عين التمر، وذلك بعد مقتل عقة بن أبي عقة. ولجأ إليه الهذيل ومن نجا من المصيخ. وهكذا اجتمع إليه جمع كبير من المقاتلين.

ويمكن اعتبار الثني مركزاً متقدّماً للزميل وهي في منطقة نفوذ بني تغلب بن وائل.

وبعد أن انتهى خالد من أمر المُصيخ قرّر معالجة وضع الثني والزميل. لذلك اجتمع بقادته وأمر القعقاع وأبا ليلى أن يسيرا إلى الثني وضرب لهما موعداً محدداً من ليلة محدّدة يلتقون فيها معه في تخومها، وذلك كي لا يسير الجيش بكامله معاً مما قد يلفت انتباه الخصم.

ومرّ خالد في طريقه إلى الثني في وادي «عكة حوران»، ثمّ «الرنق» ثمّ «الحماة» فالزميل، وكان سيره طيلة أربعة أيام.[2] وانتظر الظلام حيث تسلّلت فرقه الثلاث بقيادته وقيادة القعقاع وأبي ليلى فحاصرت الثني.

وكان ربيعة بن بجير يغط مع قواته في نوم عميق حين أعطى خالد إشارة الهجوم، فهجم المسلمون على المجتمعين في الثني

(١) الزميل: موضع في ديار كلب – والثني منزل على نهر الفرات.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٢٧.

وقتلوهم جميعاً. وكان أداء المسلمين في هذه الوقعة كاملاً وشاملاً إذ أنهم حققوا إنجازين:

- الأول: مقتل كلّ من كان في الثني.
- الثاني: إخفاء خبر احتلال الثني عن أهل الزُميل. حيث معسكر عتّاب رئيس بني تغلب.

كتب ابن الأثير عن وقعة الثني ما يلي:(٢)

«ذكر وقعة الثني والزُّمَيْل

وكان ربيعة بن بجير التغلبي بالثني، والبشر - وهو الزميل - وهما شرقي الرصافة - قد خرج غضباً لعقة وواعد روزبه، وزرَمِهر، والهذيل. ولما أصاب خالد أهل المصيخ، واعد القعقاع، وأبا ليلى ليلة. وأمرهما بالمسير ليغيروا عليهم، فسار خالد من المصيخ فاجتمع هو وأصحابه بالثني فبيّتهم من ثلاثة أوجه - [كما فعل بأهل المصيخ] - وجردوا فيهم السيوف فلم يفلت منهم مخبر. وغنم وسبى، وبعث بالخبر والخمس [مع النعمان بن عوف] إلى أبي بكر فاشترى عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه بنت ربيعة بن بجير التغلبي [فاتّخذها] فولدت له عمرَ، ورقية.

ولّما انهزم الهذيل بالمصيخ لحق بعتاب بن فلان وهو بالبشر في عسكر ضخم فبيّتهم خالد بغارة شعواء من ثلاثة أوجه قبل أن يصل إليهم خبر ربيعة فقتل منهم مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها [وكانت على خالد يمين ليبغتن تغلب في دارها، وكانت في الأخماس ابنة مؤذن النمري، وليلى بنت خالد، وريحانة بنت الهذيل بن هبيرة]، وقسم الغنائم وبعث الخمس إلى أبي بكر [مع الصباح بن فلاح المزني]، وسار خالد من البشر إلى الرضاب، وبها هلال بن عقة. فتفرّق عنه أصحابه [حين سمعوا بدنوّ خالد] وسار هلال عنها فلم يلق خالد بها كيداً».

لم يعلم أهل الزُميل بما حلّ ببني قومهم وحلفائهم في الثني، لذلك انتقل خالد بقواته إلى الزميل حيث كان عتّاب بن فلان والهذيل بن عمران. وقام خالد بتقسيم جيشه إلى فرق ثلاث تهاجم كلّ منها من

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

جهة، فأطبق على أعدائه فقتل منهم كثيرين. واستبيحت الزميل أمام المسلمين الذين أخذوا بجمع الغنائم وسبي الذراري والنساء والأولاد، فأخرج خالد الخمس إلى الخليفة أبي بكر ووزع الأخماس الأربعة على المقاتلين.

سابعاً – الدروس المستقاة

١ – سار خالد كعادته من عين التمر إلى دومة الجندل على تعبئة تامة ودون ان يضيع وقتاً، وذلك لنجدة عياض بن غنم وفك الحصار عنه. وبوصوله إلى دوقة الجندل أخذ المبادرة في اختيار مكان المعركة مؤمناً بذلك «حرية عمله». ثمّ عمل على أسر قادة المدافعين عن الحصن مما أوقع الرعب في نفوسهم فتضعضعت صفوفهم وانهزموا نحو الحصن.

٢ – أخطأ المدافعون عن دومة الجندل بخروجهم منها لقتال المسلمين الذين كانوا يتأججون حماساً للقتال، خاصة بعد أن كان أهل الحصن قد قاموا بتعبئة عامة للقوى من بهراء وكلب وغسان وتنوخ والضجاعم. لقد كان عليهم البقاء داخل الحصن والاستفادة من أسواره في الدفاع.

وبالفعل، هزم المسلمون المشركين الذين أسرعوا للدخول إلى الحصن يلاحقهم المسلمون الذين وصلوا إلى أبواب السور قبل أن يتمكّن جميع أعدائهم في اجتيازها إلى داخل الحصن.

وهكذا انتصر المسلمون في وقعة دومة الجندل.

٣ – حاول الفرس القيام بهجوم معاكس يهدف إلى استعادة ما فقدوه، لا سيما بعد أن لاحظوا غياب خالد عن الحيرة. ونجح الفرس في منع خالد من إكمال تنفيذ مهمته التي تقضي بالسير نحو المدائن ومحاصرتها.

هذه المحاولة تعكس مفهوماً استراتيجياً عاماً يقضي باستعادة المبادرة في القتال الذي يكون عادة على نوعين، الهجوم والدفاع. والهجوم هو الذي يؤمن النصر عامة، لذلك يعمد المدافعون إلى القيام بعمليات هجومية محدودة كالإغارات والكمائن والهجمات المعاكسة.

فبعد أن يتمكّن العدو من خرق جبهة ما ودفع الوحدات التي تدافع عنها إلى

التراجع عنها، تعمد هذه الوحدات إلى إعادة تجميع قواتها وشن عملية هجومية تسمى «الهجوم المعاكس»، تهدف إلى إعادة السيطرة على المراكز الدفاعية التي سقطت بيد العدو. وهكذا تستعيد هذه الوحدات «حرية عملها» وتعمل على رفع معنويات عناصرها.

إلاّ ان خالد بن الوليد تنبه لذلك، فكلف قائدين من قواده بالتحرّك نحو الحصيد والخنافس فتمكنا من منع سقوطهما بيد الفرس.

٤ - ورغم نجاح خالد في منع سقوط الحصيد والخنافس، فإن العمليات الهجومية الفارسية أجبرته على تغيير خطته ومنعته من متابعة التقدّم نحو المدائن وأفقدته «حرية عمله» للمرة الأولى منذ بدء حملته على بلاد فارس.

ورداً على هذه العمليات، خطّط خالد ونفذ عملية ناجحة هاجم خلالها المصيخ التي كانت لها أهمية استراتيجية كونها تربط بين الشام والعراق. وأحسن خالد، خلال هذه العملية، تطبيق قواعد القتال، خاصة المحافظة على سرية الانتقال نحو العدو ومفاجأته، والدقة في التنسيق بين الوحدات التي هاجمت المصيخ، وتأمين جهوزية خيالته من خلال إراحة الخيول قبل المعركة.

وهكذا، فاجأ خالد أعداءه فيما هم نائمون فقضى عليهم واستعاد المبادرة وحرية العمل ورفع من معنويات عناصره.

٥ - وفي وقعة الثني حافظ خالد على سريّة انتقالات وحداته بتسللها ليلاً وبالتتابع، واستفاد من عنصر المفاجأة إذ هاجم قوات عدوه ليلاً فيما كان مقاتلوها يغطّون في نوم عميق. وهكذا حافظ على حرية عمله وأحسن تطبيق مبدأ الحرب الثالث (الحصيل الأقصى للوسائل) إذ أن عناصره اقتحموا الثني وقتلوا كلّ من فيها دون أن يتمكّن هؤلاء من الدفاع عن أنفسهم.

٦ - وفي معركة الزُميل، تمكن خالد من الحفاظ على السريّة الكاملة فلم يبلغ أهلها خبر سقوط الثني قبل وصوله مع فرقه الثلاث إليها. وهذا ما أمّن له عنصر المفاجأة الذي ساهم في نجاحه أيضاً في معركة الزميل.

ثامناً – معركة الفراض

كانت معركة الفراض آخر أعمال خالد في العراق قبل انتقاله إلى الشام بأمر من الخليفة أبي بكر.

فبعد انتهاء وقعة الزميل، فرّ هلال بن عقّة وراح يجمع الجموع في الرضاب.[1] وعندما أمر خالد جيشه بالزحف إليها، علمت الجماعات المتمركزة فيها بقدومه مع المسلمين، ففروا منها. لذلك، وعندما وصل خالد الرضاب، لم يجد فيها أحداً.

وقبل الحديث عن واقعة الفراض،[2] لا بد من الإشارة إلى أن المسلمين كانوا قد سيطروا فعلاً على مختلف المناطق الواقعة غرب نهر الفرات، من الجنوب إلى الشمال، وصولاً إلى حدود بلاد الشام. وفرض خالد على سكان هذه المناطق نظام الجزية وكتب إلى رؤسائهم كتب صلح. لذلك فإن وصول خالد إلى منطقة الرضاب كان توغّلاً داخل حدود بلاد الشام.

وهكذا لم يبقَ خالد مدّة طويلة فيها، بل اتجه إلى الفراض حيث اجتمعت إليه باقي قواته. وقد وصل إلى الفراض في شهر رمضان من السنة الثانية عشرة للهجرة[3] حيث وافته الفرق القادمة من الزُميل والبِشر، فأقام معسكره بانتظار قرار الخليفة في شأن إكمال أعمال الفتوحات.

أ – الحلف الثلاثي:

كانت الفُراض تقع على حدود الروم والفرس وعرب الجزيرة. وأراد خالد بإقامته فيها أن يحفظ ظهره عندما يسير إلى بلاد فارس. لكن وجوده فيها أغضب الروم في بلاد الشام وأزعجهم، فقرّروا التصدّي له مقيمين حلفاً ثلاثياً يجمعهم مع الفرس وعرب الجزيرة الموالين لهم من قبائل تغلب والنمر وإياد.

---

(١) الرضاب: موضع بالرصافة، داخل الأراضي الشامية.

(٢) الفراض منطقة تقع في الجنوب الشرقي لطريق الشام – العراق – غرب نهر الفرات. وهي موضع استراتيجي متقدّم بين شمال العراق وجنوب الشام.

(٣) الموافق لسنة ٦٣٤ ميلادية.

وهكذا أخذت مجموعات من العرب والفرس تقصد مقر قيادة الروم في شمال الجزيرة حتى تشكل منهم جيش كبير جداً، قرّر قادته التوجّه إلى الفراض لمحاربة المسلمين.[1]

كتب ابن كثير عن ظروف هذه المعركة:[2]

«ثمّ سار خالد بمن معه من المسلمين إلى الفراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة، فأقام هنالك شهر رمضان مفطراً لشغله بالأعداء. ولمّا بلغ الروم أمر خالد ومصيره إلى قرب بلادهم، حموا وغضبوا وجمعوا جموعاً كثيرة، واستمدّوا تغلب وإياد والنمر، ثمّ ناهدوا خالداً فحالت الفرات بينهم. فقالت الروم لخالد: اعبر إلينا، وقال خالد للروم: بل اعبروا أنتم، فعبرت الروم إليهم، وذلك للنصف من ذي القعدة سنة ثنتي عشرة، فاقتتلوا هنالك قتالاً عظيماً بليغاً. ثمّ هزم الله جموع الروم وتمكن المسلمون من اقتفائهم، فقتل في هذه المعركة مائة ألف».

أما الطبري، فقد جاءت روايته أكثر تفصيلاً إذ كتب:[3]

«فلمّا اجتمعَ المسلمون بالفِراض، حميت الرّوم واغتاظت، واستعانوا بمن يليهم من مسالح أهل فارس، وقد حموا واغتاظوا واستمدّوا تَغلِب وإياد والنَّمِر؛ فأمدّوهم؛ ثمّ ناهدوا خالداً؛ حتى إذا صار الفرات بينهم، قالوا: إمّا أن تعبرُوا إلينا وإمّا أن نعبُر إليكم. قال خالد: بل اعبروا إلينا، قالوا: فتنحّوا حتى نعبُر؛ فقال خالد: لا نفعل؛ ولكن اعبُروا أسفَل منّا. وذلك للنّصف من ذي القعدة سنة اثنتي عشرة. فقالت الرّوم وفارس بعضُهم لبعض: احتسبوا ملككم؛ هذا رجل يقاتل على دين، وله عقل وعلم، ووالله ليُنْصَرنّ ولنُخذلَنّ. ثمّ لم ينتفعوا بذلك؛ فعبروا أسفلَ من خالد؛ فلمّا تتامّوا قالت الروم: امتازوا حتى نعرف اليوم ما

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٢٨.
- الموافق لسنة ٦٣٤ ميلادية.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٤٧.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٢٨.

كان من حَسَن أو قبيح؛ من أيّنا يجيء! ففعلوا، فاقتتلوا قتالاً شديداً طويلاً. ثمّ إنّ الله عزّ وجلّ هزمهم، وقال خالد للمسلمين: ألحّوا عليهم ولا تُرَفّهوا عنهم؛ فجعل صاحب الخيل يحشر منهم الزُّمرة برماح أصحابه، فإذا جمعوهم قتلوهم، فقتل يوم الفِراض في المعركة وفي الطلب مائة ألف. وأقام خالد على الفِراض بعد الوقعة عشرا، ثمّ أذن في القفْل إلى الحيرة لخمس بقين من ذي القعدة؛ وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بهم؛ وأمر شَجرة بن الأعزّ أن يسوقهم، وأظهر خالد أنه في السّاقة».

ب - المعركة:

وكان خالد قد حصر أعداءه بين جيشه وبين الفرات، مما أعطاه موقعاً جيداً في المعركة. كما أنه لم يتنحَّ عن الجسر ليسمح لهم بالعبور، مما أجبرهم على العبور من جسر آخر أدنى من ذلك الجسر الذي تمركز المسلمون خلفه. وهذا ما أعطى للمسلمين موقعاً استراتيجياً ممتازاً.

رغم ذلك، كانت هذه المعركة قاسية على المسلمين كونهم يواجهون جيشاً كبيراً يفوقهم عدداً، وبطريقة المواجهة المباشرة وليس بالتسلل ليلاً كما حصل في المواقع السابقة. إلاّ أن خبرتهم في القتال وقيمة قيادتهم العملانية عوضنا نقص العديد فبدأت صفوف الحلفاء الثلاثة تتضعضع أمام هجمات فرسان المسلمين ورمّاحتهم، ثمّ بدأوا بالهرب من وجه المسلمين باتجاه الجسر. لكن خالداً كان قد وضع مجموعات من المسلمين في باب الجسر لمنع فرار المقاتلين. لذلك كتب الطبري عن الخطة هذه ما يأتي:[1]

«فجعل صاحب الخيل يحشر منهم الزمرة برماح أصحابه، فإذا جمعوهم قتلوهم».

وانتهت المعركة عندما استسلم الباقون من مقاتلي الحلفاء إلى القوات المسلمة.

اتفق المؤرّخون على أن عدد قتلى الحلفاء بلغ مائة ألف. ويعود سبب عدد القتلى الكبير إلى حشر جيوش الحلفاء بين جيش المسلمين ونهر الفرات، مما لم يسمح لهم بالفرار.

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٢٨.

في هذه المعركة ننهي الكتاب الثالث من الموسوعة، لننتقل بعد ذلك مع خالد بن الوليد إلى بلاد الشام التي ستشهد، هي أيضاً، معارك شرسة تنتهي بفتحها أمام القوات المسلمة ودخولها في المملكة الإسلامية التي كانت تتحضّر يومذاك.

ج - الدروس المستقاة:

١ - تعدّى خالد مهمّته فتوغّل بجيشه داخل حدود بلاد الشام التي كانت تسيطر عليها جيوش الامبراطورية البيزنطية، الأمر الذي ألّب هذه الأخيرة ضدّه. لذلك، وبدلاً من خوض الحرب ضدّ عدوٍ واحد أي الفرس، وجد نفسه بمقابل حلف ثلاثي من الروم والعرب والفرس.

٢ - رغم هذا الخطأ الاستراتيجي، أحسن خالد على الصعيد التكتيكي اختيار مكان معركة الفُراض إذ انه تمكّن من حصر أعدائه بين جيشه وبين نهر الفرات ففقدوا بذلك إمكانية المناورة وبالتالي «حرية العمل». لقد أخطأ الروم مرتين:

- الأولى عندما قبلوا أن يجتازوا النهر إلى الضفة الثانية للقاء جيش المسلمين.
- الثانية عندما اجتازوا من أسفل النهر ودون إجبار خالد على الإفساح في المجال لهم على الضفة الثانية لتركيز جيشهم. وهذا ما حصرهم بين الفرات والمسلمين وسمح للمسلمين بالمحافظة على الموقع الاستراتيجي الممتاز الذي يسيطرون عليه.

٣ - رغم إخلال خالد بمبدأ «نسبية الأهداف للوسائل» إذ أن جيش الروم كان يفوق جيشه بأضعاف، ورغم عدم استفادته من عنصر المفاجأة الذي درج على تأمينه لجيشه في الوقعات السابقة، فإنه أحسن الافادة من مبادىء وقواعد استراتيجية نذكر منها:

- المحافظة على حرية عمله بثبات جيشه على الجسر الذي تمركز خلفه، وحصر أعدائه بين جيشه ونهر الفرات.
- شن هجمات متتالية بالفرسان والرمّاحة، الأمر الذي أمّن للمسلمين الحدّة والاستمرارية في الهجوم.
- مسك جسور الفرات بمجموعات من المقاتلين المسلمين لمنع فرار مقاتلي الأعداء والقضاء عليهم كي لا يعودوا للانضمام إلى جيوش عدوّة أخرى في معارك لاحقة.

الخاتمة

يتساءل المدقّق في تفاصيل هذه المعارك التي سبق الكلام عنها على الجبهة العراقية عن:

- أية مدرسة عسكرية درس كلّ من الخليفة أبي بكر والقائد خالد بن الوليد الاستراتيجية العسكرية؟
- كيف قيّض الله للمسلمين في أول عهدهم بالفتوحات هذين القائدين العظيمين؟

مما لا شك فيه أن الخليفة أبا بكر أعطى الأوامر الصحيحة في كلّ ما توجّه به إلى القائدين خالد بن الوليد وعياض بن غنم عندما كلفهما بفتح بلاد فارس. كما أن توجيهاته إليهما وإلى كلّ القادة الذين شاركوا في أعمال فتح العراق تظهر مدى عمق تفكيره واهتمامه، ليس فقط بالمسلمين، إنما أيضاً بالشعوب التي ستعبر الجيوش العربية بلادها.

نقل المسعودي وصية أبي بكر إلى أمراء الجيش والتي أعطاها ليزيد بن أبي سفيان المتوجه إلى الشام، فكتب:(١)

«وصيتُهُ لأمَراء الجيش:

ولما أنفذ أبو بكر الأمراء إلى الشام كان فيما أوصى به يزيد ابن أبي سفيان وهو مشيع له، فقال له: إذا قدمت على أهل عملك فعدهم الخير وما بعده، وإذا وعدت فأنجز. ولا تكثرن عليهم الكلام، فإن بعضه ينسي بعضاً، وأصلح نفسك يصلح الناس لك، وإذا قدمت عليك رسل عدوك فأكرم منزلتهم،

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، جزء ٢، ص ٣٣١.

فإنه أول خيرك لهم، وأقلل حبسهم حتى يخرجوا وهم جاهلون بما عندك، وامنع من قبلك من محادثتهم، وكن أنت الذي تلي كلامهم. ولا تجعل سرك مع علانيتك فيمرج[1] عملك، وإذا استشرت فاصدق الخبر تصدق لك المشورة، ولا تكتم المستشار فتؤتي من قبل نفسك. وإذا بلغك عن العدو عورة فاكتمها حتى تعاينها، واستر في عسكرك الأخبار، وأذك[2] حرسك، وأكثر مفاجأتهم في ليلك ونهارك، واصدق اللقاء إذا لقيت، ولا تجبن فيجبن من سواك».

إن في هذه الوصية من المبادىء الاستراتيجية والتكتيكية ما يختصر عشرات الصفحات من الكتب العملانية العسكرية.

كما كتب أحمد عادل كمال عن أبي بكر:[3]

«إن الإنسان ليعجب اليوم من تلك النظريات الحربية التي هدي إليها رجل موفق مثل أبي بكر. ولم يكن لديه أركان حرب يشيرون عليه ولم يدرس الحروب في كلية أو أكاديمية ولم يكن بين يديه خرائط للعراق ينظر فيها ويرسم... لا شيء من هذا.

ولكنه مع ذلك كان يضع لعلم الحرب أُصولاً وقواعد وهو جالس على رمال المدينة في مسجد الرسول. ذلك الرجل الفذ، الأبيض، الذي تخالطه الصفرة، الحسن القامة، النحيف الأحنى، الخفيف العارضين، الذي لا يستمسك إزاره يسترخي عن حقويه، الرقيق، العتيق، معروق الوجه، غائر العينين، ناتىء الجبهة، عاري الأشاجع، الأقنى، حمش الساقين ممحوص الفخذين يُخضّب شعره بالحناء والكتم».

أما القائد خالد بن الوليد الذي أطلق عليه النبي ﷺ لقب «سيف الإسلام» والذي قال عن نفسه:

---

(١) يمرج عملك أي يضيع ويفسد.

(٢) أذكِ النار أي أشعلها - وإذكاء الحرس أي نشرهم.

(٣) أحمد عادل كمال، الطريق إلى المدائن، ص ٢٨٠.

«لقد لقيت كذا وكذا زحفاً، وما في جسمي شبر إلاّ وفيه ضربة أو طعنة أو رمية...».[1]

فقدكان من أشهر القادة العرب الذين عرفتهم الجاهلية، وعرفهم الإسلام، والذي اعتمدت عليه قريش في حربها ضد النبي ﷺ ثمّ اعتمد عليه المسلمون في حروبهم ضد الفرس والروم.

لقد كان خالد سيداً من سادة قومه، وشريفاً من أشرافهم وقائداً من قادتهم البارزين. وهو كان سنداً وعضداً وحامياً للإسلام. وهو لم يكن قائداً شجاعاً وممتازاً وحسب، إنما أيضاً فارساً قوياً ومقاتلاً شرساً. كان يباشر معاركه بهجومه بنفسه على قائد الجيش المعادي وأسره مما ينهي المعركة. ولاحقاً أمسى يخطط للمعركة في شكل لم يسبق له مثيل ويديرها بنفسه فيربحها على خصم يفوق جيشه عدداً وعدّة.

لكن الأهم من هذين القائدين كانت جموع المؤمنين من المسلمين الذين كان يجمعهم الحماس والرغبة في نشر الدين الإسلامي ورسالة النبي محمّد ﷺ إلى الاصقاع الجديدة.

كما أنه لا يجب أن ننسى النواحي الاقتصادية من الموضوع وضعف الامبراطوريتين اللتين كانتا تسيطران يومذاك على مناطق الشرق الأدنى، أي الفرس والروم.

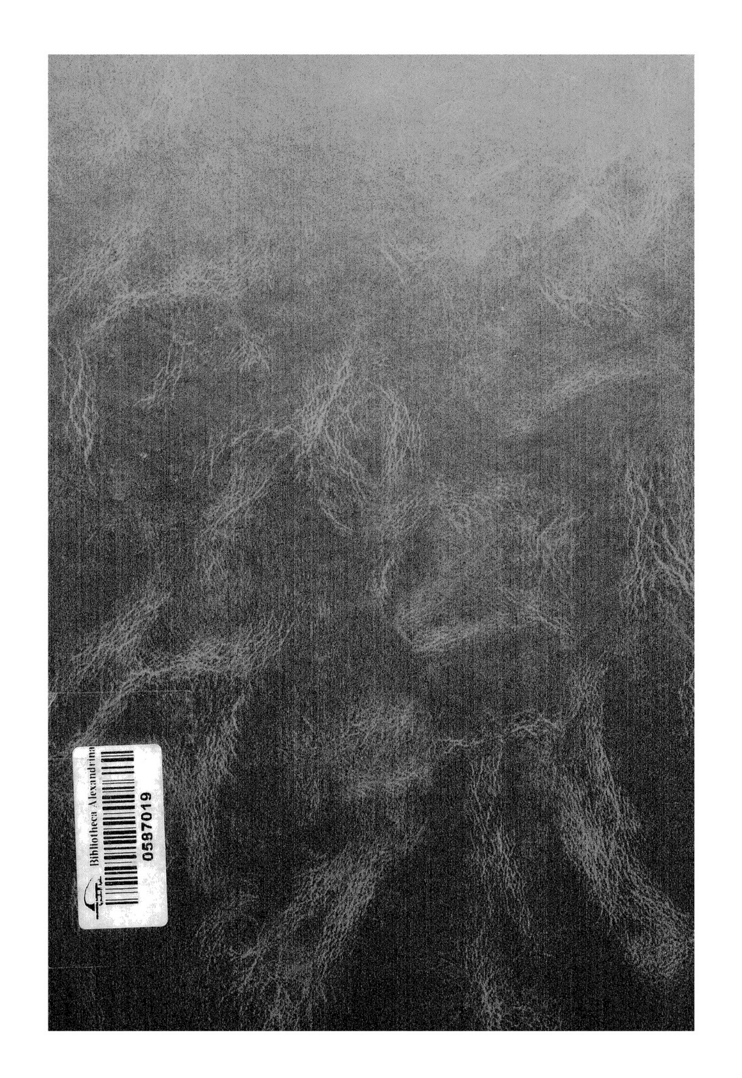
---

(١) سويد، مرجع سابق، ص ١٢٦.

فهرس الجزء (٣)

الخرائط

الصور


Bibliotheca Alexandrina
0587019